المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الذين أدركوا أن الحياة بحرٌ هائج،

وأن أمواج الفتن كالظُلل، تعلو وتحيط بنا من كل جانب...

هذا الكتاب ليس مرساة فحسب،

بل هو نداءٌ من أعماق سورة لقمان:

"يا بُنَيّ، لا تشرك بالله،

وامشِ في الحياة بقصد،

واخفض صوتك بخشوع،

فهنا يكمن سرُّ النجاة".

إلى التائهين في دروب الحياة،

وإلى الباحثين عن طمأنينة اليقين،

وإلى من أنهكتهم زخارف الدنيا فحنّوا إلى رحاب الحكمة...

إليكم جميعًا، أهدي هذه الخارطة.

المحامي احمد عبد الرزاق مربوش العامري

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة تعريفية بكتاب المفاهيم القرانيه من سوره لقمان: "الحكمة وبناء الإنسان: تدبر تطبيقي في سورة لقمان"

١/ محتوى الكتاب وجوهره والفكرة الرئيسية

المحتوى: يقدم الكتاب تدبرًا موضوعيًا متكاملا ً لسورة لقمان كاملة، متتبعًا آياتها مقطعًا مقطعًا .لا يقتصر على تفسير الألفاظ، بل يركز على استخراج "المفاهيم المركزية" من كل مقطع، ويربطها بشكل عضوي ليكشف عن هندسة السورة الفريدة .يبدأ من فكرة "الكتاب الحكيم" كمرجعية لبناء الهوية، ويمر بتشخيص الأمراض الثقافية والنفسية) كاشتراء لهو الحديث والاستكبار(، ويستعرض بناء الشخصية المتوازنة من خلال وصايا لقمان لابنه) التوحيد، بر الوالدين، مراقبة الله، الصلاة، الأمر بالمعروف، التواضع(، ويصل إلى ترسيخ الإيمان بالبعث وعظمة الله من خلال الآيات الكونية.
الجوهر: جوهر الكتاب ليس تفسيرًا نظريًا، بل هو رحلة عملية تهدف إلى إعادة بناء الشخصية المسلمة بناءً متكاملا ً، تبدأ من العقيدة الصافية وتتجلى في سلوك وأخلاق، وتنتهي بإنسان راسخ، شاكر صبور، مستمسك بالعروة الوثقى.
الفكرة الرئيسية: الفكرة المحورية التي يدور حولها الكتاب هي أن سورة لقمان تقدم مشروعًا متكاملا ً لصياغة "الهوية الثقافية" للمسلم، عبر بناء "المناعة الفكرية والإيمانية" القادرة على مقاومة طوفان "لهو الحديث" والاغترار بالحضارات المادية، وذلك بتأسيس الفرد على الحكمة، الشكر، واليقين.

٢/ أهداف المؤلف وأغراضه من تقديم هذا العمل

يسعى المؤلف من خلال هذا العمل إلى تحقيق جملة من الأهداف النبيلة، تتجاوز مجرد التفسير إلى التطبيق والتزكية:

.1نقل القارئ من التفسير إلى التدبر: تعويد القارئ على التفاعل الحي مع النص القرآني وكأنه يخاطبه مباشرة، وليس مجرد فهم معانيه التاريخية.
.2تقديم منهج متكامل لبناء الذات: استخدام وصايا لقمان كإطار عملي لبناء الشخصية المسلمة في جوانبها كافة: الإيمانية، التعبدية، الأخلاقية، والاجتماعية.
.3ترسيخ اليقين بالهوية الإسلامية: في زمن العولمة والغزو الثقافي، يهدف الكتاب إلى ترسيخ اعتزاز المسلم بمرجعيته) الكتاب الحكيم(، وتحصينه ضد الذوبان في الثقافات الأخرى، وذلك من خلال تقديم نموذج لقمان العبد الحكيم.
.4الربط بين الإيمان والواقع: إسقاط المفاهيم القرآنية على الواقع المعاصر للمسلم) مثل تشبيه "لهو الحديث" بالمحتوى التافه على وسائل التواصل، ومقارنة "الاستكبار" بمشكلات نفسية حديثة (ليجعل ا لإيمان حيًا وفاعلًا.
.5إحياء ثقافة الشكر والصبر والتواضع: إبراز هذه المفاهيم كتاج للحكمة وأساس للفلاح، وربطها ب السلوكيات اليومية الدقيقة كالمشي والكلام.

٣/ أسلوب المؤلف وطريقة العرض ومنهجه البياني

يتمتع الكتاب بأسلوب فريد وممتع يجمع بين العمق والوضوح، ومنهجه البياني يتجلى في:

· اللغة الأسلوب الحواري المباشر: يخاطب القارئ وكأنه يعيش أحداث السورة لحظة بلحظة، مستخدمًا عبارات مثل "تعال معي نعيش هذه الآية..."، "تأمل معي..."، مما يخلق تفاعلا ً وجدانيًا وعقليًا قويًا.
· التحليل البياني الدقيق: يقف مليًا عند الألفاظ القرآنية، محللًا دلالاتها البلاغية) مثل دلالة "يولج"، "خبير"، "العروة الوثقى" (وكيف تخدم هذه الدلالات المعنى الكلي والمقصد التربوي.
· ضرب الأمثال الواقعية والتشبيهات: يكثر من ضرب الأمثلة المعاصرة والقصص الواقعية والمشاهد الحسية) مثل مشهد العاصفة البحرية، أو ابن يدير ظهره لنصيحة والده (لتقريب المعاني المجردة وجعلها ملموسة.
· الاستفهام التقريري والاستنكاري: يبدأ العديد من المقاطع ب-"ألم تر..." أو أسئلة استنكارية لتحدي القارئ وإشراك عقله ووجدانه في عملية التدبر.
· الجمع بين العقل والوجدان: فهو لا يغذي العقل بالتحليل المنطقي فحسب، بل يلامس شغاف القلب بالصور المؤثرة والمواقف الإنسانية، ليجعل التأثير أعمق وأبقى.

٤/ بماذا يمتاز هذا الكتاب عن بقية التفاسير وما هو الجديد الذي قدمه

لا يمكن وصف هذا العمل بالكتاب التفسيري التقليدي، بل هو يتجاوز ذلك بكثير .الجديد الذي يقدمه:

.1النظرة الكلية الهندسية للسورة: بدلا ً من تفسير كل آية على حدة، يبني الكتاب فهمًا عضويًا للسورة، حيث يربط بدايتها بنهايتها، ويرى أن كل مقطع يخدم فكرة مركزية واحدة هي بناء الإنسان الراشد.
.2المفهوم المحوري "للهوية الثقافية": يعتبر أول عمل يفسر سورة لقمان من منظور "بناء الحصانة و الهوية الثقافية" للمسلم في مواجهة تحديات الحضارات المادية والغزو الفكري، وهو إسقاط بالغ الأ همية لعصرنا.
.3التطبيق العملي الواقعي المباشر: ينتقل من التنظير إلى التطبيق بشكل منهجي، حيث يخصص بعد كل مقطع "رسائل تربوية ونفسية وعملية"، ويقترح تمارين يومية) مثل "مرآة التواضع" أو "مقياس الصوت" (لترجمة المعاني القرآنية إلى سلوك.
.4المزج بين التفسير وعلم النفس والتربية: يربط ببراعة بين التحليل القرآني ومفاهيم علم النفس الحديث، كتحليل "الاستكبار" كمرض نفسي، والوقر كصمم وظيفي، وتقديم حلول عملية للآباء و المربين.
.5الخطاب الثنائي والمتعدد المستويات: يخاطب الفرد، والمربي، والداعية، والمجتمع، والأمة، في آن واحد، مما يجعله كتابًا شاملا ً لكل شرائح المجتمع.

٥/ هيكل المفاهيم

الكتاب مبني على استخلاص "مفاهيم مركزية" من كل مقطع، لتشكل في النهاية بناءً فكريًا متكاملا ً:

.1أساس البناء) المدخل(: "الكتاب الحكيم" هو المرجعية الوحيدة لبناء المعرفة والهوية، و"المحسنون" هم نموذج الإنسان المكتمل.
.2تشخيص الداء) التحذير(: نماذج "مشتري لهو الحديث" و"المستكبر الذي يولّي ظهره للحق" هي أمراض ثقافية ونفسية تهدد هوية المسلم ووجوده.
.3بناء الصرح) الوصايا التأسيسية(: سلسلة من المفاهيم المترابطة لبناء الذات: التوحيد كأساس - < الشكر كمفتاح للحكمة - <بر الوالدين كترجمة للمجتمع - <مراقبة الله) الإحسان (كحارس للضمير - < إقامة الصلاة كمصدر للقوة - <الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمسؤولية مجتمعية - <الصبر كعنوان للثبات - <التواضع) في المشي والصوت (كتتويج للبناء الأخلاقي.
.4ترسيخ الإيمان) الدلائل(: استعراض الآيات الكونية) خلق السموات، تسخير الشمس والقمر، الفلك في البحر (كمصدر لليقين والعودة إلى الفطرة، وأن الله هو الحق.
.5الخاتمة) الغاية(: التأكيد على رقابة الله) التقوى (ويوم الحساب كباعث نهائي على الإحسان، و التسليم لله في علم الغيب لتحقيق الطمأنينة والتحرر من قلق المستقبل.

٦/ المنهج المعتمد

يعتمد الكتاب منهجًا تركيبيًا تطبيقيًا فريدًا يمكن تسميته بـ "التدبر البياني التطبيقي"، ويتكون من الخطوات التالية:

· التحليل البياني: الغوص في دلالات الألفاظ والتراكيب القرآنية) دلالة: يُولج، يُنزّل، العروة الوثقى.(
· الاستنباط الموضوعي: استخراج المفاهيم المركزية التي تشكل محاور السورة) الهوية، الشكر، التواضع ، إلخ.(
· الربط العضوي: ربط هذه المفاهيم ببعضها البعض لبيان الهندسة الفريدة للسورة وكيف يخدم آخرها أولها.
· الإسقاط الواقعي المعاصر: مقارنة النماذج القرآنية بواقعنا المعاصر) لهو الحديث ووسائل التواصل، الا ستكبار والأمراض النفسية، إلخ.(
· التفعيل العملي: ترجمة المفاهيم إلى خطة عمل حياتية عبر "الرسائل العملية" و"التمارين اليومية".
· تعدد زوايا الخطاب: توجيه الدروس المستفادة للفرد) نفسيًا وعمليًا(، وللمربي) تربويًا(، وللداعية و المجتمع) حضاريًا.(

٧/ الجمهور المستهدف من هذا الكتاب

هذا الكتاب ليس لنخبة معينة، بل هو موجه لكل من يسعى إلى:

· المتدبر للقرآن: الذي يبحث عن فهم جديد وحيوي للنص يتجاوز التفسير التقليدي.
· الشباب الباحث عن هويته: ليجد في سورة لقمان دستورًا لبناء شخصيته في عصر التيه.
· الآباء والأمهات والمربين: ليجدوا منهجًا تربويًا متكاملا ً من خلال وصايا لقمان (لتنشئة جيل واع ومحصّن.
· الدعاة والمصلحين: ليكتسبوا أدوات تحليلية ونفسية واجتماعية جديدة في فهم الواقع وعلاجه.
· المهتمين بعلم النفس والتنمية البشرية: ليروا التكامل بين الإيمان وعلم النفس في بناء الإنسان.
· كل مسلم ومسلمة: يريد أن ينتقل بإيمانه من القلب إلى الجوارح، وأن يرى نفسه "محسنًا" كما أراد الله.

٨/ لماذا يجب أن تقرأ هذا الكتاب؟

هذا الكتاب ليس مجرد إضافة معرفية، بل هو ضرورة في عصرنا لأنه:

· يقدم رؤية قرآنية شاملة للوجود: تجيب عن أسئلة: من أنا؟ ما هي مرجعيتي؟ كيف أعيش؟ وما هو مصيري؟
· يقدم علاجًا ناجعًا لأمراض العصر: كالتفاهة، الاستهلاك، الضياع، والقلق الوجودي، وذلك من خلال تشخيصها بنظر قرآني وتقديم الدواء العملي لها.
· يحول الإيمان إلى قوة دافعة: تمنحك السكينة، الثبات، والمناعة النفسية في زمن الاضطرابات، عبر مفاهيم "التقوى"، "العروة الوثقى"، و"التسليم للغيب".
· يعيد تعريف النجاح والفلاح: ليس بالمال والجاه، بل بالحكمة والشكر والإحسان، وهذا هو الفلاح الحقيقي الذي يبحث عنه الجميع.

٩/ ثمار قراءة هذا الكتاب

بعد قراءة هذا الكتاب والتفاعل معه، سيحصد القارئ ثمارًا يانعة، منها:

.1فهم متجدد وعميق لسورة لقمان: لم يعد يراها مجرد سورة قرآنية، بل مشروع حياة متكامل.
.2امتلاك بوصلة أخلاقية وثقافية: القدرة على فرز الخبيث من الطيب في الواقع المعاصر بناءً على معيار "الحكمة".
.3اكتساب مهارات تدبرية: القدرة على تطبيق المنهج البياني التطبيقي على سور القرآن الأخرى.
.4تعزيز الصحة النفسية والإيمانية: الشعور بالطمأنينة والسكينة والتحرر من القلق والاستكبار من خلا ل "ثقافة الشكر" و"مراقبة الله".
.5منهج عملي للتربية: خريطة طريق متكاملة للآباء والمربين لبناء جيل صالح.
.6دافع قوي للتغيير: الانتقال من مرحلة التلقي السلبي إلى العمل الإيجابي المترجم للإيمان في كل تفاصيل الحياة.

١٠/ خاتمة المذكرة

في خضم بحر متلاطم من الأفكار والتيارات والتفسيرات، يأتي كتاب "الحكمة وبناء الإنسان: تدبر تطبيقي في سورة لقمان" كطوق نجاة وسفينة أمان .إنه ليس مجرد كتاب يُقرأ، بل رحلة تُعاش، ومشروع نهضة فردية وأسرية ومجتمعية، ينطلق من النبع الصافي للوحي، ويخاطب الإنسان في صميم عقله ووجدانه وسلوكه .إنه دعوة صادقة للعودة إلى الحكمة، ليس كمفهوم نظري، بل كحياة تُحيا، ليصحو القارئ بعدها وقد أدرك أنه من "المحسنين" الذين جاءهم الهدى والرحمة، وسار على طريقهم نحو الفلاح الأبدي .إنه بلا شك عمل فريد ومتميز، يملأ فراغًا كبيرًا في المكتبة القرآنية المعاصرة.

الكتاب من تاليف المحامي احمد عبد الرزاق مربوش
قام بمراجعة هذا الكتاب لغويا وفنيا وموضوعيا الاستاذ منير عبده عثمان الصلوى

بسم الله الرحمن الرحيم
مذكرة تعريفية بسورة لقمان
١/ عدد آيات السورة

عدد آيات سورة لقمان أربع وثلاثون آية (34) في جميع الأعداد المعتمدة .ولا خلاف في عدد آياتها بين أهل الأمصار.

٢/ مكان نزولها

مكية عند جمهور المفسرين .نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة .وقد حكى الاتفاق على مكيتها غير واحد من المفسرين.

واستُثنِيَ من ذلك بعض الآيات التي قيل إنها مدنية:

· الآية(27) : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾
· الآيات28) -(29: في بعض الروايات.

والصحيح الذي عليه الجمهور: أن السورة كلها مكية، وهو ما تؤكده خصائص السور المكية من حيث الموضوعات والأسلوب.

٣/ ترتيب السورة

من حيث ترتيب المصحف الشريف:

هي السورة الحادية والثلاثون (31) في ترتيب المصحف العثماني، تقع في الجزء الحادي والعشرين (21).

من حيث ترتيب النزول:

هي السورة السابعة والخمسون (57) في ترتيب النزول عند أكثر أهل العلم .نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

٤/ الأجواء التي نزلت فيها السورة

نزلت سورة لقمان في العهد المكي، وهو عهد تميز بأجواء خاصة:

.1الصراع العقائدي المحتدم: بين التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ والشرك الذي كان عليه قريش.
.2الاضطهاد والاستهزاء: كان المشركون يسخرون من النبي ﷺ ومن المستضعفين من المسلمين، ويصدون عن سماع القرآن.
.3ظهور نموذج "النضر بن الحارث": الذي كان يشتري أحاديث الفرس) قصص رستم واسفنديار (ليصد بها الناس عن القرآن، فنزلت فيه الآيات الأولى من السورة - على أحد الأقوال -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...﴾.
.4جدال المشركين بغير علم: كجدالهم في الله بغير هدى ولا كتاب منير، وتقليدهم للآباء دون بصيرة.
.5تعلق المشركين بالدنيا: واغترارهم بما أوتوه من متاع قليل، مع إعراضهم عن الآخرة.

٥/ أغراض السورة ومقاصدها

تدور سورة لقمان حول مقصد محوري هو: بناء الإنسان المؤمن المحسن الذي يستمسك بالكتاب الحكيم، ويقاوم تيارات التفاهة والاستكبار.

ومن أبرز أغراضها:

.1بيان قيمة الكتاب الحكيم: وأنه المرجعية الوحيدة لبناء الهوية والثقافة.
.2عرض نموذجين متقابلين للإنسان: المحسن الذي يهتدي بالكتاب، والمفسد الذي يشتري لهو الحديث ويستكبر عن آيات الله.

.3تقديم منهج تربوي متكامل: من خلال وصايا لقمان لابنه.
.4إقامة الأدلة على وحدانية الله: من خلال الآيات الكونية) خلق السموات، تسخير الشمس والقمر، الفلك في البحر.(
.5ترسيخ عقيدة البعث والجزاء: وتذكير الناس بيوم القيامة.
.6التحذير من الغرور بالدنيا: وبيان حقيقة متاعها الزائل.
.7دعوة الناس إلى تقوى الله: والاستعداد ليوم لا ينفع فيه والد عن ولده.

٦/ ارتباط السورة بما قبلها) سورة الروم(

ترتبط سورة لقمان بسورة الروم ارتباطًا وثيقًا:

.1وحدة الموضوع العام: كلتا السورتين تتحدثان عن الكتاب الحكيم وهدايته، وتعالجان قضايا العقيدة.
.2التكامل في بناء الهوية:
· سورة الروم تحدثت عن نصر الروم) أهل الكتاب (على الفرس، وفرح المؤمنين بهذا النصر.
· سورة لقمان جاءت لتُحَذّر من الاغترار بثقافة الفرس أو الروم، وتذكِر بأن الكتاب الحكيم هو المصدر الوحيد للهدى والحكمة.
.3الربط اللفظي والمعنوي:
· في آخر الروم: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ وفي أول لقمان: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾.
· في الروم: ذكر الآيات الكونية، وفي لقمان: تفصيل أكثر لتلك الآيات.
.4مواجهة التحديات الحضارية: الروم تحدثت عن صراع الحضارات، ولقمان تؤسس لثقافة المسلم المستقلة.
٧/ التناسب بين افتتاحية السورة وخاتمتها

يظهر التناسب بين أول السورة وآخرها في عدة وجوه بديعة:

.1الربط بمحور الكتاب الحكيم:
· الافتتاحية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾
· الخاتمة: ﴿إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ – فالعليم الخبير هو الذي أنزل الكتاب الحكيم.
.2الربط بالمحسنين:
· الافتتاحية: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾
· الخاتمة: تدعو إلى التقوى والاستعداد ليوم القيامة، الذي هو غاية إحسان المحسنين.
.3الربط بعلم الغيب:
· الافتتاحية تُثبِت أن الكتاب من عند الله العليم.
· الخاتمة تؤكد اختصاص الله بعلم الساعة والغيب: ﴿إِنّ اللّهَ عِندَهُ عِلمُ السّاعَةِ...﴾.
.4الربط بموضوع التسليم لله:
· الافتتاحية تُعرِّف بالكتاب الذي يهدي.
· الخاتمة تأمر بالتسليم لله في علم الغيب، وهذا هو جوهر الهداية.

٨/ خصائص السورة وفضائلها

خصائصها:

.1أنها مكية، تعنى بتقرير العقيدة وبناء الإيمان.
.2تضم وصايا لقمان الحكيم، وهي من أجمع الوصايا التربوية في القرآن.
.3جمعت أصول الشريعة: التوحيد، بر الوالدين، إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الصبر ، التواضع.
.4تميزت بأسلوب التصوير البياني البديع، كتشبيه الموج كالظلل، وتصوير سعة علم الله بالأقلام و البحار.
.5اشتملت على الحروف المقطعة) الم.(

فضائلها:

· لم يرد في فضل سورة لقمان بخصوصها أحاديث صحيحة مرفوعة إلى النبي ﷺ.
· وردت آثار عن السلف في فضل قراءتها، ولكنها لا ترقى إلى درجة الصحة.

· وفضلها العام أنها من السور المكية التي تقرر العقيدة، وتزكي النفس، وتربي على مكارم الأخلاق و الحكمة.

٩/ ما انفردت به السورة

انفردت سورة لقمان بعدة أمور:

.1ذكر قصة لقمان الحكيم ووصاياه لابنه: وهي القصة الوحيدة المذكورة صراحة عن لقمان، ولم يرد ذكره في غيرها.
.2وصف المحسنين في مطلعها: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ – وهو وصف جامع لأركان الإحسان.
.3تشخيص ظاهرة شراء "لهو الحديث": والتحذير منه، مما يجعلها ذات صلة وثيقة بقضايا العصر و الثقافة والإعلام.
.4ذكر مفاتح الغيب الخمسة في خاتمتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ...﴾ – ولم تجتمع هذه الخمسة في آية واحدة في غيرها من القرآن.
.5التصوير البياني الفريد: كتشبيه الموج بالظلل، وتمثيل سعة كلمات الله بالأقلام والبحار.

١٠/ القضايا التي تعالجها السورة

تعالج سورة لقمان قضايا محورية:

.1قضية المرجعية: ما هو المصدر الذي يستمد منه الإنسان معارفه وقيمه وهويته؟) الكتاب الحكيم أم لهو الحديث؟.(
.2قضية الهوية الثقافية: كيف يبني المسلم هويته في مواجهة الثقافات الوافدة؟
.3قضية التربية: كيف يُنشأ الجيل على الإيمان والأخلاق؟) من خلال وصايا لقمان.(
.4قضية الاستكبار عن الحق: أسبابه، مظاهره، وعواقبه.
.5قضية الغفلة عن الآخرة: والاغترار بمتاع الدنيا القليل.
.6قضية التوحيد: وإقامة الأدلة عليه من الفطرة والكون.
.7قضية البعث: والاستعداد ليوم القيامة.

١١/ مواضيع السورة

يمكن تقسيم موضوعات السورة إلى المحاور التالية:

المحور الأول: مدخل السورة) الآيات1 -(5

· الحروف المقطعة) الٓمٓ.(
· تعريف الكتاب الحكيم.
· صفات المحسنين المفلحين.

المحور الثاني: نموذج الإنسان الغافل) الآيات6 -(9

· مشتري لهو الحديث.
· المستكبر عن آيات الله.

المحور الثالث: الآيات الكونية) الآيات10 -(11

· خلق السموات بغير عمد.
· إلقاء الرواسي في الأرض.
· بث الدواب.
· إنزال الماء وإنبات كل زوج كريم.
· تحدي المشركين: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

المحور الرابع: وصايا لقمان) الآيات12 -(19

· إيتاء لقمان الحكمة وأمره بالشكر.
· الوصية الأولى: التوحيد) لا تشرك بالله.(
· الوصية الثانية: بر الوالدين.
· الوصية الثالثة: مراقبة الله) الرقابة الذاتية.(
· الوصية الرابعة: إقامة الصلاة.
· الوصية الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
· الوصية السادسة: الصبر.
· الوصية السابعة: التواضع) في المشي والصوت.(

المحور الخامس: دلائل الألوهية) الآيات20 -(28

· تسخير ما في السموات والأرض.
· إسباغ النعم الظاهرة والباطنة.
· جدال المشركين بغير علم.
· إقرار المشركين بالخالقية مع إشراكهم.
· سعة كلمات الله.
· البعث) ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.(

المحور السادس: الآيات الكونية الثانية) الآيات29 -(32

· إيلاج الليل في النهار.
· تسخير الشمس والقمر.
· الفلك في البحر.
· مشهد الشدة وإخلاص المشركين لله فيها، ثم غدرهم بعد النجاة.

المحور السابع: خاتمة السورة) الآيات33 -(34

· الأمر بتقوى الله.
· التذكير بيوم القيامة.
· التحذير من الغرور بالدنيا.
· مفاتح الغيب الخمسة.

١٢/ أهم المفاهيم من السورة

من خلال التدبر في السورة، يمكن استخلاص المفاهيم المركزية التالية:

.1الكتاب الحكيم: مرجعية المعرفة والهدى والثقافة.
.2الإحسان: النموذج الأمثل للإنسان المؤمن.
.3لهو الحديث: كل ما يصد عن سبيل الله ويضيع العمر بغير نفع.
.4الاستكبار: المرض النفسي الذي يمنع من قبول الحق.
.5الوَقر: الصمم الوظيفي الناتج عن تراكم الذنوب والغفلة.
.6الحكمة: ثمرة الشكر والتقوى، وهي التطبيق العملي للعلم.
.7الشكر: أساس بناء العلاقة مع الله، ومفتاح المزيد من النعم.
.8بر الوالدين: العبادة الاجتماعية التي تربط العبد بالمجتمع.
.9الرقابة الذاتية: ثمرة اليقين بأن الله خبير بصير.
.10إقامة الصلاة: مصدر القوة الروحية للعاملين للإسلام.
.11التواضع: تاج الأخلاق، في المشي والصوت.
.12التسخير: إدراك أن الكون كله مسخر للإنسان بأمر الله.
.13النعم الباطنة والظاهرة: الوعي بنعم الله الخفية والجليلة.
.14العروة الوثقى: التمسك بالإسلام والإيمان.
.15التقوى: الرقابة الدائمة التي تصلح الفرد والمجتمع والحضارة.
.16مفاتح الغيب: التسليم لله في علم ما لا يُعلم.
.17المحسنون: الفئة المستهدفة بالهدى والرحمة والفلاح.

١٣/ مقاصد السورة

بعد استعراض آياتها ومحاورها، يمكن تلخيص مقاصد سورة لقمان فيما يلي:

المقصد الأكبر:

بناء الشخصية المسلمة المتوازنة، التي تجمع بين:

· قوة العقيدة) التوحيد.(
· صحة العبادة) الصلاة والزكاة.(
· حسن الخلق) بر الوالدين، التواضع.(
· الإيجابية الاجتماعية) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.(
· الثبات النفسي) الصبر.(
· اليقين بالآخرة) الإحسان والتقوى.(

المقاصد الفرعية:

.1تثبيت المؤمنين في زمن الفتن: بتذكيرهم بأن القرآن هو الهدى والرحمة، وأن العاقبة للمتقين.
.2الرد على المشركين: بإقامة الحجج على التوحيد والبعث، وإفحامهم باعترافهم الفطري.
.3تقديم النموذج التربوي الأمثل: من خلال وصايا لقمان لابنه.
.4التحذير من الانخداع بالحضارة المادية: وبيان أن المتاع الحقيقي هو متاع الآخرة.
.5تحرير الإنسان من أوهام المعرفة المطلقة: بإرجاع علم الغيب إلى الله وحده.
.6غرس ثقافة الشكر: بأنواعه الثلاثة: شكر الله، وشكر الوالدين، والشكر العملي بالعبادة والإحسان.
.7بيان أن الحكمة هي ثمرة التقوى والشكر: وأنها أعظم ما يُؤتاه العبد.
الخلاصه

سورة لقمان هي سورة الحكمة والتربية والتزكية .نزلت في مكة لتبني الإنسان من الداخل، وتؤسس لثقافة إسلامية أصيلة قوامها الكتاب الحكيم، وتعالج أمراض النفس البشرية من استكبار وغفلة وغرور .وهي تنفرد بذكر وصايا لقمان لابنه التي صارت نموذجًا للتربية الإيمانية، وتختم بمفاتح الغيب الخمسة لتذكر الإنسان بحدود علمه، وتدعوه إلى التسليم لله العليم الخبير.
.

المقطع الاول
القسم الاول
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الٓمٓ (1) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ (3) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ(5)

تخيّل معي، أيها القارئ الكريم، أنك واقف على شرفة تطل على عالمين: عالمٌ يموج بالانتصارات و التحالفات والأفراح العابرة، وعالمٌ آخر هادئ رصين يُعاد فيه تشكيل جوهر الإنسان .أنت الآن بين يدي سورة الروم التي فرح فيها المسلمون بنصرٍ أرضي، وسورة لقمان التي جاءت لتقول لك بصوتٍ خفيض لكنه يزلزل الأعماق: "لقد فرحتم بنصر الروم، فاحذروا أن تذوبوا في ثقافة الروم أو الفرس! لقد آن لكم أن تبصروا هويتكم".

دعني آخذ بيدك لنعيش معًا اللحظة التي نزلت فيها هذه الآيات الخمس الأولى، ليس كمتفرج يقرأ تاريخًا، بل كإنسان يشعر أن الوحي يتنزل عليه الآن، في هذا العصر، حيث صراع الهوية والثقافة على أشده.
المقدمة: حارس الهوية بعد لحظة الفرح

لقد كان انتصار الروم على الفرس حدثًا جللًا، لأنه أثبت للمسلمين أن الله مع المؤمنين، ولو كانوا من غير ملتهم .لقد أسست سورة الروم لمبدأ عظيم: مبدأ الاشتراك الإنساني والتحالفات القيمية .لكن، ألا ترى معي خطورة هذه اللحظة؟ عندما يفرح الإنسان بانتصار حضارة أخرى، ويتطلع إليها، تبدأ روحه فطريًا في محاكاة المنتصر، وتتسرب إليه ثقافته دون أن يشعر .هنا، وفي هذا التوقيت الإلهي المذهل، تهبط سورة لقمان كحارس ليلي للروح المسلمة، وكأنها حضن أبوي يضم الأمة قائلًا: "تحالفوا مع العالم، نعم، ولكن إياكم والذوبان فيه .مرجعيتكم هنا، في الكتاب الحكيم، لا في أثينا ولا في قطسيفون".
إن ثقافة الأمة، كما قال مالك بن نبي، هي دم جسدها .فإن اختلط هذا الدم أو فسد، مات الجسد الحضاري .ولهذا افتتحت السورة بهذا الافتتاح المهيب، كجرس إنذار فكري لا يوقظ الأذن، بل يوقظ الوجدان والذاكرة الثقافية.
الامر الاول: دلالة الافتتاح ب(الم) والاستقلال الثقافي

﴿الٓمٓ﴾
توقف هنا برهة .لا تمر عليها مرور الكرام .هذه ليست مجرد حروف هجاء، إنها شفرة البناء الجيني لهذه الأمة.
عندما يقول الله: ﴿الٓمٓ﴾، ثم يتبعها بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾، فكأنه يقول لك:
"انظر إلى الحضارات من حولك؛ حضارة الفرس قامت على السيف والنار، وحضارة الروم قامت على القانون والفلسفة والتماثيل .أما أنت أيها المسلم، فإن مادة بنائك الثقافي والحضاري تنبع من هذه الحروف العربية البسيطة التي تتكون منها لغتك، والتي نزلت بها آيات هذا الكتاب .هذا هو مصدر حكمتك، لا حكمة كسرى ولا قانون قيصر."
إنها إشارة إلى أن المسألة ليست مسألة معرفة فحسب، بل مسألة مصدر للمعرفة .في عصر الانفتاح و العولمة، هذه الآية تمنحك "حصنًا ثقافيًا" داخليًا .إنها تذكرك أنك حين تجلس لتقرأ في علوم الدنيا، حين تنبهر باختراع غربي أو نظرية شرقية، يجب أن يكون بوصلتك الفكرية هي هذا الكتاب .لقمان الذي سيأتي ذكره بعد قليل، كان رجلا ً بسيطًا، عبدًا حبشيًا في تصنيف البشر، لكنه كان أعظم من أباطرة الفرس والروم .لماذا؟ لأنه كان متصلًا بمصدر الحكمة الإلهية .هذه هي السيادة الثقافية: أن تكون سيد العالم بقيمك، ولو كنت خادمًا في ميزانهم المادي.

الامر الثاني: القاعدة التأسيسية لبناء الإنسان "المحسن"

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾
اسمع هذا الوصف بدقة: الكتاب حكيم، وهو هدى ورحمة .لكن لمن؟ ليس لأي أحد! إنه للمحسنين فقط .لماذا هذا الربط الإعجازي؟
لأن السورة تريد أن تنقلك من مرحلة العلم إلى مرحلة الحكمة، ومن مرحلة الثقافة إلى مرحلة الحضارة.
الفرق بين العلم والثقافة
ثقافة المجتمع هي(نظرية السلوك)، كيف يجب أن تكون الحياة.
والعلم هو(نظرية المعرفة)، كيف هي الأشياء.

قد تجد عالمًا عبقريًا في الفيزياء النووية، لكنه لا يملك ثقافة تمنعه من صنع قنبلة هيدروجينية تدمع

الأرض .هذا عالم لكنه ليس محسنًا.
وقد تجد رجلا ً بسيطًا لا يقرأ ولا يكتب، لكنه بفطرته وثقافته القرآنية يؤدي الأمانة ويغض بصره، هذا محسن.
**القرآن هنا يخاطب عقلك ووجدانك معًا: المرجعية هي الكتاب الحكيم، والنتيجة العملية لهذه المرجعية هي صفة الإحسان.
**الإحسان ليس مجرد عبادة، الإحسان -كما قال النبي ﷺ-"أن تعبد الله كأنك تراه".
تخيل مجتمعًا كاملًا كل فرد فيه يعمل وكأنه يرى الله يراقبه! هل يحتاج طبيب هذا المجتمع إلى مفتش صحي يقف على رأسه؟ هل يحتاج قاضي هذا المجتمع إلى رقابة من فوقه؟ هل يغش تاجر هذا المجتمع في ميزانه وهو يشعر بنظر الله إليه؟
هذا هو الفارق بين حضارة تقوم على القوانين الوضعية(الروم)، وحضارة تقوم على الرقابة الذاتية النابعة من الإحسان .هذه الآيات الخمس ليست تلاوة فحسب، إنها دورة تدريبية مكثفة لصناعة الإ نسان الذي سيبني العالم.
الامر الثالث: شروط الفلاح ..إعادة تعريف النجاح

﴿الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾
انظر إلى جمال النظم القرآني:
لم يقل:(الذين يصلون)، بل قال:(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.)
إقامة الصلاة تعني هندسة اليوم كله حول ذكر الله .تعني الانضباط في المواعيد، تعني أن الركوع لله وحده يمنحك عزة فلا تركع لمخلوق.
ثم قال:(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ.)
هنا يتجلى مبدأ "دم المجتمع الصحي" .الزكاة تطهر المال من الشح، وتطهر النفس من الأنانية، وتطهر المجتمع من الطبقية المقيتة.
وتأمل الخاتمة: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.
هذا هو الدرع الواقي من الفساد .لأن الذي يؤمن بالآخرة يوقن أن رصيده الحقيقي ليس في حسابه البنكي بل في كتابه عند الله .هذا اليقين هو الذي يمنع الموظف من الرشوة، ويمنع الوزير من الا حتكار، ويمنع الحاكم من الاستبداد.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
"الفلاح" كلمة رائعة في العربية .الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب .إنها قمة النجاح الشامل.
في ثقافة العصر، النجاح هو "سيارة فارهة، منصب، شهرة" .لكن القرآن يقول لك: الفلاح هو أن تكون على هدى من ربك.
الفلاح الحقيقي أن تعيش متوازنًا؛ روحك مصقولة بالصلاة، ويدك ممدودة بالزكاة، وقلبك مطمئن بالآ خرة .هذا هو الفلاح الذي يجعل منك رجلًا راشدًا، ومن مجتمعك مجتمعًا راشدًا، لا مجتمعًا متخمًا بـ البضائع وجائع القيم.
الأمر الرابع: كيف نعيش هذه الآيات الآن؟(من التلقي إلى التمكين)

أيها المستمع، وكأني بك تقول:"هذا جميل، لكن كيف لي أن أعيش هذا في زحام هذا العصر المادي؟"

أقول لك: عيش هذه الآيات يعني أن تنتقل من حالة المتفرج إلى حالة المُمَكن.

1.اجعل ﴿ال-م﴾ في أذنك صباحًا: كلما رأيت صورة حضارة أخرى تبهرك، قل في نفسك: "مادتي الأ ساسية هي) الكتاب الحكيم(، سآخذ من الآخر علومه النافعة، ولكن ثقافتي ووجداني منبعها هنا".
2.اطلب مرتبة الإحسان في مهنتك: سواء كنت مبرمجًا أو سائقًا، اعمل وكأن الله يراك .هذا هو التفسير العملي لـ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ .الإحسان يحول عملك من "وظيفة مملة" إلى "عبادة متجددة".
3.أقم الصلاة كمنظومة حياة: ليست مجرد حركات، بل هي "إعادة ضبط المصنع" للروح كل بضع ساعات، لتبقى منضبطًا غير مشتت.
4.أنفق وشارك: الزكاة روحها العطاء .حتى لو لم تكن غنيًا، فابتسامتك وكلمة الحق وعونك للآخرين هي زكاة معنوية، هي التي تبني العدالة التوزيعية للحب والاحترام في مجتمعك.
الأمر الخامس: لمسات بيانية تخاطب الوجدان والعقل

دعني أريك سحر البيان القرآني هنا:

· تقديم ﴿تِلْكَ﴾: إشارة البعيد، توحي بعلو مرتبة هذا الكتاب ورفعته، فهو بعيد المنال في إعجازه

قريب في هداه.
· تعريف الكتاب ب-) الحكيم(: صيغة مبالغة .فهو ليس حكيماً فحسب، بل هو مصدر الحكمة ومُفيضها.
· الجمع بين) الهدى (و)الرحمة(: الهدى نور للعقل، والرحمة طمأنينة للقلب .لا يكفي أن تعرف الحق بعقلك إن لم تسعد به روحك .القرآن يعطيك الأمرين معًا.
· التأكيد في ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: تكرار الضمير) هم (يفيد القصر والحصر .أي أن هؤلاء وحدهم هم أهل اليقين الحقيقي، يقين لا يتزعزع بالماديات أو الشهوات.

الخلاصة المذهلة: إعلان الاستقلال الثقافي

أيها القارئ، اجعل هذه الصورة راسخة في ذهنك:
سورة الروم فتحت نافذة على العالم الخارجي، وعلمتنا أن نتفاعل معه .وسورة لقمان أغلقت الأبواب الداخلية لتحمي الجوهر.
الآيات الخمس الأولى هي بمثابة "جواز السفر الإسلامي" في عصر العولمة .مكتوب على غلافه: "حامل هذا الجواز مرجعيته) الكتاب الحكيم(، هويته) الإحسان(، وجهته) الفلاح .(يقبل علوم الدنيا كلها، لكنه لا يذوب في غير عقيدته وقيمه".
لقد أردت بشرحي هذا أن تشعر أنت أن هذه الآيات تخاطبك أنت الآن .أن ترى بعين خيالك لقمان العبد الحبشي وهو يقف شامخًا بحكمته أمام ملوك الدنيا، فتعلم أن القوة ليست في بريق الثقافات المادية، بل في رسوخ القيم الإلهية.
فاستمسك بهذه الآيات، وابنِ بها نفسك، وكن من المحسنين الذين هم على هدى من ربهم، لترى بعين يقينك كيف تكون من المفلحين في زمن ضج فيه الفلاح الكاذب
المبحث الثاني
أيها القارئ النبيل، دعنا نستأنف الرحلة. لقد وقفنا معًا على شرفة سورة لقمان، ورأينا كيف بُني حصن الهوية من حجارة "الكتاب الحكيم"، وكيف تأسست شخصية "المحسن" الراسخ الذي يعيش بالهدى و الرحمة. والآن، وبعد أن اطمأننت الروح إلى مرجعيتها، يأتي صوت الوحي ليوقظك من جديد، لكن هذه المرة بصوت ضجيج يملأ الأفق. إنه صوت سوق اللهو، صوت الاستخفاف الذي يريد أن يسرق منك ما بُني لتوّه.

تعال نعش معًا لحظة نزول قوله تعالى:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: 6]

تخيّل أنك تجلس في مجلس علم، والقلوب خاشعة، فإذا برجل يأتي بحكايات فارسية مسلية، وترفيه أجوف، ليصرف الناس عن سماع القرآن. هذه هي الصورة المباشرة، لكن القرآن لا يتحدث عن الماضي فحسب، بل إنه يصف لك مشهد غرفتك الآن، وشاشة هاتفك، وسماعات أذنك. إنها آية تزلزل ضمير المستهلك قبل أن تفضح المنتج.
الامر الاول : دلالة ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾.. صفقة خاسرة في بورصة الوعي
ما هو "لهو الحديث"؟
دع كلمة "لهو" تتمدد في وجدانك. الهو في لغة العرب: هو ما شغلك وألهاك عما هو أهم. إنه ليس مجرد الغناء الفاحش أو الموسيقى الصاخبة كما قد يتبادر إلى الذهن فحسب، بل هو كل كلام أو فعل أو محتوى لا نفع فيه، ويؤدي إلى الغفلة عن الواجب والهدف الأسمى.
قد يكون في الماضي (قصص رستم واسفنديار) التي كانت تُشترى لتضليل الناس عن قصص القرآن، وقد يكون اليوم:

· مسلسلات التفاهة التي تلتهم خمس ساعات من يومك دون أن تمنحك قيمة.
· الثرثرة الرقمية والإشاعات التي تنخر في عقل الأمة وتملأ قلبك بالريبة بدل اليقين.
· إدمان منصات التواصل التي تجعلك تتصفح فراغًا لساعات، ثم ترفع رأسك فلا تجد في روحك إلا القحط.
والأخطر من ذلك، دقة التعبير القرآني بكلمة: ﴿يَشْتَرِي﴾.
اسمع اللمسة البيانية هنا: كلمة "يشتري" لا تعني فقط دفع المال، بل هي صفقة استبدال وجودية.
إنه يدفع من رصيده. يسحب من عملته الصعبة جدًا: العمر، والوقت، والسمع، والبصر، والفؤاد (كل أولئك كان عنه مسؤولًا)، ويستبدلها ببضاعة كاسدة اسمها لهو الحديث.
هو لا يشتري التسلية، إنه يشتري الضلال! إنه يخرج أغلى ما يملك -وهو انتباهه ووعيه- ليدفعه في سوق الغفلة. إنها عملية بيع للذات من أجل استهلاك ما يجعل الذات أخف وأتفه. ولهذا جاءت خاتمة الآية بـ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، إهانة تناسب من استبدل الكرامة بالخفة، والحكمة بالسطحية.
الامر الثاني: قضية الغناء ومباهج الحياة.. التحرير من الفهم المقلوب

وهنا يسأل سائل بقلب حائر: "وهل حُرمت علينا مباهج الحياة؟ هل كل صوت جميل إثم؟"
دعني أُجلي عنك هذه الغشاوة، وأجمع لك بين نور الآية ونور السنة، لتكون على بصيرة:
لقد دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ يوم عيد، ووجد جاريتين من الأنصار تغنيان وتضربان بالدف، فقال غاضبًا: (أمزمار الشيطان في بيت رسول الله؟!)، لكن انظر إلى رحمة النبوة وحكمتها، فقد رد النبي ﷺ قائلا ً: (دعهما يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد).
هذا المشهد النبوي هو الميزان الذي نزن به الآية:

1.الآية ذمّت ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ .العلة هنا القصد والنتيجة: الإضلال، و الصد عن الحق، واتخاذ آيات الله هزوًا.
2.الحديث النبوي أقرّ أصل الغناء المنضبط بكلمات طيبة، في مناسبات الفرح الفطرية كالعيد والعرس، ما دام لم يصاحبه فحش أو خمر أو اختلاط محرم.

القاعدة الذهبية التي تبنيها الآية في وجدانك:
المشكلة ليست في اللحن الجميل، بل في اللحن الفاسد من المعاني والمقاصد.
الحرام ليس جمال الصوت، بل أن يكون هذا الجمال أداة استخفاف واستلاب. بل إن الآية لتشمل حتى من ينشغل عن الصلاة بقراءة القرآن نفسه! كيف؟
لأنه حين يرتفع الأذان، فالواجب هو إجابة داعي الله (الصلاة)، فمن جلس يتلوا القرآن متعمدًا ترك الصلاة في وقتها، فقد اشترى لهو الحديث بمعنى الانشغال عن الأصل. فالقرآن في هذه الحالة صار "لهوًا" لأنه صرف عن "سبيل الله" الذي هو الصلاة. يا للدقة! فالآية تحررك من عبادة الشكل لتلتفت إلى جوهر العبودية.
الامر الثالث: علاقة الآية بختام الروم.. سلاح الاستخفاف وكيف نحطمه

تذكر كيف ودّعتنا سورة الروم بوصية عظيمة: ﴿وَلا يَسْتَخِفّنَكَ الّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾.
وهنا، في سورة لقمان، يأتي العلاج: "لهو الحديث" هو آلية الاستخفاف عينها.

دعنا نفهم هذا السلاح الخطير الذي يُشن على وعينا كل يوم:
ما هو الاستخفاف؟
هو من (الخِفّة)، نقيض الرزانة والوقار. هو عملية استلاب للرزانة العقلية. هدفه تحويلك من كائن عميق يبحث عن الحكمة، إلى كائن خفيف يطفو على السطح، يسهل تحريكه بالموضات والترندات.

· يسترهبك نفسيًا: يشعرك أن دينك "ثقيل" لا يصلح للعصر الحديث، وأن قيمك "رجعية".
· يسلبك الثبات: يجعلك قلقًا مضطربًا، تنطبق عليك صفة) إمّعة(، إن ضحك الناس ضحكت، وإن سخروا من الحق سخرت معهم خجلا ً.

كيف يُستخدم "لهو الحديث" كسلاح للاستخفاف اليوم؟
انظر حولك ببصيرة الآية:

1.صناعة ثقافة التفاهة: عندما يُغرق الإعلام عقلك بسيل من "لهو الحديث"، يتم سحبك من مربع الجدية إلى مربع السطحية .يصبح همّك من سيربح المليون في برنامج المسابقات، لا من سيربح الآ خرة بحسن العمل .مجتمع مستخف هو مجتمع يهتم بـ) الترند (أكثر من اهتمامه بـ) العلم (و)البناء.(
2.تزييف الوعي والقدوات: يتم تسليط الأضواء على التافهين والمغنين والراقصين ليكونوا "قدوات"، بينما يُهمش الحكماء أمثال لقمان .هذه عملية هندسة اجتماعية تجعل الجيل الجديد يستخف بطلب العلم، ويسعى خلف الشهرة الجوفاء السريعة، فيصبح فريسة سهلة للإعلانات والأيديولوجيات المستوردة.
3.السخرية المهينة: انظر إلى قوله: ﴿وَيَتّخِذَهَا هُزُوًا﴾ .السخرية هي أخطر أدوات الاستخفاف .عندما يتم الاستهزاء بالملتزمين في المسلسلات والبرامج، يشعر الشاب المسلم بالحرج من هويته، فيحاول التخلص من "ثقله" الأخلاقي ليكون "خفيفًا" مثلهم، فيذوب وينسلخ.

سورة لقمان: الترياق المضاد للاستخفاف
لأن الاستخفاف هو تفريغ للإنسان من معناه، جاءت سورة لقمان لتعيد ملء الإنسان بالحكمة. لقد رأينا في الآيات الأولى كيف بُني الإنسان:
· ب- ﴿الكتاب الحكيم﴾: مرجعية ثابتة تمنح الوزن والثبات، فلا تهزه رياح "الترندات".
· ب- ﴿المحسنين﴾ الذين يوقنون: اليقين هو الثقل الحقيقي .الاستخفاف ينجح فقط مع ﴿الذين لا يوقنون﴾ .أما من أيقن بالآخرة، فهو كالجبل الرواسي، لا يستفزه ضحك المستهزئين ولا وعودهم

الفارغة.

فأنت عندما تسمع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ﴾، تخيله يقول لك: "أنت لست من هؤلاء. أنت ابن الكتاب الحكيم، أنت محسن، أنت صاحب يقين. فلا تكن خفيفًا، كن رزينًا بحكمتك، ولو كنت عبدًا حبشيًا في عيون العالمين."
الامر الرابع: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟ (من الاستهلاك إلى الاختيار الواعي)

والآن، دعنا ننزل من سماء التحليل إلى أرض التطبيق. كيف تصبح هذه الآية بوصلة سلوكية في جيبك وأنت تمسك بهاتفك؟
.1كن ناقدًا واعيًا) فلتر عقلي دائم(:
كلما هممت بفتح مقطع فيديو، أو مشاهدة مسلسل، أو قراءة خبر، اسأل نفسك أسئلة الآية:
· هل هذا المحتوى يشتري وقتي ووعيي مقابل ماذا؟ هل يمنحني حكمة أم يزيدني غفلة؟
· هل هو يضلني عن سبـيـل الله؟) أي يشغلني عن صلاتي، عن واجبي تجاه أسرتي، عن تطوير مهارتي، عن نصرة قضايا أمتي.(
· هل هو يتخذ آيات الله أو قيم الدين هزوًا وسخرية؟
.2علو الهمة بالبديل الحكيم:
الآية لا تتركك في فراغ .النفس إن لم تملأها بالحكمة، ملأها الله.و .املأ وقتك ببدائل تثقل ميزانك:
· استبدل ساعة من تصفح "لهو الحديث" بساعة مع تدبر آية.
· استبدل سماع الأغاني الهابطة بـ الإنشاد الهادف أو المحاضرات القيمة أو حتى بـ صمت تأملي تخلو فيه بربك.
· كن صانع محتوى حكيم لا ناقلا ً للتفاهة .شارك ما ينفع الناس، فهذا جهاد بالكلمة.
.3كن حارسًا لبوابة أذنك وعينك:
تذكر أن الصفقة في الآية هي شراء .أنت تشتري بأغلى رأس مال) عمرك .(فلا تبع عمرك في سوق النخاسة الرقمية بثمن بخس .احترم وقتك كما تحترم مالك .الوقت هو أنفاسك، فاجعل استنشاقك لهواءً نقيًا من الحكمة لا دخانًا من الغفلة.
.4تحرر من الاستلاب الرقمي:
الاستلاب هو أن تفقد إرادتك أمام الشاشة .الآية تريدك حرًا .حرًا في اختيار ما يدخل عقلك .لا تكن عبدًا لخوارزميات التطبيقات التي تقدم لك المزيد من "لهو الحديث" لتبقيك أطول وقت ممكن . أغلق الإشعارات، واختر أنت متى تتصفح، لا أن تكون رهينة للإشعار.
اللمسات البيانية والبلاغية في الآية: جرس إنذار في وجدان اللغة

· تقديم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: أسلوب قصر وتقسيم .كأن الله يقسم الناس إلى فريقين: فريق المحسنين على هدى، وفريق من يشتري الضلالة .هذا التقسيم يجعلك تسأل نفسك فورًا: "في أي الفريقين أنا؟"
· صيغة المضارع ﴿يَشْتَرِي﴾: تدل على التجدد والاستمرار .فالبعض ليس فقط من اشترى في الماضي، بل هو في حالة شراء دائم ومستمر للتفاهة كل يوم .هذا تحذير من أن تتحول هذه الصفقة إلى عادة يومية مزمنة.
· عطف ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ بـ) اللام(: لام التعليل، وهي تفيد أن الغاية هي الإضلال .وسواء كان الإضلال مقصودًا ذاتيًا من المشتري أو كان نتيجة طبيعية لفعله، فالنتيجة واحدة.
· تنكير ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: كلمة) عذاب (نكرة، وكأنه عذاب لا يخطر على بال، عذاب يفوق التصور . ووصفه بـ) مهين (هو العدل الإلهي المطلق؛ لأنهم أهانوا أنفسهم باختيار الخسة على الكرامة، فكان جزاؤهم من جنس عملهم: إهانة تليق بمن استخف بآيات الله.

الخلاصة المذهلة: أن تكون جادًا في زمن التفاهة
أيها الحبيب،
لا تظن أن هذه الآية سجنٌ لروحك، بل هي عتقٌ لها. إنها تحررك من قيود الوهم والإدمان الرقمي. إنها تمنحك شرف الجدية في زمن صار فيه الجادون غرباء.
لقد بدأت السورة ببناء شخصيتك الثقافية المستقلة بـ (الكتاب الحكيم)، وها هي الآية السادسة تأتي لتؤكد أن هذا الاستقلال لا يتم إلا بمقاطعة "لهو الحديث" الذي يهدف إلى استلاب وعيك وإذابة هويتك.
أنت الآن أمام خيارين:
· أن تكون ممن يشتري لهو الحديث، فيستخف بك الأعداء، ويملأ فراغك بالسراب، وتنتهي صفقتك بعذاب مهين.
· أو أن تكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، من المحسنين الذين على هدى من ربهم، المفلحين في الدنيا والآخرة.

فلتختر أن تكون من حزب الحكمة. ثقيل الميزان، راسخ الجنان، لا تلهيك سوق عكاظ الإعلامية عن بناء الذات، وعمارة الأرض، ومراقبة الله. كن كصاحب الحكمة لقمان، يمر بجوارك لهو الحديث فلا يلتفت إليه، لأن في قلبه من نور الكتاب ما يغنيه عن كل ضجيج.

المبحث الثالث

أيها القارئ النبيل،

لقد وقفنا معًا على مشارف سورة لقمان، ورأينا كيف تُبنى الهوية بالكتاب الحكيم، وكيف يعلو الإحسان واليقين ليصنعا إنسانًا راسخًا لا تهزه الأعاصير. ثم سمعنا صراخ الأسواق وهي تعرض "لهو الحديث"، ووعينا خطر صفقة يشتري فيها الإنسان عمره بالغفلة. والآن، وقد تكشفت لنا طبيعة المعركة بين الحكمة والتفاهة، يأخذنا الوحي إلى مشهد أشد إيلامًا، إلى صورة إنسان لم يكتفِ بشراء الضلال لنفسه، بل وصل به الحال إلى درجة من الصمم النفسي تجعله يدير ظهره للحقيقة وهي تتلى عليه.

تعال معي نقف بخشوع أمام قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7]

تخيل هذا المشهد بقلبك لا بعقلك فقط:

رجل يجلس، فيُفتح أمامه باب السماء، وتُسكب في أذنيه كلمات الله التي تملأ الوجود نورًا ورحمة، فإذا به ينتفض واقفًا، لا ليقترب ويستزيد، بل ليولي ظهره ويمضي، وكأن شيئًا لم يكن! هذه ليست مجرد قصة رجل من المشركين في مكة، إنها صورة حية لنوع من البشر قد تراه كل يوم، وقد تراه في مرآة روحك إذا غفلت.

اولا ً: دلالة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾.. لحظة الحقيقة المتكررة

ابدأ معي بتأمل كلمة: ﴿تُتْلَىٰ﴾.

التلاوة ليست مجرد قراءة، إنها متابعة وترتيل، فيها استدعاء للقلب أن يصغي ويفهم. وصيغة المضارع (تُتلى) تفيد التجدد والاستمرار. فكل لحظة تُتلى فيها آيات الله، سواء في مسجد، أو في مقطع فيديو، أو في نص يمر بك، هي اختبار إلهي متجدد.

إنها فرصة ذهبية تُفتح لك لترتقي أو لتسقط. الآيات هي النور الذي يكشف ما في القلوب. المؤمن يزداد إيمانًا وخشوعًا، والمريض بالكبر يزداد نفورًا وصممًا.

مثال واقعي قريب:

كم مرة دخلت نقاشًا مع صديق أو زميل، وعرضت عليه حقيقة واضحة مدعومة بدليل من القرآن أو السنة، فوجدته يتلوى وينصرف لا ليناقش الدليل، بل ليغير الموضوع أو يسخر؟ هذا هو المشهد عينه. إنه يهرب من التلاوة لا لأنها غير مفهومة، بل لأنها تكشف عورات نفسه وتطالبه بتغيير مسار حياته الذي تعلق به.

ثانيا: دلالة ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾.. تشريح لمركب نفسي معقد

انظر إلى دقة الوصف القرآني: لم يقل: "أعرض" فحسب، بل قال: ﴿وَلَّىٰ﴾.

التولية تعني إدارة الظهر بالجسد كله. إنها حركة جسدية عنيفة تعكس اضطرابًا داخليًا عميقًا. هذا الإ نسان لا يحتمل مواجهة الحق، فالجسم كله يشارك في فعل الهروب. إنها لغة جسد تنطق بالرفض المطلق.

ثم تأتي كلمة ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، وهي حال منصوبة، لتصف الدافع النفسي وراء هذه الحركة. الاستكبار ليس مجرد شعور بالعظمة، إنه رفض الانقياد للحق بعد وضوحه.

في علم النفس، هذه الحالة تسمى بـ "التنافر المعرفي. يحدث هذا عندما يتمسك الإنسان بمعتقد أو سلوك معين، ثم تأتيه معلومة تثبت خطأه بشكل قاطع. أمامه خياران:

1.أن يتواضع، ويعترف بخطئه، ويغير مساره) وهذا صعب على النفس الأمارة بالسوء.(

2.أن يهاجم مصدر المعلومة أو يهرب منها) وهذا أسهل وأريح للكبرياء الجريح.(

ولهذا ترى المدخن يهرب من مقال علمي عن أضرار التدخين، وترى التاجر الغشاش ينزعج من آيات تحريم الغش، وترى الشاب الذي تعلق بعلاقة محرمة ينصرف عن آيات غض البصر. كلهم في حالة تولية واستكبار، لأن الآيات تهدد عرش الأنا وهيمنة الهوى.

الرسالة التربوية والإيمانية هنا:

انتبه أيها الحبيب: كلما شعرت بنفور داخلي أو انزعاج عند سماع حكم شرعي أو نصيحة صادقة، اسأل نفسك بصدق: "هل المشكلة في النص، أم في كبريائي الذي يرفض الانصياع؟" هذه اللحظة من الصدق مع النفس هي بداية طريق الهداية. التواضع للحق هو الشجاعة الحقيقية، أما الاستكبار فهو هروب الجبناء.

ثانيا: دلالة ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.. الصمم النفسي والوجداني

وهنا تأتي الصورة البيانية المرعبة: التشبيهان المتتاليان.

الأول: ﴿كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا﴾. هذا نفي كامل للواقعة. كان شيئًا لم يحدث أبدًا. هذا هو الصمم الوظيفي. ا لأذن تسمع الصوت، ولكن العقل والقلب يرفضان معالجته. كأنك تتحدث إلى جدار. إنه يمارس "تجاهلًا نشطًا".
والثاني أشد: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.
الوقر هو الثقل، الصمم الحقيقي. القرآن لا يكتفي بوصف الحالة بأنها كأن لم تسمع، بل يتغلغل فيزيولوجيًا ليصف سبب هذا الصمم: في الأذن نفسها حاجز ثقيل يمنع وصول الصوت.
يا للروعة البيانية! الحقيقة لم تدخل أذنه من الأساس، لأنه أغلق عليها بإحكام. هذا الصمم ليس خلقة من الله، إنه نتيجة تراكم الذنوب والغفلة والاستكبار. إنه الصدأ الذي يعلو القلب حتى يصبح غلافًا يمنع نفاذ النور.
مثال تقريبي من حياتنا اليوم:
أنت تدخل غرفة، فإذا برائحة كريهة جدًا. بعد دقائق، لن تشعر بالرائحة، لأن حاسة الشم لديك "تكيفت" وأغلقت نفسها. هذا ما يحدث لصاحب الآية: أنفه اعتاد رائحة الكذب والتفاهة، وأذنه اعتادت صوت "لهو الحديث"، لدرجة أنه حين يأتي صوت الحق النقي، تجد أذنه مشوشة، لا تميزه، بل وتنفر منه. إنها بلادة حس روحي.
الرسالة العقلية والعملية:
انتبه لما تدخله إلى أذنك وعقلك كل يوم. المحتوى الهابط، والأغاني التي تمجد السفاهة، والإشاعات التي تنشر الكراهية، كلها تتراكم لتشكل وَقْرًا، طبقة عازلة تحول بينك وبين الانتفاع بالقرآن والنصيحة الصادقة. غدًا حين تتلى عليك آية في خطبة جمعة، أو تسمع موعظة من أمك، فإن لم تتأثر، فاعلم أن الوقر قد تراكم، فابادر بتنظيف أذنيك الروحيتين بتقوى الله وترك الغفلة.
رابعا: دلالة ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.. التهكم الإلهي على المستكبر
وتأمل الخاتمة المذهلة: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾.
البشارة في أصل اللغة هي الخبر السار الذي يظهر أثره على بشرة الوجه. لكنه هنا بشارة بـ عذاب أليم. ما هذا؟
هذا أسلوب التهكم والاستهزاء المقابل. هؤلاء المستكبرون اتخذوا آيات الله هزوًا في الآية السابقة ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، فجاءهم الرد الإلهي على نفس الموجة: "هل تنتظرون بشارة سارة؟ تفضلوا، هذه بشارتكم المعدة لكم: عذاب أليم!".
إنها صفعة أدبية عظيمة. من استخف بالحق واستكبر عن الانتفاع بآياته، فإن مصيره أن يتحول كل أمل لديه إلى ألم، وكل كبرياء إلى هوان. وكلمة ﴿أَلِيمٍ﴾ تدل على أن الألم ليس جسديًا فحسب، بل هو نفسي وروحي، ألم الندم والحسرة على عمر أضاعه، وعلى آيات أعرض عنها.
خامسا: الربط العضوي بين آيات السورة
انظر كيف ترتبط حبات العقد القرآني:
1.بدأت السورة بـ ﴿الكتاب الحكيم﴾ ووصفت المحسنين بأنهم على هدى.
2.ثم عرضت نموذج ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ﴾ ليضل عن سبيل الله.
3.والآن في الآية السابعة، تكشف النقاب عن السبب الجذري لهذا السلوك: إنه الاستكبار والصمم الداخلي عن سماع كلام الله.

الإنسان الذي يشتري لهو الحديث، لم يفعل ذلك في فراغ. لقد ملأ أذنيه وقلبه أولًا بـ الوَقْر، أي بثقل الغفلة، فصار كلام الله "ثقيلًا" عليه، فاستبدله بكلام "خفيف" مسلٍّ لا يزعزع كبرياءه. إنها حلقة مفرغة: استكبار يؤدي إلى صمم، وصمم يؤدي إلى البحث عن بديل تافه (لهو الحديث)، والبديل التافه يزيد القلب صممًا واستكبارًا.
سادسا: الرسائل التربوية والإيمانية والنفسية والعملية

والآن، حان وقت السؤال العملي: كيف نعيش هذه الآية في خضم حياتنا اليومية؟

1.على المستوى الشخصي) الوقاية من داء الاستكبار(:

· التمرن على التواضع الفكري: درب نفسك على أن تقول: "لا أعلم" أو "أنا مخطئ" .هذه الكلمة تفتح لك أبواب الحكمة، وتكسر شوكة الكبرياء التي هي أول درجات الصمم.
· التدقيق الذاتي عند التلاوة: عندما تقرأ القرآن أو تسمعه، راقب قلبك .هل تشعر بالانشراح؟ أم بـ الضيق والرغبة في إنهاء التلاوة بسرعة؟ الضيق هنا مؤشر خطير على وجود وقر يحتاج إلى إزالة بـ الدعاء والاستغفار ومحاسبة النفس.
· علاج الأذن الروحية: إذا شعرت أن الموعظة لم تعد تؤثر فيك، فهذا جرس إنذار .أقلع فورًا عن "لهو الحديث" في يومك، ولو ليوم واحد، واملأه بذكر الله وتدبر كتابه، وسترى كيف يزول الوقر تدريجيًا وتعود أذنك لتصغي بخشوع.

.2في التعامل مع الآخرين) فهم نفسية المعرض(:

· لا تأخذ الرفض على محمل شخصي: عندما ترى شخصًا يُعرض عن النصيحة، أو يسخر من الحق، لا تغضب منه فتشمت به، بل اشفق عليه .تذكر أنه مصاب بمرض نفسي خطير اسمه "الوقر" و"الا ستكبار" .إنه أسير لمركباته النفسية.
· فن تقديم النصيحة: هذا النموذج يعلمنا أن بعض النفوس لا تستقبل النصيحة المباشرة .في أحيان كثيرة، يكون القدوة الصامتة أبلغ من الكلام .كن أنت نموذجًا للمحسن الذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويوقن بالآخرة، فهذا يخترق جدار الصمم أحيانًا أفضل من ألف موعظة.
· أمثلة واقعية تطبيقية:
· في البيت: أب ينصح ابنه بعدم إضاعة الوقت على الألعاب الإلكترونية) لهو الحديث(، فيجد الابن يدير ظهره ويرفع صوت التلفاز) وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا .(الأب الحكيم بدلًا من الصراخ، يجلس بجواره بهدوء، ويشاركه لعبة قليلا ً ثم ينتقل به لموضوع جاد يحبه الابن، فيُحدث شرخًا في جدار الوقر.
· في العمل: موظف يُحذر من أخطاء مهنية أو مخالفات شرعية) رشوة، كذب(، فإذا به يقول: "هذه شطارة وليست رشوة" ويتهكم على الناصح) اتخذها هزوًا .(هذا نموذج الآية حي .الواجب هنا ليس ا لإلحاح عليه، بل الانسحاب بعد أداء الأمانة، وحماية نفسك من عدوى استكباره.
· في الجامعة: طالب علماني ينظر باستخفاف إلى طالب ملتزم، ويسخر من حجابه أو لحيته .هذا هو الاستكبار بعينه .التصرف الحكيم هو تجاهل السخرية) ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (وإظهار التفوق العلمي والأخلاقي، لأن التفوق الحكمة هو الرد العملي على من استخف بالحق.
سابعًا: كيف نعيش هذه الآية؟ (دليل عملي مختصر)

.1استمع وكأنك تسمع لأول مرة: كلما فتحت المصحف، أو سمعت آذان الفجر، قل لنفسك: "اللهم إني أسألك سمعًا نقيًا، لا وقر فيه .أنا لست كمن ولوا واستكبروا، أنا من المحسنين."
.2واجه الحقيقة ولا تفر: إذا واجهتك آية تخالف هواك، أو نصحك أحد بخلق سيء فيك، تذكر أن التولية والاستكبار هي صفة المذمومين في القرآن .قاوم رغبتك في الهروب، واثبت، واسأل: "ما الذي يريد الله أن يغير فيّ؟"
.3كن مبشرًا بغير ما تنتظر: أنت تتعامل مع نصوص الوحي .هي تبشرك إن أحسنت، وتنذرك إن أسأت .كن من الذين يفرحون بـ "بشرى الهدى"، لا من الذين تنطبق عليهم "بشرى العذاب الأليم".
.4راقب لغة جسدك عند النصيحة: في المرة القادمة التي يوجه لك فيها أحد نصيحة، راقب جسدك . هل تشعر برغبة في إدارة وجهك أو تقطيب حاجبيك؟ هذه أول علامات الاستكبار .أمسك بها، وابتسم ، وقل: "جزاك الله خيرًا، سأنظر في الأمر".

الخلاصة: أن تسمع لترى

أيها القارئ العزيز،
لقد جعلنا الله في سورة لقمان أمام نموذجين: نموذج المحسن الذي يعيش بالحكمة واليقين، ونموذج المستكبر الذي يعيش بالصمم والهروب.
الآية السابعة ليست حكمًا على أحد، إنها مرآة.
أنت حين تسمع القرآن، هل قلبك يُقبل أم يُدبر؟ أنت حين تسمع النصيحة، هل تتواضع أم تنتفخ؟ أنت حين ترى الحق واضحًا، هل تسلم وجهك لله أم تولي مستكبرًا؟

اجعل هذه الآية إنذارًا مبكرًا في حياتك. كلما شعرت بالوقر يتسلل إلى أذنك من كثرة ضجيج الدنيا، عالجها بالقرآن. كلما أحسست برغبة في التولي عن الحق لأنه "يثقل كاهلك"، تذكر أن الجنة حفت ب المكاره، وأن العذاب الأليم ينتظر من استخف بآيات الله.

كن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. كن ممن إذا تليت عليهم آيات الله، خروا سجدًا وبكيًا، لا من إذا تليت عليهم آيات الله ولوا مستكبرين. فبذلك فقط، تكون قد أتممت بناء هويتك، وحصنت نفسك، وخرجت من زمرة من اشترى لهو الحديث، ودخلت في زمرة المحسنين المفلحين.
المبحث الرابع
أيها القارئ الكريم،
بعد أن صعدنا في رحلة التدبر شواهق سورة لقمان، ورأينا صراع الحكمة مع التفاهة، وشاهدنا مشهد المستكبر الذي يولي ظهره لآيات الله وكأن في أذنيه وقرًا، يأتي النداء الإلهي ليمسح على القلوب المؤمنة، وليقدم لها البديل الحقيقي، ويرسم لها خارطة الطريق نحو المستقبل المشرق. بعد أن عرض القرآن نموذج الإنسان المنحرف ثقافيًا ونفسيًا، يعود ليكمل بناء الإنسان الراشد الذي أسس له في الآ يات الخمس الأولى.

تعال نعيش معًا لحظة التنزيل، ونحن نسمع قول الحق تبارك وتعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 8-9]

تخيل أنك كنت واقفًا في ساحة المعركة الفكرية بين الحكمة واللّه، وقد رأيت بعينيك صنفين من البشر:

· صنفًا ملأ أذنيه بالوقر، فاشترى لهو الحديث، وولى مستكبرًا، مصيره العذاب المهين والأليم.
· وصنفًا آخر ...ما مصيره؟ هنا يتجلى الوعد الإلهي ليملأ قلبك طمأنينة وسكينة .إنه إعلان عن الفلاح الكامل، ليس فقط في الدنيا كما مر بنا في قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، بل في الآخرة أيضًا .إنها خاتمة المطاف للمحسنين.
أولا ً: دلالة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. معادلة الثقافة الإسلامية المتوازنة

لنبدأ بتشريح هذه الجملة العظيمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
لاحظ حرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾، إنه يأتي ليؤكد حقيقة قد تغيب عن الأذهان في زمن الصراع والفتن. كأن الله يقول لك: "أيها المؤمن، لا تخف من كثرة المستكبرين، ولا ترهبك ضجة المشترين للهو الحديث، فـ الحقيقة الثابتة المؤكدة هي أن الفائزين الحقيقيين هم هؤلاء".

ثم تأتي المعادلة المركزية لبناء الثقافة الإسلامية: الجمع بين الإيمان والعمل الصالح.
لم يقل: "الذين آمنوا فقط"، ولم يقل: "الذين عملوا الصالحات فقط". لماذا؟
لأن الإيمان بلا عمل هو شجرة بلا ثمر، عقيدة مجردة لا تؤثر في الواقع، وهذا خطر يؤدي إلى الا نعزال السلبي.
ولأن العمل بلا إيمان هو بناء على غير أساس، حركة في فراغ، قد تكون نفعية مادية لكنها تفتقر إلى البوصلة والقيم، وهذا يؤدي إلى التبعية الثقافية العمياء.

هذه المعادلة هي جوهر ثقافة المسلم:

· الإيمان يمثل المرجعية والغاية .إنه القوة الدافعة الداخلية، والموجه الأخلاقي الذي يحدد "لماذا نعمل ؟".
· العمل الصالح يمثل الحضور الحضاري والإنتاجية .إنه ترجمة الإيمان إلى واقع ملموس، وإجابة عن سؤال "كيف نبني؟".

مثال واقعي تقريبي يوضح الفرق:
تخيل طبيبين:

· الأول: مؤمن إيمانًا قويًا، لكنه مهمل في تطوير مهاراته الطبية، لا يقرأ الأبحاث الجديدة، ولا يتقن تشخيصه .ثقافته: إيمانية فردية منعزلة.
· الثاني: طبيب بارع جدًا، حاصل على أعلى الشهادات، لكنه لا يؤمن باللّه ولا بالآخرة .ثقافته: مادية نفعية .قد يعالج الفقراء ببرود، وقد يستغل المرضى ماديًا.
· الثالث) نموذج الآية(: طبيب مؤمن باللّه، يوقن أنه يراقبه، فيتقن عمله كعبادة) فهو محسن(، ويطور نفسه باستمرار ليخدم الناس) عمل صالح(، ويتعامل مع مرضاه برحمة) خلق إسلامي .(هذا هو المسلم الذي يبني ثقافته على ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وهنا تكمن الرسالة التربوية العظيمة: الثقافة الإسلامية ثقافة توازن. لا هي ثقافة رهبنة وانقطاع عن الدنيا، ولا هي ثقافة انغماس مادي بلا روح. إنها ثقافة إعمار الأرض بتقوى اللّه. وهذا هو المفهوم المركزي الذي يجب أن نحمله في حياتنا العملية.
ثانيًا: دلالة ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا﴾.. الحافز النفسي والوجداني

بعد أن ذكر الشرط (الإيمان والعمل)، جاء ذكر الجزاء: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾.
تأمل كلمة ﴿النَّعِيمِ﴾. النعيم في اللغة هو الرفاهية المطلقة، واللذة الدائمة التي لا يشوبها كدر. إنه ضد "العذاب الأليم" و"العذاب المهين" المذكورين في الآيات السابقة للمعرضين.
انظر إلى روعة التقابل القرآني:

· أولئك استبدلوا الحكمة باللّه، فكان جزاؤهم إهانة وألم.
· وهؤلاء استبدلوا اللّه بالحكمة والعمل الصالح، فكان جزاؤهم نعيمًا وخلودًا.

ثم تأتي كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. الخلود يعني الأمان الوجودي المطلق. في الدنيا، كل شيء إلى زوال، الصحة تفنى، والمال يذهب، والمناصب تزول. هذا الشعور بالفناء يسبب قلقًا وجوديًا عند كل إنسان. لكن الآية تمنح المؤمن اليقين بأن تعبه في الدنيا لا يضيع، وأن ثمة دارًا لا فناء فيها.

كيف يبني هذا الجانب ثقافة المسلم؟
المسلم المثقف بثقافة القرآن يعمل في الدنيا وهو ينظر إلى الأفق الأخروي. هذا المنظور يجعله:

.1صابرًا على الشدائد: يعلم أن أيام الدنيا معدودة، وأن النعيم الحقيقي ينتظره.
.2غير مأسور بالماديات: لا ينهار إذا خسر تجارة، ولا يطغى إذا ربح مالا ً، لأن قلبه معلق بـ "جنات النعيم" لا بـ "زينة الحياة الدنيا".
.3منتجًا بإتقان: لأن عمله الصالح هو رأس ماله في هذه التجارة الرابحة مع الله .إنها ثقافة الا ستثمار طويل الأجل في الآخرة، وليس ثقافة الاستهلاك السريع في الدنيا.
ثالثًا: دلالة ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًا﴾.. الثقة المطلقة في زمن الشك

وهنا تأتي واحدة من أروع اللمسات البيانية والإيمانية في الآية: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًا﴾.
كلمة ﴿وَعْدَ﴾ مصدر مؤكد لنفسه. وكأنه يقول: "وعد الله وعدًا". ثم جاء التأكيد الثاني بـ ﴿حَقًا﴾ وهو مصدر آخر في موقع الحال، أي: "وعد الله ذلك وعدًا متحققًا لا محالة".

لماذا هذا التوكيد القوي؟
لأن الإنسان في زمن الصراع الفكري، وحين يرى أهل الباطل يصولون ويجولون، وحين يغرق العالم في "لهو الحديث"، قد يتسلل إلى قلبه الشك: "هل أنا على حق حقًا؟ هل سينتصر الخير؟ هل يستحق كل هذا التعب؟"
فتأتي هذه الآية كـ طمأنة ربانية تمسح على القلب: "ثق تمام الثقة، واطمئن كل الاطمئنان. هذا ليس مجرد كلام، هذا وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد."

كيف نعيش هذا المفهوم في حياتنا العملية؟
عندما تجلس في نهاية يوم مرهق، وتشعر أن أحدًا لم يقدّر تعبك، تذكر: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًا﴾.
عندما ترى الكذابين والمخادعين يترقون في مناصبهم، تذكر: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًا﴾.
عندما تلتزم بقيمة الصدق فتخسر صفقة، أو تحافظ على صلاتك في وقتها فيسخر منك زملاؤك، تذكر: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًا﴾.

هذه الكلمات تبني في نفس المسلم ثقافة الثبات والثقة. إنها تمنحه مناعة نفسية ضد الإحباط و اليأس. إنها تجعله يعيش في الدنيا وهو ينظر إليها من فوق، لا من تحتها.
رابعًا: دلالة ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.. الضمانة الإلهية لتحقق الوعد

لم تنته الآية عند ﴿حَقًا﴾، بل خُتمت باسمين جليلين من أسماء الله الحسنى: ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.
ما العلاقة بين هذين الاسمين وبين مضمون الآية؟ العلاقة وثيقة جدًا، وهي تمثل الضمانة الكاملة لتنفيذ الوعد:

.1﴿العَزِيزُ﴾: هو الغالب الذي لا يُغلب، القوي الذي لا يعجزه شيء .معنى هذا أن وعد الله لا يمكن أن تمنعه قوة في الأرض أو السماء .لا قوة المستكبرين، ولا دهاء المشترين لهو الحديث، ولا إغراءات الدنيا .الله عزيز، قادر على إنفاذ وعده، وحماية أوليائه، وإيصالهم إلى جنات النعيم.
.2﴿الحَكِيمُ﴾: هو الذي يضع كل شيء في موضعه، فلا يفعل شيئًا عبثًا .معنى هذا أن وعد الله ليس عشوائيًا، بل هو حكمة بالغة .قد يتأخر النصر، قد تكثر الابتلاءات، لكن كل ذلك يقع وفق حكمة إلهية دقيقة، قد تخفى علينا لكنها واضحة عنده سبحانه.

الدرس الثقافي والتربوي من الختام:
ثقافة المسلم تقوم على الجمع بين العزة والحكمة.

· بالعزة: يواجه المسلم تحديات العصر بثقة، ولا يخضع للتبعية الثقافية، ولا يستكين للضغوط .فهو يعلم أن العزة لله جميعًا، وأن من كان مع الله كان عزيزًا به.
· بالحكمة: يتعامل المسلم مع الأحداث والمشكلات بتؤدة وتعقل .لا يتسرع، ولا ييأس .يضع الأمور في مواضعها، ويدرك أن لله في كل أمر حكمة، حتى لو بدا الأمر مؤلمًا في الظاهر.

هذان الاسمان هما دستور الأمان النفسي للمسلم. هما يذكرانه بأن المستقبل بيد عزيز لا يُقهر، وحكيم لا يُعقل.

خامسًا: المفاهيم المركزية من الآيتين في حياتنا العملية وبناء ثقافة المسلم

دعنا الآن نستخلص الدروس ونصوغها كمفاهيم مركزية قابلة للتطبيق في حياتنا اليومية:

المفهوم المركزي الأول: التكامل بين الإيمان والعمل (النظرية والتطبيق)

· في الحياة العملية: لا يكفي أن تكون مسلمًا ببطاقة الهوية، ولا أن تكون متدينًا في مسجدك فقط . ثقافة المسلم الحقيقية هي أن يحول كل عمل يومي إلى عبادة .الأكل بنية القوة على الطاعة عمل ص الح، النوم مبكرًا لقيام الليل عمل صالح، إتقان الدراسة أو الوظيفة عمل صالح، الكلمة الطيبة للزوجة والأولاد عمل صالح .كل حياتك تصبح جنات في الدنيا قبل الآخرة.
· في بناء الثقافة: المجتمع المسلم ليس مجتمع عبادات فحسب، بل هو مجتمع إنتاج وإبداع .نعم نبني المساجد، ولكننا نبني أيضًا الجامعات والمصانع والمستشفيات، وكل ذلك داخل في مظلة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذا صلحت النية.

المفهوم المركزي الثاني: اليقين بالجزاء الأخروي كحافز للانضباط الدنيوي

· في الحياة العملية: عندما تشعر بالكسل عن طاعة، أو الرغبة في معصية، استحضر صورة جنات النعيم بكل حواسك .تخيل نعيمها، وأنهارها، وخلودها .ثم قارنها بلذة عابرة دقائق .هذا الاستحضار الوجداني هو أقوى رادع وأعظم حافز.
· في بناء الثقافة: المجتمعات الغربية تحاول ضبط سلوك أفرادها بالقوانين والرقابة البشرية، وهذا مكلف ومحدود .أما ثقافتنا فتعتمد على الرقابة الذاتية النابعة من اليقين بالآخرة .هذا يجعل المسلم منضبطًا حتى لو كان وحده في غرفته المغلقة .هذه هي قوة الثقافة الإيمانية.

المفهوم المركزي الثالث: الثقة المطلقة بوعد الله في زمن الأزمات

· في الحياة العملية: نواجه يوميًا أخبارًا محبطة، حروبًا، كوارث، انهيارات اقتصادية، استهزاء بالدين . إذا لم نكن نعيش معنى ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾، سنصاب بالقلق والاكتئاب .لكن ثقافة المسلم تمنحه مناعة نفسية .هو يعمل ما عليه من أسباب، ثم يوقن بأن العاقبة للمتقين، وأن الله لا يخلف وعده .هذا ليس تواكلا ً، بل هو قوة دفع إيجابية للاستمرار في العمل رغم الظلام المحيط.
· في بناء الثقافة: أمة تعيش بوعد الله حقًا، هي أمة لا تقهر، ولا تيأس، ولا تنهار أمام الأزمات .هي أمة ترى في كل محنة منحة، وفي كل شدة بشرى .هذه الثقافة هي سر صمود المسلمين عبر التاريخ.

المفهوم المركزي الرابع: الاتزان بين العزة والحكمة في التعامل مع الواقع

· في الحياة العملية: أنت تواجه أشخاصًا مختلفين، ضغوطًا متعددة.
· بالعزة: لا تتنازل عن مبادئك، لا تخضع لضغط رئيسك في العمل لترتكب حرامًا، لا تذوب في ثقافة الأغلبية المخالفة لدينك.
· بالحكمة: اختر الوقت والطريقة المناسبة للتعبير عن موقفك .لا تكن عنيدًا أحمق يثير العداوات بـ لا داع .وازن بين قوة المبدأ ولين الأسلوب.
· في بناء الثقافة: الأمة المسلمة بحاجة إلى استعادة عزتها لتنهض من كبوتها، ولكن ب حكمة تمكنها من التعامل مع العالم المعاصر دون أن تذوب فيه .عزتنا تمنع التبعية، وحكمتنا تمكننا من الاستفادة من الآخر دون تفريط.
سادسًا: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا؟

والآن، السؤال الجوهري: كيف ننتقل من مرحلة قراءة الآيتين إلى مرحلة عيشهما؟

.1اجعل الآيه رفيق لك فى صباحك ومسائك:
كل صباح، جدد العهد مع الله: "اللهم إني من الذين آمنوا، فأعنّي على العمل الصالح" .وكل مساء، حاسب نفسك: "كم عملًا صالحًا أضفته إلى رصيدي اليوم لأستحق به وعد الله؟" .هذه المحاسبة اليومية تحول حياتك إلى مشروع بناء مستمر.
.2استبدل "ثقافة الشكوى" بـ "ثقافة الوعد":
بدلًا من أن تشكو من الظلم والفساد وكثرة أهل اللهو، تحول إلى طاقة إيجابية فاعلة .قل لنفسك: "أنا جزء من الحل، بعملي الصالح وإيماني ويقيني، أنا أزرع بذرة في أرض الوعد الإلهي" .كن كالنحلة، تقع على الزهر فتحوله عسلًا، بينما يقع الذباب على القذر فيتأذى.
.3عش الخلود وأنت في الفناء:
عندما تتخذ قرارًا مصيريًا في حياتك) زواج، وظيفة، تجارة(، لا تنظر فقط إلى المكاسب الدنيوية

الفانية .انظر إلى الأثر الأخروي الخالد .اسأل نفسك:"هل هذا العمل سيزيدني قربًا من جنات النعيم أم سيبعدني عنها؟" .هذا السؤال وحده كفيل بأن يغير كل اختياراتك.
.4كن صورة مصغرة من "العزيز الحكيم" في محيطك:
بمعنى:
· كن عزيزًا بإيمانك، لا ترتشي، لا تنافق، لا تبيع دينك بعرض من الدنيا.
· كن حكيمًا في تعاملك، تعلم متى تتكلم ومتى تصمت، متى تشتد ومتى تلين .بهذا تكون قدوة عملية للآخرين، وتبني ثقافة الإسلام ليس بالكلام فحسب، بل بالفعل والقدوة.

الخلاصة: العودة إلى الحصن

أيها القارئ النبيل،
لقد بدأت سورة لقمان ببناء الحصن الثقافي للمسلم عبر الكتاب الحكيم، ثم حذرته من لهو الحديث واستكبار المعرضين، وها هي ذي الآيتان الثامنة والتاسعة تغلقان دائرة البناء، وتعيدك إلى الحصن، ولكن هذه المرة بعد أن زودتك بالسلاح.

السلاح هو:

· إيمان يربطك بالسماء.
· عمل صالح يثبت أقدامك في الأرض.
· وعد حق يملؤك طمأنينة في زمن العواصف.
· عزة وحكمة تجعلك سيدًا في نفسك، لا عبدًا لغيرك.

اخرج من هذه الآيات وأنت تشعر أنك واحد من المخاطبين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. عش حياتك وكأنك تمشي في طريق مرسوم نهايته جنات النعيم. لا تلتفت إلى ضجيج المشترين لهو الحديث، ولا يحزنك استكبار المستكبرين، فموعدك مع الله حق، وهو العزيز الحكيم. بهذه الثقافة، نبني أنفسنا، ونبني أمتنا، ونبني حضارتنا التي وعدنا الله بها..
المبحث الخامس
أيها المتدبر في آيات الله، السائر في رحاب سورة لقمان،
لقد قطعنا معًا شوطًا عظيمًا في بناء صرح الإنسان الراشد. بدأنا بتأسيس المرجعية في (الكتاب الحكيم)، وصغنا معالم الشخصية في (المحسنين الذين يوقنون)، وحذرنا من مزالق الطريق: (لهو الحديث) و(الاستكبار والصمم)، ثم تلقينا الوعد الحق بالجنات جزاء للإيمان والعمل الصالح.

والآن، وبعد أن اكتمل بناء الإنسان من الداخل، يأخذنا الوحي في جولة خارجية مهيبة، جولة في كتاب الله المنظور (الكون)، ليربط القلب بالخالق، وليثبت أن مرجعيتنا الثقافية ليست مجرد نصوص نتلوها، بل هي حقيقة وجودية يشهد بها كل شيء حولنا.

تعال نعيش معًا خشوع هاتين الآيتين الكريمتين، كأنهما تتنزلان علينا الآن في هذا العصر الذي كثر فيه الإلحاد والتيه:
﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: 10-11]
المقدمة: من الكتاب المسطور إلى الكتاب المنظور

تخيل، أيها القارئ، أنك بعد أن سمعت أوامر بناء النفس في الآيات السابقة، يقف بك الوحي على قمة جبل، أو في قلب صحراء ليلا ً، ويقول لك: "انظر حولك! انظر إلى السماء، إلى الجبال، إلى الماء، إلى النبات... ألا ترى أن نفس الإله الذي أنزل الكتاب الحكيم هو من أبدع هذا الكون العظيم؟"

في الآيات السابقة، كان التركيز على الثقافة كمناعة داخلية. وهنا، تنتقل السورة إلى بناء الثقافة كيقين وجودي. إنها تريد أن تحررك من عقدة الخضوع للبشر، أو للطبيعة، أو للأصنام، بأن تريك أن الله وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق. إنها عملية تأصيل عقلي ووجداني لعقيدة التوحيد، لتكون ثقافتك صافية لا تشوبها شائبة الشرك أو الخرافة.
أولا ً: دلالة ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.. هندسة كونية بلا أعمدة

لنبدأ هذه الرحلة البصرية المذهلة مع قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

انظر إلى دقة التعبير القرآني: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾. العَمَد هي الأعمدة والدعائم التي ترفع السقف. في ثقافتنا

البشرية، أي بناء ضخم يحتاج إلى أعمدة لئلا يسقط. فكيف بالسماوات السبع الهائلة؟
القرآن يقول: إن الله خلقها ورفعها بغير أعمدة مرئية لكم. وقفة لغوية هنا: قوله ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة حالية. وفيها إشارة علمية لطيفة، فهي تنفي رؤيتكم للأعمدة، ولكن هل تنفي وجودها؟ قيل: بل هناك أعمدة لا ترونها، وهي قوانين الجاذبية والتوازن الكوني التي أقام الله بها السماوات بقدرته. إنها أعمدة من أمر الله، غير مرئية، لكنها أقوى من أي عمود حديدي.

كيف تبني هذه الآية ثقافة المسلم في عصر العلم؟
في زمن كنا ندرس فيه أن الأرض معلقة في الفراغ، تأتي هذه الآية لتؤكد أن هذا ليس عبثًا، بل هو خلق محكم. ثقافة المسلم لا تصطدم بالعلم، بل تتناغم معه. عندما يقرأ المسلم عن اتساع الكون، وعن المجرات التي تسبح بقوانين دقيقة، فإن إيمانه يزداد، لأنه يرى ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ متحققة أمامه. إنها تنمي في نفسه ثقافة التأمل والتفكر، وتبعث في قلبه الخشية والهيبة لعظمة الخالق. بينما يقف الملحد أمام هذا المشهد حائرًا يبحث عن تفسير مادي صدفوي، يقف المسلم ممتلئًا باليقين.

درس تربوي عملي:
عندما تشعر بضيق الصدر، أو هموم الحياة، اخرج في ليلة صافية، وانظر إلى السماء. تذكر قوله ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾. تأمل كيف أن الذي يمسك هذه الأفلاك بلا أعمدة، قادر على أن يمسك قلبك، ويفرج همك، ويدبر أمرك. هذا التأمل هو عبادة عقلية وروحية تجدد إيمانك، وتمنحك سكينة عجيبة.
ثانيًا: دلالة ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.. الجبال أوتاد الرحمة والثبات

ثم يهبط الخطاب الإلهي من السماء إلى الأرض التي نمشي عليها: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

كلمة ﴿أَلْقَىٰ﴾ توحي بالقوة والرمي. إنه ليس مجرد وضع، بل إرساء وتثبيت بقوة.
﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع راسية، وهي الجبال الشامخة الثابتة.
وظيفتها هنا: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. الميد هو الاضطراب والميلان الشديد، كما تميد السفينة في البحر الهائج.
العلم الحديث أثبت أن للجبال جذورًا عميقة في باطن الأرض، تثبت القشرة الأرضية وتوازنها تمامًا كالمرساة للسفينة، أو كالأوتاد للخيمة. هذه الحقيقة التي ذكرها القرآن قبل 1400 عام، هي جزء من ثقافتنا العلمية الإيمانية.

الرسالة التربوية والثقافية:
الجبال في القرآن رمز للثبات. الله يخبرنا أنه ألقى هذه الرواسي كي لا تميد بنا الأرض، أي كي نستقر ونعيش بأمان.
أيها المسلم، إذا كان الله قد جعل للكون رواسي تمنع ميدانه، فما هي الرواسي الثقافية التي جعلها الله لئلا تميد نفوسنا وأمتنا؟
لقد أجابت السورة على هذا السؤال في بدايتها: الرواسي الثقافية هي: الكتاب الحكيم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، واليقين بالآخرة.
كما أن الجبل يثبت الأرض، فإن القرآن يثبت الفكر، والصلاة تثبت السلوك والانضباط، والزكاة تثبت المجتمع والتكافل، واليقين يثبت القلب عند الشدائد.
إذا تخلت الأمة عن رواسيها الثقافية، فإنها ستميد وتضطرب وتنهار، تمامًا كأرض فقدت جبالها.

مثال واقعي تقريبي:
انظر إلى المجتمعات التي تخلت عن قيمها الروحية والدينية بحجة "الانفتاح". ألا تراها "تميد"؟ اضطرابات نفسية، تفكك أسري، معدلات انتحار مرتفعة، ضياع للهوية. لماذا؟ لأنها أزالت الرواسي التي تحفظ توازنها. ثقافة المسلم تمنحه هذه الرواسي ليبقى ثابتًا في وجه أعاصير العصر.
ثالثا: دلالة ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾.. ثقافة الاحتفاء بالحياة والتنوع

بعد أن ثبت الأرض بالجبال، ملأها بالحياة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

كلمة ﴿بَثَّ﴾ تعني النشر والتفريق والتكثير. إنها صورة فنية رائعة توحي بأن الله نثر الحياة على الأرض كما ينثر الزارع البذور في كل اتجاه. لم يخلق نوعًا واحدًا، بل من كل دابة. هذا التنوع البيولوجي الهائل (ملايين الأنواع من حشرات وطيور وأسماك وحيوانات) هو آية من آيات الله.

الرسالة الثقافية والوجدانية:
هذه الآية تبني في نفس المسلم ثقافة الاحترام والاندهاش تجاه الحياة بكل أشكالها. المسلم لا ينظر إلى الكون نظرة استغلالية جافة، بل نظرة دهشة وتقديس. كل كائن حي هو آية، وكل نملة هي

معجزة، وكل طائر هو كتاب مفتوح على عظمة الخالق.
هذا يربي في النفس الذوق الجمالي والحس البيئي المسؤول. المسلم الذي يقرأ ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ لا يمكن أن يكون ممن يعذب الحيوانات بلا سبب، أو يخرب البيئة ويلوثها، لأن هذا عبث بآيات الله وإفساد لخلقه. إنها ثقافة العمارة لا التدمير.
رابعا : دلالة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.. دورة الحياة والنبات الكريم

ثم تأتي أعظم لوحة في المشهد: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

انتقل الفعل من الغائب (خلق، ألقى، بث) إلى ضمير الجلالة ﴿وَأَنزَلْنَا﴾. هذا الالتفات البياني يزيد المشهد قربًا وحميمية. الماء ينزل من السماء بقدر، فيحيي الأرض الميتة، فتنبت من كل زوج كريم.
تأمل كلمة ﴿كَرِيمٍ﴾. لماذا وصف النبات بأنه كريم؟
الكريم في لغة العرب هو الشيء النفيس الكثير الخير. والنبات كريم لأنه:

· جميل يسر الناظرين.
· نافع يحمل الثمار والأقوات.
· معطاء بلا مقابل، يهب ظله وثمره للجميع.

درس ثقافي عميق:
في حضارة الإسلام، حتى النبات له "كرم" وأخلاق. هذه النظرة تنعكس على ثقافة المسلم في التعامل مع البيئة. الشجرة كريمة، فلا تعامل بقسوة. الأرض كريمة، فلا تلوث. المطر كريم، فلا يمنع عن أحد.
وهنا تظهر عظمة الثقافة الإسلامية في جعل الانتفاع بالكون عبادة، وليس مجرد استهلاك مادي. الأكل من الثمر الكريم يذكرك بالرازق الكريم، فتأكل وأنت شاكر، وهذه هي ثقافة الحمد.
خامسا: دلالة ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.. التحدي الإلهي الذي يسقط الأصنام الثقافية
وبعد هذا العرض المهيب، يأتي التحدي المنطقي الذي يهدم كل ألوان الشرك والتبعية الثقافية: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

هذا هو السؤال الذي لا جواب له إلا الصمت.
انظر إلى أسلوب القرآن التربوي: إنه لا يفرض عليك الإيمان فرضًا، بل يحاور عقلك. يقول لك: "ها هو خلق الله أمامك، بائنًا واضحًا. الآن، أطلعوني على ماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها؟ ما هو إبداعهم في الكون؟ أي جبل نصبوه؟ أي نبات أنبتوه؟ أي سماء رفعوها؟"
هذا التحدي موجه لكل زمان ومكان:

· قديمًا: لأصنام قريش الحجرية.
· حديثًا: للأصنام الفكرية الحديثة.
· العلمانية والطبيعة: "أروني ماذا خلقت الطبيعة؟" الطبيعة لا تخلق، إنها مخلوقة ومسخرة.
· الإنسان المعاصر: "أروني ماذا خلق العقل البشري؟" كل ما يصنعه الإنسان هو إعادة تدوير لمواد خلقها الله .السيارة من حديد خلق الله، والكهرباء من طاقة خلقها الله .الإنسان صانع وليس خالقًا.

كيف تحمي هذه الآية ثقافة المسلم من الذوبان؟
عندما تنبهر بحضارة الغرب المادية، وتشعر بالضآلة، تذكر هذه الآية. نعم، هم أبدعوا في الصناعة، ولكن ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾. الأساس من عنده. ثقافتنا تعلمنا أن ننظر إلى ما وراء المادة، إلى يد الخالق التي أودعت في الكون قوانينه. هذا لا يمنعنا من التعلم والاختراع، بل يحمينا من عبادة المخترَع ونسيان الخالق. إنها تمنحنا ثقة وجودية بأن مصدرنا هو مصدر الكون نفسه.
سادسا دلالة ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.. تفسير ظاهرة الإعراض عن الحقيقة

بعد التحدي الذي يخرس الألسنة، يأتي التشخيص الإلهي لحالة هؤلاء: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يقل: "الجاحدون" أو "الملحدون" فقط، بل قال: ﴿الظَّالِمُونَ﴾.
لماذا وصفهم بالظلم؟ لأن أعظم الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. فمن يعبد حجرًا لا يضر ولا ينفع، ويصرف العبادة عن خالق السماوات والأرض، فهو في قمة الظلم لنفسه وللحقيقة.

وقوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.
الضلال هو التيه وفقدان الطريق. ووصفه بأنه (مبين) أي واضح جدًا لكل عاقل. كيف يكون ضلالهم واضحًا؟

لأن دلائل الخلق أمامهم كالشمس، ومع ذلك يعرضون عنها. إنها حالة من العمى الاختياري. العاقل لو رأى بيتًا، لعلم أن له بان. فكيف بسماء بغير عمد، وأرض ذات رواس، وجنات ذات أزواج كريمة، ثم يقول: "جاءت صدفة"؟ هذا ضلال مبين.

الرسالة التربوية والعقلية:
هذا الوصف يمنح المؤمن طمأنينة فكرية. قد يبدو لك أن أهل الباطل لديهم حجج قوية، لكن القرآن يصفهم بأنهم في ضلال مبين. أي أن باطلهم واضح، وحجتهم واهية. هذا لا يدعوك للغرور، بل يدعوك للثبات على الحق، وعدم الاغترار بضجيجهم الإعلامي أو قوتهم المادية. إنهم تائهون، وأنت على طريق مستقيم.
سابعا : المفاهيم المركزية من الآيتين وبناء ثقافة المسلم

.1ثقافة التوحيد من خلال التأمل) الربط بين العلم والإيمان(

· في حياتنا العملية: خصص وقتًا أسبوعيًا للتأمل في الطبيعة .ليس لمجرد التنزه، بل بقصد التفكر في خلق الله .انظر إلى ورقة شجر، إلى نملة تمشي، إلى شكل السحاب، وقل بقلبك: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ . هذا النوع من السياحة يبني فيك حساسية إيمانية تمنعك من الوقوع في فخ الإلحاد أو المادية الجافة.

.2ثقافة الثبات) البحث عن الرواسي الشخصية(

· في حياتنا العملية: كل إنسان معرض للاهتزاز النفسي .حدد لنفسك "رواسي" تثبتك .اجعل قيام الليل راسية، وقراءة القرآن راسية، وصحبة الصالحين راسية .كما أن الجبال تمنع ميدان الأرض، فهذه العبادات تمنع ميدان القلب والسلوك.

.3ثقافة المسؤولية البيئية) كرم الخلق(

· في حياتنا العملية: عامل البيئة من حولك بـ "كرم" كما وصف الله النبات .لا ترمِ الأوساخ في الطريق، ازرع شجرة، حافظ على الماء، ارفق بالحيوان .هذه الأفعال الصغيرة هي ترجمة عملية لفهمك لـ- ﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

.4ثقافة العزة بالخالق) فأروني ماذا خلقوا(

· في حياتنا العملية: عندما تشعر بهزيمة نفسية أمام حضارة الآخر، ردد في داخلك: "كل ما صنعوه من حديد ونار هو من خامات خلقها ربي .أنا أعبد من خلق المادة، وهم يعبدون من صنع المادة" .هذه عزة إيمانية لا تمنعك من التعلم، بل تمنعك من الانبهار المهين والتبعية العمياء.

.5ثقافة الحجة والبرهان) محاورة العقل(

· في حياتنا العملية: تعلم من أسلوب القرآن في الحوار .عندما تدعو أحدًا، لا تفرض عليه، بل اسأله: "أرأيت هذا الكون؟ من خلقه؟" .أسلوب السؤال يفتح العقل ويحفزه، وهو أكثر تأثيرًا من الإملاء.
ثامنا : كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا اليومي؟

.1طبق "قاعدة التأمل قبل النوم":
قبل أن تخلد إلى النوم، أغلق عينيك واستعرض في خيالك هذه المشاهد: السماء بلا عمد، الجبال الشامخة، أصوات الدواب، خضرة النبات .تخيل نفسك تتلو الآيتين بصوت مسموع هادئ .هذا التمرين يملأ قلبك بالسكينة، ويجعل نومك عبادة.
.2مارس "رياضة المشي الإيماني":
عندما تمشي في حديقة أو طريق، لا تضع سماعات الأذن وتنعزل .انظر حولك بنية التفكر .قل: "سبحان من خلق السماوات بغير عمد، سبحان من بث هذه النملة، سبحان من أنبت هذه الزهرة الكريمة" .هذا يحول مشيك من رياضة بدنية إلى رحلة روحانية.
.3واجه أزماتك بـ- "رواسي الإيمان":
عندما تضطرب أمورك المالية، أو تمر بأزمة عاطفية، تذكر: "إذا كان الله قد ألقى الرواسي لتثبيت ا لأرض، فسيثبت قلبي بلطفه" .قل: "يا مثبت القلوب، ثبت قلبي على دينك" .هذه الدعوات تستجلب الطمأنينة.
.4كن سفيرًا لـ- "كرم الخلق":
في تعاملك مع الناس، كن "كريمًا" كالزوج الكريم .بادر بالسلام، امنح الابتسامة، قدّم المساعدة .

اجعل من حولك يشعرون أن المسلم مثل النبات الكريم، ينفع ولا يضر.

الخلاصة: الارتكاز على يقين الخلق

أيها القارئ الكريم،
بعد هذه الجولة في رحاب الآيتين العظيمتين، نعود إلى نقطة البداية التي أسست لها السورة. الكتاب الحكيم يدعونا للهدى والرحمة، والآن الكون المنظور يهتف بنفس الدعوة.
الآيتان تمنحان المسلم وثيقة تأمين وجودية. أنت لست يتيمًا في كون بارد لا معنى له، بل أنت ابن هذا الكون الذي خلقه إله واحد حكيم.
السماء بغير عمد تشهد بقدرته، والجبال الرواسي تشهد برحمته وثبات وعده، والدواب والنباتات الكريمة تشهد بجمال صنعته.
فلا تخف من ضجيج المشككين، ولا ترهبك قوة الظالمين. فكما قال ربك: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. أما أنت، فأنت على بصيرة من خلق الله، وعلى هدى من كتاب الله.

اجعل يقينك بهذه الحقائق هو راسية قلبك التي لا تميد، وزوجك الكريم الذي يثمر في كل حين.
القسم الثاني
المبحث الأول

أيها السائر في رحاب الحكمة، أيها المتدبر في كتاب الله،
لقد وصلنا إلى لحظة فارقة في رحلتنا مع سورة لقمان. بعد أن وقفنا على أعتاب الكون الفسيح، ورأينا بأعين بصيرتنا السماوات مرفوعة بغير عمد، والجبال راسيات بثبات، والماء ينزل فيحيي الأرض وينبت من كل زوج كريم. وبعد أن سمعنا التحدي الإلهي الذي يصم الآذان ويفتح البصائر: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

بعد كل هذا المشهد المهيب، الذي يوقظ في النفس معنى العظمة الإلهية، يأتي الانتقال القرآني العجيب. كأن الوحي يقول لنا: "لقد رأيتم دلائل القدرة والعظمة في الآفاق، فتعالوا الآن لتروا ثمرة هذه المعرفة في نفس بشرية. تعالوا لتروا كيف يبدع الله في الأنفس كما أبدع في الآفاق. هذا هو لقمان."

إن الربط بين التحدي الإلهي في الآيات السابقة وبدء قصة لقمان هنا هو ربط عضوي محكم. التحدي قال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾، ثم جاءت قصة لقمان لتقول: وهذه حكمة الله. فكما أن الخلق يدل على الخالق، فإن الحكمة هي المنهج الذي وضعه الخالق لمن عرف عظمته. والمعرفة بالله إذا لم تثمر حكمة في السلوك، كانت وبالًا على صاحبها. ولهذا، بعد أن عرض الله آياته في الكون، عرض نموذج الإنسان الحكيم الذي تفاعل مع هذه الآيات فبلغ ذروة الكمال البشري.

تعال نعيش معًا خشوع هذه الآية الكريمة، التي هي مفتاح شخصية لقمان، وجوهر الرسالة التي من أجلها سميت السورة باسمه:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12]
اولا ً: الربط العضوي بين التحدي الإلهي وبدء قصة لقمان

تأمل معي هذا الانتقال البديع:
الآية السابقة ختمت بقوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. هؤلاء هم الذين رأوا خلق الله، ثم عبدوا غيره، فكانوا في ضلال. والآن، تفتتح الآية بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾.

كأن الله يقول: "انظروا إلى الفرق بين الظالم الضال والعبد الشاكر الحكيم."

· الظالم رأى السماوات بغير عمد والأرض ذات الرواسي والماء والنبات، فكفر.
· ولقمان رأى نفس هذه الآيات، فكان أول فعل قام به هو الشكر، لأن الله آتاه الحكمة التي جوهرها: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

وهنا تتجلى عبقرية النظم القرآني: الحكمة هي ثمرة التفكر في خلق الله. من تأمل في السماوات والأرض بعين البصيرة، وصل إلى حقيقة أن المنعم واحد، فوجب شكره. ومن شكره، آتاه الله الحكمة.
إنها دورة إيمانية متكاملة: تفكر ← معرفة ← شكر ← حكمة.
ثانيا: دلالة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾.. منحة الله لعبده لقمان

ابدأ معي بتأمل صدر الآية: ﴿وَلَقدْ آتيْنَا لقمَانَ الحِكمَةَ﴾.

· الواو للعطف، وهي تربط قصة لقمان بما قبلها من دلائل الخلق.
· اللام في ﴿وَلَقدْ﴾ هي لام القسم، والله يقسم على أنه آتى لقمان الحكمة .لماذا القسم؟ ليعظم شأن هذه المنحة، وليؤكد أن الحكمة عطاء إلهي وليست مجرد نتاج ذكاء بشري .كم من أذكياء العالم لم يبلغوا الحكمة!
· ﴿آتيْنَا﴾ فعل ماضٍ يدل على أن الله أعطاه الحكمة عطاءً تامًا .لم يقل "علمنا" فحسب، بل آتينا، أي وهبنا ومنحنا .إنها هبة وليست مجرد معرفة.

من هو لقمان؟
تذكر الروايات أنه كان عبدًا حبشيًا، راعي غنم، أسود البشرة، بسيط الحال. لم يكن ملكًا ولا وزيرًا ولا فيلسوفًا يونانيًا. تخيل هذا المشهد: عبد في أسفل السلم الاجتماعي، يمنحه الله الحكمة ليكون معلمًا للبشرية إلى يوم القيامة. هذه رسالة ثقافية خطيرة: الحكمة لا ترتبط بالجاه أو المال أو النسب أو اللون. الحكمة مرتبطة بنقاء القلب وصفاء الروح والتوجه إلى الله. في ثقافتنا الإسلامية، القيمة الحقيقية للإنسان بمقدار ما في قلبه من حكمة، لا بمقدار ما في جيبه من مال. هذا المفهوم وحده كفيل بأن يحررنا من عقدة الانبهار بالأغنياء والمشاهير، ويدفعنا للبحث عن الحكماء حيث كانوا، ولو كانوا في صورة رعاة غنم.
ثالثًا: دلالة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.. الحكمة كلها في كلمة

وهنا يأتي التعريف الإلهي للحكمة في أوجز عبارة وأبلغها: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

﴿أَنِ﴾ هنا تفسيرية .أي: فسّرنا الحكمة التي آتيناه إياها بأن قلنا له: اشكر لله .وهذا يعني أن الحكمة ليست مجرد ذكاء أو كثرة معلومات، بل هي وضع الشيء في موضعه .وأول موضع للحكمة، وأعظم موضع، هو أن تضع العبودية والطاعة والشكر في موضعها الصحيح: لله وحده.

لماذا كان الشكر هو لب الحكمة وخلاصتها؟
لأن الشكر لله يعني:

.1معرفة النعمة: لا يشكر الإنسان إلا إذا أدرك أنه في نعمة .وأعظم نعمة هي نعمة الوجود والإيجاد التي تحدثت عنها الآيات السابقة) خلق السماوات والأرض والماء والنبات .(الحكيم هو من ينظر إلى الكون فيرى النعمة في كل شيء، لا البلاء.
.2معرفة المنعم: الشكر موجه لله، وهذا يعني الإقرار بأنه المنعم الوحيد .وهذا هو جوهر التوحيد الذي أقام الله عليه السماوات والأرض .﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ إذاً فالشكر لله.
.3استعمال النعمة في طاعة المنعم: الشكر ليس كلمة باللسان فقط، بل هو سلوك وعمل .أن تستعمل سمعك وبصرك ويدك وعقلك فيما يرضي الله، هذا هو الشكر العملي .الحكمة إذن هي ترجمة المعرفة بالله إلى سلوك يومي.

*لمسة بيانية: تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ على الفعل يفيد الاختصاص .أي أن الشكر خاص بالله، لا يشاركه فيه أحد، لا صنم ولا طاغوت ولا هوى نفس.
رابعًا: دلالة ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.. فلسفة المنفعة الذاتية

بعد الأمر بالشكر، تأتي الحقيقة الفلسفية العميقة التي تفسر لماذا أمر الله بالشكر: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

انظر إلى أداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾. كأن الآية تقول: "من يشكر، فإنه لا ينفع الله بشكره، بل يعود نفعه على نفسه فقط".
هذا المفهوم يقلب الموازين في عقل الإنسان. كثير من الناس يظن أنه حين يصلي أو يصوم أو يشكر ، فإنه يتفضل على الله، أو يقدم خدمة للدين. الآية تصحح هذا المفهوم تصحيحًا جذريًا:

· أنت حين تشكر، تزيد من نعمك .﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾] إبراهيم: .[7 الزيادة تعود عليك أنت.
· أنت حين تشكر، تسعد نفسيًا .علم النفس الحديث يثبت أن الامتنان والشكر يرفعان مستويات هرمون السعادة) السيروتونين والدوبامين(، ويقللان التوتر والاكتئاب .فأنت حين تحمد الله، أنت تمنح نفسك جرعة علاج نفسي مجانية.
· أنت حين تشكر، تحافظ على النعمة .الكفر بالنعمة سبب لزوالها .فالشكر هو بوليصة تأمين لنعمك.

مثال واقعي تقريبي:

تخيل أن صديقًا أهداك سيارة فارهة. هل إذا شكرته على الهدية تكون قد أفدته شيئًا ماديًا؟ لا. أنت باستمتاعك بالسيارة، وحرصك عليها، وعدم إهمالها، إنما تحقق لنفسك الفائدة. لكن الشكر يزيد المودة بينكما، ويدفعه لمزيد من العطاء. وكذلك العلاقة مع الله: شكرك هو إعلان لاستحقاقك المزيد من النعم ، وهو حماية نفسية وعملية لنفسك.
خامسًا: دلالة ﴿وَمَن كفَرَ فَإِنّ اللهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾.. الاستغناء بالله والتحرر من عقدة الاحتياج

ثم تأتي الخاتمة التي تمنحك العزة والطمأنينة: ﴿وَمَن كفَرَ فَإِنّ اللهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾.

الكفر هنا هو كفران النعمة، وهو ضد الشكر. والله يخبرك أنه إن كفرت، فإنك لا تضره شيئًا، لأنه:

· ﴿غَنِيٌ﴾: غني عن شكرك، غني عن عبادتك، غني عنك وعن الكون كله .وجودك وعدمك عنده سواء من حيث ذاته العلية.
· ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود في ذاته، يستحق الحمد وإن لم يحمده أحد .فملائكته تحمده، وجماداته تسبح بحمده.

ما هي الرسالة التربوية والنفسية العميقة هنا؟
هذه الآية تعالج في نفس المؤمن عقدة الاحتياج والخوف من فوات المنفعة. كثير من الناس يتعامل مع الله بمنطق تجاري: "أنا أعطي الله طاعة، فيعطيني نعمة". فإن تأخرت النعمة، كفر وجحد. الآية تقول له: "أنت من يحتاج، وليس الله. الله غني حميد. شكرك ينفعك أنت، وكفرك يضرك أنت. فالله غني عن العالمين."
هذا الفهم يحررك من الأنانية العبادية، ويدفعك للعبادة حبًا وشكرًا لا خوفًا من الفقر أو طمعًا في الغنى الفوري. أنت تشكر لأنه يليق بجلاله أن يشكر، ولأن الشكر يطهر نفسك ويرتقي بروحك. إنها عبادة الأحرار، لا عبادة العبيد الخائفين على رزقهم.
سادسًا: كيف تكون الشكر عملية بناء للشخصية المسلمة؟ (القيم والمفاهيم العملية)

والآن، لنسأل السؤال العملي: كيف تتحول ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلّهِ﴾ من مجرد أمر إلى برنامج يومي لبناء الشخصية؟

.1الشكر يبني الإنسان المستغني بالله:
عندما توقن أن الله غني حميد، فإنك تستغني به عن الخلق .لماذا تتملق مديرك في العمل للحصول على ترقية، وتنسى شكر من بيده ملكوت كل شيء؟ الشاكر الحقيقي هو إنسان حر، لا يستعبده أحد، لأنه يعلم أن المنعم الحقيقي هو الله .هذه هي ثقافة العزة والاستغناء.
.2الشكر يبني الإنسان المتواضع:
كيف؟ لأن الشكر اعتراف بالفضل .إنه يقول: "ما بي من نعمة فمن الله" .هذا الاعتراف يكسر الأنا المتضخمة .الحكيم لقمان لم تقله الحكمة "أنا"، بل قادته الحكمة إلى "أن اشكر لله" .التواضع هو أول درجات الحكمة .فكلما زاد شكرك، زاد تواضعك، وزادت حكمتك.
.3الشكر يبني الإنسان الإيجابي المنتج:
الشكر ليس سلبيًا .الشاكر الحقيقي يرى النعمة في كل شيء، حتى في البلاء .هذه النظرة الإ يجابية تجعله دائمًا متفاعلا ً مع الحياة، وليس متذمرًا .هو يستخدم نعم الله) العقل، الصحة، الوقت (في العمل الصالح، فيكون منتجًا ومفيدًا .الشاكر تراه مبتسمًا محبوبًا، لأن لسانه رطب بحمد الله، وقلبه عامر بالرضا.
.4الشكر يبني الإنسان الصابر:
حين يدرك أن كل ما عنده من الله، يصبر على البلاء .أيوب عليه السلام كان نموذجًا للشاكر الصابر .الشكر في الرخاء يورث الصبر في الشدة .ومن صبر، فقد حاز الحكمة كلها.
سابعًا: الأبعاد النفسية والتربوية للآية

· البعد النفسي: الامتنان كعلاج للاكتئاب
في علم النفس الإيجابي، "مذكرة الامتنان" هي أداة علاجية فعالة .أن تكتب كل يوم ثلاثة أشياء أنت ممتن لله عليها، يغير كيمياء دماغك .الآية تدعونا إلى التدرب على الامتنان اليومي عبر الأذكار)الحمد لله(، والتفكر في النعم .هذا يبني مناعة نفسية ضد القلق والاكتئاب.
· البعد التربوي: تربية الجيل على الشكر
عندما نربي أولادنا على أن يقولوا "الحمد لله" على الطعام والشراب واللباس، فإننا لا نعلمهم مجرد كلمة، بل نغرس فيهم فلسفة الحكمة .نربيهم على أن يكونوا منتفعين لا متذمرين، مقدرين لا جاحدين .هذا هو أساس الصحة النفسية والاجتماعية.
· البعد الحضاري: الشكر دافع للإبداع

الحضارة الإسلامية قامت على شكر المنعم باستعمال نعمه في عمارة الأرض .العلماء المسلمون الأ وائل) في الطب، الفلك، الهندسة (كانوا ينظرون إلى العلم على أنه شكر لله على نعمة العقل .هذه النية حولت العلم من مجرد معرفة دنيوية إلى عبادة، فتفجرت طاقاتهم، وأبدعوا .أمة لا تشكر، أمة مستهلكة لا منتجة.
ثامنًا: كيف نعيش هذه الآية اليوم؟ (دليل عملي)

.1اجعل الشكر بداية يومك ونهايته:
· في الصباح: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور".
· في المساء: "
· هذه الأذكار ليست مجرد ترديد، بل هي إعلان استراتيجي أنك تبدأ يومك بنفسية الشاكر الحكيم.
.2مارس "التأمل في النعمة":
خذ دقيقة كل يوم لتتأمل في نعمة واحدة فقط) البصر، السمع، الماء الجاري، الهواء الذي تتنفسه .(تخيل حياتك بدونها .ثم قل بقلبك لا بلسانك: "الحمد لله" .هذا التمرين البسيط يجعلك ترى الحياة بعين مختلفة.
.3حارب ثقافة التذمر بـ "لغة الشكر":
كم مرة نشتكي من الحر، والبرد، والزحام، والغلاء؟ اجعل لنفسك تحديًا: "يوم بلا شكوى" .حاول ألا تتذمر طوال يوم كامل، وكلما هممت بالشكوى، استبدلها بحمد الله على نعمة أخرى .ستكتشف أن السعادة كانت بين يديك.
.4استعمل النعم في طاعة المنعم:
هذا هو الشكر العملي .هل شكرت الله على نعمة "النت" بأن تتعلم به علمًا نافعًا، أم جعلته كله لهو حديث؟ هل شكرت الله على نعمة "الوقت" بأن تنجز فيه عملًا صالحًا، أم أضعته في الغفلة؟ حوّل نعمك إلى وسائل للعبادة، وستشعر أن حياتك كلها صارت حكمة.
.5كن سفيرًا للحكمة في محيطك:
إذا أردت أن تكون من أهل الحكمة، فكن شاكرًا .الشخص الشاكر مغناطيس للآخرين .الناس تحب الجليس الممتن، المبتسم، الذي يرى الجانب المشرق من الحياة .بهذا تكون دعوتك بلسان حالك قبل مقالك .وكما قال الشاعر:
إذا كان شكري نعمة الله ِ نعمةٌ * عليّ له في مثلها يجب الشكرُ

الخلاصة: الحكمة تبدأ من هنا

أيها القارئ الحبيب،
لقد وصلنا إلى بؤرة السورة ومركزها. الآية الثانية عشرة هي المفتاح الذي ندخل به إلى وصايا لقمان التي سترد في الآيات التالية. كل وصية سيوصي بها ابنه، هي تطبيق عملي لـ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

· التوحيد: شكر لله بعدم الإشراك به.
· بر الوالدين: شكر لله ثم شكر للوالدين.
· إقامة الصلاة: شكر عملي بالجوارح.
· الأمر بالمعروف: شكر بنشر الخير.
· التواضع في المشي وخفض الصوت: شكر لله بنبذ الكبر.

لقد بدأ الله قصة لقمان بأن جعله نموذجًا للشاكر الحكيم. فإن أردت أن تكون حكيمًا، فابدأ من هنا. ابدأ من كلمة الشكر. حول حياتك إلى سلسلة من الامتنان الواعي، وسترى كيف تنفتح لك أبواب الحكمة، وكيف تصير حياتك جنات النعيم في الدنيا قبل الآخرة.
تذكر دائمًا أن الله ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وشكرك هو تاج كرامتك، وهو طريق سعادتك، وهو أساس حضارتك. فكن من الشاكرين الحامدين، تكن من الحكماء الفائزين.
المبحث الثاني

أيها المربي الفاضل، أيها الأب الحنون، أيها الشاب الباحث عن هويته وثقافته،
لقد وقفنا في الآية السابقة على منبع الحكمة وغايتها: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾. رأينا كيف أن لقمان، ذلك العبد الحبشي البسيط، نال شرف الخلود بذكره في القرآن لأنه عرف كيف يضع الشكر موضعه. والآن، وبعد أن اكتملت له الحكمة من منبعها الإلهي، تأتي اللحظة التي ننتظرها جميعًا: كيف تترجم هذه الحكمة إلى واقع؟ كيف تتحول من مجرد فكرة في العقل إلى منهج حياة في السلوك؟

تعال معي نعيش بخشوع ودفء هذه الآية العظيمة، التي تفتتح بها وصايا لقمان، وكأنك تجلس في

مجلسه، تسمع صوته الخافت الحنون وهو يهمس في أذن فلذة كبده:
﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]
أولا ً: دلالة الافتتاح في الوصايا ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾.. التربية بالقدوة قبل الموعظة

ابدأ معي بتأمل هذا الافتتاح القرآني الفريد: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾.
كلمة ﴿وَإِذْ﴾ ظرف للزمن الماضي، وهي تستخدم في القرآن لاستحضار المشاهد الغابرة وكأنها حية أمامك. الله يفتح لك نافذة على بيت لقمان، في لحظة خاصة جدًا، لحظة التربية. لم يقل: "وقال لقمان لابنه"، بل قال: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾، وكأنه يقول: "اذكر أيها النبي، اذكروا أيها المؤمنون، ذلك المشهد العظيم الذي لا يُنسى".

لماذا هذا الاستحضار؟
لأن التربية حدث، إنها لحظة فارقة في حياة الإنسان. ما يقال في هذه اللحظات الخاصة، في أجواء المحبة والصفاء، يبقى محفورًا في الذاكرة والوجدان إلى الأبد. إنها تربية بالمشهد الحي، تربية بالقدوة الحية قبل أن تكون بالموعظة المسموعة.

التربية بالقدوة:
انظر إلى قوله: ﴿لِابْنِهِ﴾. لقمان لم يذهب ليعظ أبناء الناس قبل أن يربي ابنه نفسه. هذا هو المبدأ الأ ول في التربية الإسلامية: ابدأ بنفسك ثم بأهلك. الأب الصالح هو النموذج الحي الذي يراه الابن كل يوم. قبل أن ينطق لقمان بموعظته، كان الابن يرى أباه:

· شاكرًا لله على كل حال، وهذا تطبيق عملي للآية السابقة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.
· متواضعًا لا يتكبر على الناس وهو صاحب الحكمة.
· قانتًا لله في صلاته وعبادته.

هذا هو النوع الأول من أنواع التربية الذي تعلمنا إياه الآية: التربية بالقدوة والمشهد. الأب مرآة، والا بن يرى فيها نفسه. فقبل أن تتحرك شفتا لقمان بالموعظة، كان الابن قد تلقى دروسًا صامتة من سلوك والده.
ثانيًا: دلالة ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾.. معنى الموعظة وأثرها في النفس

ثم تأتي الجملة الحالية: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾.
كلمة الموعظة مشتقة من الوعظ، وهو في اللغة: التذكير بالخير والعاقبة بما يرق له القلب.
الموعظة ليست أمرًا جافًا، ولا توبيخًا قاسيًا، ولا إلقاءً نظريًا. الموعظة هي كلام يترك أثرًا في النفس، ويكاد القلب أن ينصدع له. ولهذا سميت موعظة، لأنها تعظ القلب، أي تمنعه عن الزلل وتزجره عن الخطأ برفق ورحمة.

لماذا الموعظة أداة تربوية عظيمة؟

· لأنها تخاطب الوجدان قبل العقل: الموعظة لا تكتفي بسرد الحقائق المجردة، بل تصوغها بأسلوب يحرك المشاعر .إنها تلامس العاطفة، فتفتح طريقها مباشرة إلى القلب، ثم يستجيب العقل.
· لأنها تترك أثرًا باقيًا: الكلمة الطيبة الصادرة من قلب محب، كالغيث على الأرض العطشى .أثر الموعظة الصادقة يبقى في النفس سنين طويلة، وقد يكون سببًا في هداية إنسان بعد ضلال.

وهنا يبرز سؤال: ما هي أنواع الموعظة؟
كما أشرنا، الآية ترينا نوعين متداخلين:

.1الموعظة بالمشهود) القدوة(: حياة لقمان نفسها كانت موعظة .ابنه يراه يتعبد، يراه يشكر، يراه يتواضع .هذه موعظة صامتة ولكنها أبلغ من كل كلام.
.2الموعظة بالمسموع) الكلمة(: وهي التي سنسمعها في الآية: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾.

والحكمة التربوية العظيمة أن لقمان جمع بين النوعين: قدم القدوة (الموعظة المشهودة)، ثم أردفها بـ الموعظة المسموعة. هذا هو الأسلوب الأمثل الذي يجعل للكلمة وقعًا وقبولًا. فالكلمة التي تخرج من فم رجل يعيش ما يقول، هي كلمة تنفذ إلى شغاف القلب بلا استئذان.
ثالثًا: دلالة ﴿يَا بُنَيَّ﴾.. روعة الأسلوب التربوي القرآني

والآن، قف معي طويلًا عند هذا النداء الحبيب: ﴿يَا بُنَيَّ﴾.
إنه نداء ملؤه الحب والحنان والشفقة. إنه ليس نداء: "يا ولد" أو "يا ابني"، بل هو تصغير (بُنيّ) لا

للتحقير، بل للتحبب والتقريب. العرب تقول: "يا جُبيل" و"يا ثهير" تدليلا ً، لا تقليلًا.

الدلالات التربوية العميقة في هذا النداء:

.1تمهيد نفسي لقبول النصيحة: قبل أن يلقي بالموعظة الثقيلة) لا تشرك بالله(، مهد لقلب ابنه بهذا النداء الرقيق .كأنه يقول له: "يا حبيبي، يا فلذة كبدي، اسمع مني .أنا لا أريد لك إلا الخير." هذا الأ سلوب يزيل الحواجز النفسية، ويفتح آذان القلب قبل الأذنين.
.2تعليم الدعاة والمربين: هذا النداء يعلم كل أب وكل معلم وكل داعية أن اللين والرفق هو مفتاح القلوب .كم من نصيحة صادقة رُدّت لأنها قُدمت بأسلوب جاف أو متعالٍ! وكم من كلمة طيبة أنقذت إنسانًا لأنها خرجت من قلب رحيم! قال النبي ﷺ: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه".
.3بناء علاقة المودة: الأبوة في الإسلام ليست مجرد سلطة، بل هي رعاية ومسؤولية ومودة .هذا النداء يربي في الأبناء حب الوالدين وتوقيرهما، لأنهم يرون فيهما الرحمة والشفقة، لا القسوة و التسلط.

رسالة عملية للآباء والمربين اليوم:
عندما تريد أن تنصح ابنك أو ابنتك، لا تبدأ بالصراخ أو التوبيخ: "أنت مهمل... أنت مخطئ..." بل ابدأ باسمه مصغرًا محببًا: "يا حبيبي... يا فلذة كبدي... يا نور عيني...". ثم اسكب النصيحة برفق. ستجد الفرق العظيم في الاستجابة. هذا هو المنهج القرآني في التربية.
رابعًا: دلالة ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾.. الثابت الذي لا يقبل التفريط

بعد التمهيد النفسي، تأتي الوصية الأولى والأعظم: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾.
انظر إلى حكمة لقمان: بدأ وصاياه بـ التوحيد. لماذا؟
لأن العقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه كل بناء. كما أن البناء إذا اختل أساسه انهار مهما كانت جدرانه قوية، فإن الإنسان إذا اختلت عقيدته، فسدت كل أعماله وضاعت كل أخلاقه. التوحيد هو بوصلة المسلم التي توجه حياته كلها نحو الله.

وهنا نصل إلى قضية محورية في بناء الثقافة الإسلامية كما وردت في السورة:
الآية تؤكد أن عقيدة التوحيد ثابتة لا تقبل التفريط أو التنازل عند الاتصال بالآخرين.
في سورة الروم، تعلمنا التحالف الإنساني مع الآخر (الروم) على أساس القيم المشتركة. ولكن هنا في سورة لقمان، يأتي الحارس الأمين ليقول: "نعم، تحالفوا وتعايشوا، ولكن إياكم والذوبان في عقائدهم." لا مرونة في العقيدة. لا مساومة على التوحيد. يمكنك أن تتعلم من غير المسلم علوم الدنيا (الطب، الهندسة، التكنولوجيا)، ويمكنك أن تتعامل معه بخلق الإسلام، لكن لا يمكنك أن تتنازل عن ذرة من عقيدتك، ولا أن تخلط توحيدك بشوائب الشرك والخرافات.

هذه هي السيادة الثقافية التي تؤسس لها السورة: انفتاح على الآخر في دائرة المباح والمشترك الإ نساني، وانغلاق تام في دائرة العقيدة والثوابت. وهذا هو التوازن الذي يحمي هوية الأمة من الذوبان.

خامسًا: دلالة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.. التعليل التربوي الذي يخاطب العقل

بعد النهي عن الشرك، لم يكتف لقمان بالأمر والنهي، بل علل النهي تعليلا ً منطقيًا يخاطب عقل ابنه ووجدانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

انظر إلى جمال التعليل:

- ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد.
- ﴿الشرك﴾ هو المبتدأ.
- ﴿لَظُلْمٌ﴾ الخبر، واللام فيه للتوكيد.
- ﴿عَظِيمٌ﴾ وصف للظلم، أي أنه ظلم فاق كل حد.

لماذا كان الشرك ظلمًا عظيمًا؟
الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه. والشرك هو وضع العبودية في غير موضعها. فبدلًا من أن يتوجه بالعبادة والشكر لله الخالق الرازق، يتوجه بها إلى حجر أو بشر أو هوى. أليس هذا أعظم الظلم وأشنعه؟
إنه ظلم للنفس، لأنها تهبط عن مرتبة العبودية لله إلى مرتبة العبودية للمخلوقين.
إنه ظلم للحقيقة، لأنه يجعل المخلوق في مقام الخالق.

إنه ظلم للكون كله، لأن السماوات والأرض تسبح بحمد الله، فيأتي الإنسان فيشذ عن هذا النظام البديع فيشرك بربه.

لمسات بيانية:
تأمل استخدام أل في ﴿الشرك﴾، وهي للجنس، أي أي نوع من أنواع الشرك، كبيرًا كان أو صغيرًا، جليًا أو خفيًا.
وتأمل كلمة ﴿عَظِيمٌ﴾، فهي تشير إلى أن هذا الظلم ليس كأي ظلم، بل هو عظيم في قبحه، وعظيم في عقوبته، وعظيم في أثره.

درس تربوي عملي:
لقمان يعلمنا ألا نلقي بالأوامر والنواهي جافة، بل أن نعللها ونربطها بالمنطق والعقل، خاصة مع الأبناء. عندما تمنع ابنك من شيء، اشرح له لماذا تمنعه. قل له: "أنا أمنعك من الإفراط في الحلويات لأنها تضر أسنانك وصحتك". هذا الأسلوب يبني قناعة داخلية لدى الابن، تجعله يلتزم بالأمر حتى في غيابك، لأنه اقتنع لا لأنه خاف من عقابك فقط.

سادسًا: دور الأب في غرس الثقافة الإسلامية وتكوين الفرد الصالح

من خلال هذه الآية، نستخلص أن الأب هو المؤسسة التربوية الأولى في الإسلام. هو المسؤول الأول عن:

.1غرس عقيدة التوحيد: كما فعل لقمان، بدأ بالأهم فالمهم .العقيدة أولًا.
.2بناء ثقافة الإسلام في نفس الابن: الأب هو الذي يعلم ابنه معنى الشكر، ومعنى الحكمة، وقيمة التواضع .هو الذي يحصن أبناءه ضد لهو الحديث وضد الاستكبار.
.3إعداد الفرد الصالح للحياة الاجتماعية السوية: الابن الذي تربى على ﴿يَا بُنَيَّ﴾ و﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾، سيخرج إلى المجتمع وهو:
· مستقيم العقيدة: لا تهزه الشبهات.
· سليم النفسية: لأن الحب والحنان غمراه في البيت.
· حسن الخلق: لأنه تعلم الأدب والرفق من أبيه.

وإذا ضعف دور الأب أو غاب، حدث الخلل والفراغ الذي تملؤه ثقافة لهو الحديث، وتستغله جيوش الغزو الثقافي والاستخفاف.
سابعًا: المفاهيم المركزية من الآية في حياتنا العملية وبناء ثقافة المسلم

.1التوازن بين الحزم واللين في التربية

· في حياتنا العملية: كن حازمًا في المبادئ) لا تشرك بالله(، لكن كن ليّنًا في الأسلوب) يا بني .(لا تتنازل عن الثوابت، ولكن قدمها في قالب من الحب والرحمة.

.2أولوية العقيدة في بناء الشخصية المسلمة

· في حياتنا العملية: في زمن تتداخل فيه الأفكار، وتكثر فيه الشبهات، حصّن نفسك وأبناءك أولًا بـ التوحيد .اجعل عقيدتك كالجبل الراسي، لا تهزه عواصف الشبهات.

.3ثقافة التعليل والإقناع العقلي

· في حياتنا العملية: سواء كنت أبًا أو معلمًا أو قائدًا، لا تعطِ أوامر دون تفسير .اشرح لماذا نعبد الله وحده، ولماذا الشرك ظلم عظيم .العقول تقتنع فتنقاد القلوب.

.4القدوة قبل الموعظة

· في حياتنا العملية: لا يمكن أن تأمر ابنك بالصلاة وأنت لا تصلي، أو تنهاه عن الكذب وأنت تكذب . كن أنت النموذج الذي تريد أن تراه في أبنائك .ثقافتك تنعكس في سلوكك قبل كلامك.
ثامنًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1خصص وقتًا "لجلسة يا بني" الأسبوعية:
كما جلس لقمان مع ابنه، اجلس مع أبنائك جلسة خاصة أسبوعيًا .لا تكن جلسة توبيخ أو أوامر،

بل جلسة حوار ومحبة .ابدأها بـ: "يا أحبائي، اسمعوا مني نصيحة أب يحبكم" .ثم تحدثوا عن قيم الحياة وأسرارها.
.2علم أبناءك "لماذا نحن مسلمون؟":
لا تكتفِ بأن تقول لهم: "قولوا لا إله إلا الله" .علمهم معناها .علمهم لماذا هي أعظم كلمة، ولماذا من قالها صار له حقوق وعليه واجبات .علمهم أن الشرك ظلم، حتى يكبروا وهم يفهمون دينهم لا يقلدون فيه فقط.
.3كن "قدوة مشهودة" في البيت:
عندما تخطئ أمام أبنائك، اعترف بخطئك واعتذر .عندما تسمع الأذان، بادر إلى الصلاة أمامهم . عندما تأكل، قل "بسم الله" و"الحمد لله" بصوت مسموع .هذه الأفعال الصغيرة تبني فيهم ثقافة الشكر والتوحيد دون كلمة واحدة.
.4في التعامل مع الآخر:
تذكر أن عقيدتك خط أحمر .تعاون مع الناس، أحب لهم الخير، لكن لا تتنازل عن ذرة من توحيدك .لا تشارك في طقوس دينية غير إسلامية، ولا تهنئ بأعياد تخالف عقيدتك .كن واضحًا، لكن بخلق الإسلام الرفيع .هذا هو الانفتاح الواعي.

الخلاصة: رسالة أب إلى كل الأبناء

أيها الأب الكريم، أيتها الأم الحنون، أيها الشاب والشابة،
هذه الآية هي دستور الأسرة المسلمة. إنها تذكرنا بأن التربية ليست مجرد توفير الطعام واللباس، بل هي غرس القيم وتشكيل الوجدان وبناء العقيدة.
لقد قدم لنا لقمان نموذجًا خالدًا في فن التربية: حب + حكمة + وضوح في المبدأ.
ابدأ ببيتك، ابدأ بقلب ابنك، ناده بأحب الأسماء إليه، ثم أودع في قلبه أعظم حقيقة في الوجود: لا إله إلا الله.
فبذلك تبني فردًا صالحًا، وأسرة متماسكة، وأمة عزيزة. هذه هي الثقافة الإسلامية الحقة التي لا تذوب في ثقافات الآخرين، بل تبقى شامخة كالجبال الرواسي، لأنها مؤسسة على التوحيد الخالص لله رب العالمين

المبحث الثالث

أيها البار بوالديه، أيها العاق عن برهما، أيها المتأرجح بين طاعة الله وطاعة البشر،
لقد وقفنا في الآية السابقة على أعظم وصية وأجلها: التوحيد، تلك الكلمة التي قامت عليها السماوات والأرض. سمعنا لقمان يهمس في أذن ابنه بكل حب: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾. فاستقرت العقيدة في القلب، وثبت الأساس الذي لا بناء بدونه.

والآن، وبعد أن ثبت حق الله في قلب ذلك الفتى، يأتي الدور على حق الوالدين. وكأن الوحي يقول لنا: "أترون هذا البناء الإيماني؟ إن أول لبنة توضع فوق أساس التوحيد هي بر الوالدين." إنها الوصية التي يقرنها الله بنفسه في مواضع كثيرة من القرآن، وهنا تأتي على لسان لقمان، لتعلمنا أن الحكمة التي آتاه الله إياها تقتضي هذا الترتيب العجيب: حق الله أولًا، ثم حق الوالدين.

تعال نعيش معًا خشوع هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين ترسمان ميثاق الأسرة المسلمة، وتؤسسان لثقافة البر والوفاء التي تميز حضارتنا عن غيرها:
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 14-15]
أولا ً: الانتقال من وصية لقمان إلى وصية الله المباشرة ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾.. تعظيم شأن الوالدين

تأمل هذا الانتقال القرآني الفريد:
بعد أن قال لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾، يتدخل البيان الإلهي مباشرة دون فاصل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾.
لم يقل: "وقال لقمان لابنه: وبر والديك". بل انتقل الكلام إلى ضمير الجلالة (وَوَصَّيْنَا). لماذا؟
لأن حق الوالدين عظيم لدرجة أن الله يتولى الوصية به بنفسه. إنها ليست مجرد نصيحة عابرة من أب لابنه، بل هي أمر إلهي وفريضة ربانية وثقافة قرآنية أسسها الله في عنان السماء قبل أن تنزل إلى الأرض.

وهنا ملحظ دقيق: لقمان أوصى ابنه بـ التوحيد، والله أوصى الإنسان بـ الوالدين. وكأن الآية تشير إلى أن بر الوالدين هو التطبيق العملي الأول لشكر الله. فمن عرف قدر الله حقًا، عرف قدر والديه.

ومن لم يشكر والديه ويبرهما، فكيف يدعي أنه شاكر لله؟
ثانيًا: دلالة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾.. تشريح معاناة الأم لتحريك الوجدان

انظر إلى روعة الأسلوب القرآني في تحريك المشاعر وبناء الوجدان الأخلاقي:
بعد الأمر الإلهي ببر الوالدين، لم يترك القرآن الأمر مجردًا، بل صور لنا معاناة الأم تصويرًا حيًا يهز القلوب:
﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾

· ﴿وَهْنًا﴾ يعني ضعفًا وتعبًا شديدًا .وتكرارها ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ يفيد تتابع الضعف وتزايده .فهي تحمل جنينها شهرًا بعد شهر، ويزداد ثقله، فيزداد ضعفها وتعبها .غثيان، دوار، ثقل في الظهر، ألم في المفاصل، قلق، خوف ...إنها سلسلة متصلة من المعاناة لا يعرفها إلا من ذاقتها.
﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾
· والفصال هو الفطام .أي أن مدة الحمل) تسعة أشهر غالبًا (ومدة الرضاع حتى الفطام عامان كاملان . في هذين العامين، الأم سجينة حب لوليدها .تقوم الليل لترضعه، تسهر إن مرض، تتعب لراحته، وتعطيه من صحتها ولحمها ودمها دون مقابل.

لماذا هذا التفصيل المؤثر؟
إنه بناء وجداني لثقافة البر. الإسلام يريد أن يربط الواجب الأخلاقي بـ الذاكرة العاطفية. عندما تقرأ هذه الآية وأنت شاب قوي، تتذكر ضعف أمك من أجلك، فتذرف عيناك دمعًا، ويلين قلبك، وتتحرك جوارحك لخدمتها وبرها. هذه هي التربية القرآنية: أن تخاطب العقل، وتصاحب ذلك بلمسات تخاطب الوجدان فتحركه.

رسالة تربوية:
الأبناء اليوم بحاجة إلى أن يُذكروا بتعب آبائهم وأمهاتهم. فهذا السرد القصصي ليس منًا، بل هو تربية قرآنية، لأنه يزرع في قلوبهم عاطفة الامتنان التي تثمر برًا وإحسانًا.
ثالثًا: دلالة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.. سر الاقتران بين شكر الله وشكر الوالدين

وهنا تتجلى ذروة الحكمة في الربط بين شكر الله وشكر الوالدين: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.
لاحظ:

· في مطلع السورة، كانت الحكمة هي: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.
· وهنا، بعد أن ذكر معاناة الوالدين، قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

لماذا هذا الجمع بين الشكرين في أمر واحد؟

.1لأن الوالدين هما سبب وجودك بعد الله .فالله هو الخالق، والوالدان هما السبب المباشر في إيجادك وتربيتك .فشكرهم فرع عن شكر الله.
.2لأن إحسان الوالدين إليك هو صورة مصغرة من إحسان الله إليك .الله يرزقك ويرعاك، ووالداك يسهران على راحتك ويطعمانك ويكسوانك .
.3لأن شكر الوالدين هو تدريب عملي على شكر الله .الابن الذي يتعود على قول "شكرًا" لوالديه، و الخدمة لهم، والاعتراف بفضلهم، يسهل عليه أن يشكر ربه ويعبده.

اللمسة البيانية في التقديم:
قال: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بتقديم شكر الله، لأنه الأصل.
ثم عطف: ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾، وهذا عطف تشريف وتكريم للوالدين، حيث قرن شكرهما بشكره سبحانه.
لكن تأمل الفرق: قال: اشكر لي (باللام)، وقال: ولوالديك (باللام أيضًا)، فالمفعول محذوف. والتقدير: "اشكر لي نعمتي، واشكر لوالديك إحسانهما". هذا الأسلوب يظهر أن كلا الشكرين واجب، لكنهما ليسا في مرتبة واحدة.
رابعًا: بناء ثقافة احترام الوالدين في الإسلام مقابل الثقافة الغربية

وهنا نقف عند محور أساسي في فهمنا للآية: الفرق بين ثقافة الإسلام وثقافة الغرب في التعامل مع الوالدين وكبار السن.

في الثقافة الغربية المعاصرة:

· الفردانية هي القيمة العليا .عندما يكبر الشاب، ينفصل عن أسرته ليعيش "حياته الخاصة" .وعندما

يعجز الوالدان، يكون المصير المحتوم هو دور العجزة .ليس لأن الأبناء أشرار بالضرورة، بل لأن النسق الثقافي لا يلزمهم برعاية آبائهم، بل يرى ذلك عبئًا على "حرية الفرد" و"تطوره المهني".
· النظرة المادية للعلاقات: العلاقة بين الأبناء والآباء تتحول إلى علاقة تعاقدية: "أنا أربيك حتى سن 18، ثم أنت حر وأنا حر." إنها ثقافة الجفاء العاطفي التي تنتج شيخوخة وحيدة واكتئابًا وانتحارًا بين كبار السن.

في ثقافة الإسلام التي تؤسس لها الآية:

· البر عبادة: رعاية الوالدين ليست "خدمة اجتماعية" أو "جميلًا يُرد"، بل هي عبادة يتقرب بها إلى الله، وسبب لدخول الجنة .قال النبي ﷺ: "رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة".
· الأسرة الممتدة: الثقافة الإسلامية تشجع على الأسرة الممتدة التي يعيش فيها الأبناء مع الآباء في تكافل عاطفي ومادي .الأب والأم في كبرهما ليسا "حملًا ثقيلًا"، بل هما بركة البيت، وسبب الرحمة، وفرصة ذهبية للأبناء ليكسبوا رضا الله.
· حق الوالدين لا يسقط بالكبر: في الثقافة الغربية، كلما تقدم الوالدان في السن، قل احترامهم لأنهم أصبحوا "غير منتجين" .أما في الإسلام، فكلما زاد ضعفهما، زاد حقهما في البر والإحسان.

هذا الفرق ليس مجرد اختلاف عادات، بل هو اختلاف جوهري في الفلسفة الثقافية. الثقافة الغربية تنظر إلى الإنسان كـ فرد مستقل، والعلاقات نفعية. أما الإسلام فينظر إلى الإنسان كـ كائن أخلاقي مرتبط بشبكة من الحقوق والواجبات تجاه الله والأسرة والمجتمع. ولهذا جاءت هذه الآيات لتكون حارسًا للضمير الأخلاقي ضد الذوبان في ثقافة الفردانية الجافة.
خامسًا: دلالة ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي... فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.. حدود الطاعة والمرونة في العقيدة

بعد أن غرس القرآن في النفس عاطفة البر والاحترام العميق للوالدين، يأتي الاستثناء العظيم الذي يرسم الحد الفاصل بين طاعة البشر وطاعة الله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

كلمة ﴿جَاهَدَاكَ﴾ توحي بالضغط الشديد والإلحاح، فقد يجتهد الوالدان بكل ما أوتيا من قوة عاطفية ليثنيا ابنهما عن دينه، ويطلبوا منه الشرك بالله. وهنا تقول الآية بوضوح لا لبس فيه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

لماذا هذا الأمر الإلهي القاطع؟
لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. العلاقة مع الوالدين عظيمة، لكن العلاقة مع الله أعظم. حق الوالدين واجب، لكن حق الله أوجب. وهنا تتجلى حكمة الترتيب في السورة: أولًا ثبتت عقيدة التوحيد (لا تشرك بالله)، ثم جاءت وصية الوالدين. فإذا تعارضت الوصيتان، تُقدّم وصية الله بلا تردد.

هذه الآية تبني في المسلم ثقافة الوعي والتمييز. إنها تحميه من الابتزاز العاطفي الذي قد يمارسه الوالدان أو المجتمع لإجباره على ترك دينه أو التنازل عن ثوابته. المسلم بار بوالديه إلى أقصى حد، لكنه لا يملك حق التنازل عن عقيدته لأي أحد كائنًا من كان.
سادسًا: دلالة ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.. روعة التوازن بين رفض الكفر وحفظ الود

وهنا تأتي العبقرية التشريعية الإسلامية في التعامل مع الوالدين الكافرين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

لم يقل: "فاهجرهما" أو "فعاقبهما" أو "فاستخف بهما". بل قال: ﴿صَاحِبْهُمَا﴾.
الصحبة تعني الملازمة والعشرة الطيبة. ومعنى ﴿مَعْرُوفًا﴾ أي بالمعروف الذي تعرفه الفطر السليمة و العقول المستقيمة:

· أن تنفق عليهما إذا احتاجا.
· أن تخفض لهما جناح الذل من الرحمة.
· أن تقول لهما قولًا كريمًا.
· أن تخدمهما في شؤون حياتهما.
· أن تبتسم في وجوههما، وتدعو لهما بالهداية.

هذا هو التوازن العجيب في ثقافة الإسلام:

· في العقيدة: حسم ولا مساومة .﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.
· في المعاملة: رحمة وإحسان .﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

إنها أخلاق الفاتحين لا أخلاق المغلوبين. المسلم قوي بمبادئه، رحيم بخلقه. لا يدفعه تمسكه بالحق إلى العقوق، ولا تدفعه عاطفته نحو والديه إلى التفريط في دينه. هذه هي السيادة الأخلاقية التي تجعله محبوبًا مقبولًا حتى بين مخالفيه.
سابعًا: دلالة ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.. البحث عن القدوة البديلة

ثم يأتي التوجيه الإلهي لمن حُرم قدوة الوالدين الصالحين: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

هذه الآية تعالج مشكلة نفسية عميقة: الابن الذي يكون أبواه كافرين، يشعر أحيانًا ب- التمزق و الضياع. هو يحبهما، لكنهما لا يشاركانه قيمه. من يقتدي بهما؟
الآية تمنحه البديل: ابحث عن القدوة الصالحة في المجتمع. اتبع سبيل الأنبياء والصالحين والدعاة و العلماء. اتبع سبيل من أناب إلى الله، أي رجع إليه بالتوبة والطاعة.
وهذا فيه إشارة إلى أن الأسرة المسلمة الممتدة تشمل الإخوة في الدين، فهم سند لمن فقد سند أسرته الطبيعية. هذا المعنى يعزز التكافل الاجتماعي في الأمة، فيكون المجتمع كله حاضنًا للأفراد الذين يعانون من ضغوط أسرية.
ثامنًا: دلالة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.. الإحالة إلى يوم الفصل

وتختم الآية بإرجاع الأمر كله إلى الله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.
أي أنا الذي أوصيتك بهذا كله، وإليّ المرجع يوم القيامة، وهناك سأجازي كل واحد بعمله. الوالدان على كفرهما، وأنت على إيمانك وبرك. سأخبركم حينها بحقيقة أعمالكم، وسأوفيكم أجوركم بالعدل.

هذه الخاتمة تمنح المؤمن:

· الصبر والثبات: لأنه يعلم أن هناك يومًا يُفصل فيه بينه وبين والديه، وسينال جزاء بره وإن لم يقدّروه في الدنيا.
· الطمأنينة: لأنه يعلم أن الله عادل، وأنه لن يضيع أجر من أحسن عملًا.
تاسعًا: المفاهيم المركزية من الآيتين في حياتنا العملية وبناء ثقافة المسلم

1.ثقافة البر المطلق والإحسان الدائم

· في حياتنا العملية: بر الوالدين ليس مقيدًا بصلاحهما أو إيمانهما .برهما واجب حتى لو كانا كافرين . هذه قيمة إنسانية عليا تتفرد بها ثقافتنا .اجعل خدمة والديك أولوية يومية، ولو بكلمة طيبة أو ابتسامة أو مكالمة هاتفية.

2.التوازن بين الحب والثبات على المبدأ

· في حياتنا العملية: تعلم أن تقول "لا" بلطف عندما يتعلق الأمر بالثوابت .إذا طلب منك والدك أن تشرب خمرًا، أو والدتك أن تخلع حجابك، فقل بكل حب: "أمي، أبي، أنا أحبكما وأطيعكما في كل شيء، لكن هذا الأمر لا أستطيع فعله لأنه يغضب الله" .هذا الأسلوب الحكيم يجمع بين حفظ الدين وحفظ الود.

3.نقد ثقافة الفردانية الغربية

· في حياتنا العملية: لا تنخدع ببريق "الحرية" الغربية التي تجعل الابن يغادر بيت أبيه في سن مبكرة ولا يسأل عنه .افتخر بثقافتك التي تجعل منك سندًا لوالديك في كبرهما .أنفق عليهما، زرهما، اجلس معهما، استمع إليهما .هذا استثمار في رصيدك الأخروي قبل أن يكون واجبًا دنيويًا.

4.البحث عن القدوة الصالحة عند فقدانها في الأسرة

· في حياتنا العملية: إذا كنت تعيش في بيئة أسرية لا تعينك على الطاعة، فابحث عن الصحبة الصالحة التي تعوضك هذا النقص .ارتبط بشيخ أو عالم أو صديق صالح، واتبع سبيله .هذا هو التطبيق العملي ل- ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.
عاشرًا: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا اليومي؟

.1برنامج "شكر الوالدين" اليومي:
اجعل لك وردًا يوميًا من شكر الوالدين .قل لهما: "شكرًا" على كل شيء .قبّل رأسيهما .أمسك بيدهما .هذه الأفعال الصغيرة هي ترجمة عملية لـ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.
.2مبادرة "خدمة الوالدين قبل أن تطلب":
لا تنتظر أن يطلب منك والدك أو والدتك شيئًا .بادر أنت .أحضر لهما الدواء قبل أن يذكراه .جهز لهما الطعام قبل أن يجوعا .هذه المبادرات تملأ قلبيهما فرحًا، وترفع درجتك عند الله.
.3تمرين "الصحبة بالمعروف" مع الوالدين العصاة:
إن كان أبواك بعيدين عن الله، فلا تقاطعهما .بل صاحبهما بالمعروف .ادعهما إلى الخير برفق .كن قدوة لهما في أخلاقك .ربما كان حسن خلقك هو سبب هدايتهما.
.4الحفاظ على التوازن في المواقف الصعبة:
إذا وقعت في موقف يطلب منك والداك فيه معصية، تدرب على قول "لا" بطريقة راقية .لا تغضب، لا ترفع صوتك، لا تعبس في وجههما .قل بكل هدوء ومحبة: "والله يا أمي إني أخاف الله، وهذا لا يجوز" .هذه اللحظة الحرجة قد تكون سببًا في احترامهما لك ولدينك.

الخلاصة: الأسرة المسلمة.. حصن الثقافة ومنبع الرحمة

أيها القارئ الكريم،
لقد رسمت لنا هاتان الآيتان ميثاق الأسرة المسلمة في أروع صورة. إنها أسرة تقوم على:

- التوحيد أساسًا.
- والبر جدارًا.
- والشكر سقفًا.
- والصحبة بالمعروف زينة.

في زمن تتفكك فيه الأسر، وتضيع فيه حقوق الكبار، تبقى ثقافتنا الإسلامية منارة للعالمين. إنها الثقافة التي تجعل من عقوق الوالدين جريمة أخلاقية كبرى، ومن برهما طريقًا إلى جنات النعيم.
تذكر دائمًا وأنت تتعامل مع والديك: أنت لا تتعامل مع بشر فقط، بل تتعامل مع أمر الله ووصيته. أنت لا تبرهما لأنهما يستحقان فقط (وهما يستحقان)، بل لأن الله أمرك بذلك، وجعل برهما عبادة وقربة إليه.

فكن بارًا بوالديك، محسنًا إليهما، شاكرًا لهما، وثابتًا على دينك. بذلك تكون قد حققت معادلة الحكمة التي أقام لقمان حياته عليها، وتكون قد كتبت اسمك في سجل المحسنين المفلحين.
المبحث الثالث
أيها العبد الذي يراقبه الله في خلوته، أيها الإنسان الذي تظن أن أفعالك الصغيرة تختفي في زحام هذا الكون الواسع، أيها المربي الذي يبحث عن غرس أعظم قيمة في نفوس الناشئة،
لقد رافقنا لقمان الحكيم وهو يبني في ابنه صرح الإيمان لبنة لبنة. بدأ بالتوحيد، أعظم لبنة وأساسها: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾. ثم ثنّى ببحق الوالدين وبرهما، تلك اللبنة التي تصل العبد بالمجتمع: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾. وبعد أن أسس العلاقة مع الله والعلاقة مع الوالدين، يأتي الدور على لبنة خفية، لكنها أشد ما تكون أثرًا في تشكيل الشخصية وبنائها. إنها لبنة الرقابة الذاتية، لبنة الإحسان الذي افتتحت به السورة، لبنة اليقين بأن الله يراك.

تعال معي نعيش هذه الآية العظيمة، وكأن لقمان يجلس مع ابنه في ليلة هادئة، والنجوم تلمع في السماء، فيهمس في أذنه بهذه الكلمات التي تجعل القلب يرتجف خشية وطمأنينة معًا:
﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16]

أولا ً: دلالة ﴿يَا بُنَيَّ﴾.. استمرار منهج التربية بالحب والحنان

عدنا مرة أخرى إلى ذلك النداء الحبيب: ﴿يَا بُنَيَّ﴾.
لاحظ أن وصايا لقمان كلها تبدأ بهذا النداء الرقيق. إنها الخيط الناظم الذي يربط كل الوصايا ببعضها.
لماذا هذا التكرار؟
لأن التربية ليست محاضرة واحدة يلقيها الأب ثم ينصرف. التربية هي سلسلة من المواقف التربوية المتتابعة، كل موقف يحتاج إلى تهيئة نفسية، وإلى استجلاب انتباه الابن، وإلى إشعاره بالحب والأمان.

في كل مرة يقول: ﴿يَا بُنَيَّ﴾، فإنه يعيد شحن الرصيد العاطفي بينه وبين ابنه. إنه يقول له بلسان الحال: "يا حبيبي، ما زلت معك، ما زلت أحبك، وما زلت حريصًا عليك، فاسمع مني هذه الحكمة الجديدة."

درس تربوي عملي:
عندما تربي أبناءك، لا تكتفِ بجلسة وعظ واحدة في الشهر. اجعل التربية حوارًا يوميًا مستمرًا. وكلما أردت أن تقدم لهم قيمة جديدة، افتتح كلامك بكلمة حب: "يا حبيبي..."، "يا بنيتي..."، "يا نور عيني...". هذا التكرار ليس لغوًا، بل هو وقود العاطفة الذي يشغل محرك التربية.
ثانيًا: دلالة ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾.. دقة التصوير في مخاطبة الوجدان

والآن تأمل معي هذه الجملة التي تزلزل الوجدان: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾.

الضمير ﴿إِنَّهَا﴾ يعود إلى الحسنة أو السيئة، إلى العمل أو الفعلة التي قد يفعلها الإنسان. وكأن لقمان يقول: "يا بني، اعلم أن أي عمل تعمله، مهما كان صغيرًا في عينك، فإن الله سيحاسبك عليه."

ثم يأتي التشبيه العجيب: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾.
ما هي حبة الخردل؟ إنها حبة صغيرة جدًا، لا تكاد ترى بالعين المجردة، وزنها لا يكاد يذكر في الموازين العادية. العرب تضرب المثل بحبة الخردل في الصغر والضآلة.
لقد أراد لقمان أن يصل إلى أقصى درجات التحقير للشيء، ليقول لابنه: "لا تستصغرن شيئًا من الخير أو الشر. فما تراه أنت تافهًا حقيرًا، هو عند الله عظيم، وسيحاسبك عليه."

لمسات بيانية وبلاغية:

· استخدام ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، فالأمر خطير ويحتاج إلى ترسيخ في الذهن.
· استخدام فعل الشرط ﴿إِن تَكُ﴾: وهو فعل ناقص) كان (مجزوم، وحذفت نونه للتخفيف .هذا الأ سلوب الشرطي يجعل الذهن في حالة ترقب وانتظار للجواب: ماذا سيحدث لو كانت بهذا الصغر؟
ثالثًا: دلالة ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾.. شمول العلم الإلهي لكل ما خفي وبطن

بعد أن صور لنا ضآلة العمل، ينتقل إلى تصوير خفاء مكانه، ليكتمل مشهد الإحاطة الإلهية: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾.

انظر إلى هذا التدرج في إخفاء الشيء:

.1﴿فِي صَخْرَةٍ﴾: الصخرة هي الحجر الصلب الأملس .تخيل حبة خردل مدسوسة في جوف صخرة صماء، لا منفذ إليها، ولا عين ترى ما في داخلها .هذا هو الإخفاق المادي الأقصى في الأرض.
.2﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾: وهنا ينتقل إلى الأبعاد الكونية .السماوات السبع، في أبعادها الهائلة ومجراتها البعيدة، حيث تضيع الشمس والقمر، فضلًا عن حبة خردل.
.3﴿أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾: وهنا يعمم بعد أن خصص .بعد أن ذكر الصخرة، وهي جزء من الأرض، يذكر الأ رض كلها بما فيها من براري وبحار وقيعان محيطات مظلمة.

ما الغرض من هذا التنوع في الأمكنة؟
الغرض هو تحطيم أي وهم بالاختفاء عن عين الله. الإنسان قد يقول في نفسه: "سأفعل هذا الأمر في غرفتي المغلقة، حيث لا يراني أحد." فيأتيه الرد: ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾. قد يقول: "لا أحد يعلم ما في قلبي." فيأتيه الرد: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾. قد يقول: "هذا شيء ضاع في زحام الحياة." فيأتيه الرد: ﴿أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾.
لا يوجد مكان في هذا الكون كله يمكن أن يخفى على الله. هذه الآية هي التطبيق العملي لصفة الإ حسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك."
رابعًا: دلالة ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾.. الحتمية الإلهية والسهولة المطلقة

وهنا يأتي جواب الشرط الذي يجعل القلب يرتجف: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾.

لم يقل: "يعلمها الله" فقط، بل قال: ﴿يَأْتِ بِهَا﴾.
الإتيان بالشيء يعني إحضاره وجلبه. وفي هذا إشارة إلى أن الله لن يحاسبك على علمه بها فحسب، بل سيحضرها يوم القيامة عيانًا بيانًا، ويراها الناس، وتكون شاهدة عليك أو لك.

· الحسنة التي فعلتها في الخفاء، ونسيتها أنت، سيأتي بها الله ويضعها في ميزانك، فتفرح بها فرحًا عظيمًا.
· والسيئة التي أخطأتها في ظلمة الليل، وظننت أنها ذهبت مع الريح، سيأتي بها الله ويجعلها نصب عينيك، فتندم عليها ندمًا لا ينفع.

اللمسة البلاغية في بناء الجملة:
تأمل كيف أن الله ختم الآية باسم الجلالة: ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾. لفظ الجلالة هو مركز الثقل في الجملة. إنه الذي يملك القدرة على الإتيان بها. هذا الأسلوب يزرع في النفس الهيبة والخوف، وفي نفس الوقت الطمأنينة والثقة بأن العدالة الإلهية مطلقة، لا يضيع عندها شيء.
خامسًا: دلالة ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.. التعليل الإلهي بقدرة اللطف والخبرة

وتختم الآية بهذين الاسمين الجليلين اللذين يمثلان الضمانة الكاملة للإحاطة بكل شيء: ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

.1﴿لَطِيفٌ﴾:
اللطيف في اللغة من اللطف، وهو الرفق والدقة .والله لطيف بعباده، يوصل إليهم الخير بلطفه . ولكن المقصود هنا أيضًا معنى آخر: اللطف بمعنى دقة الوصول إلى الشيء الخفي .إنه سبحانه لطيف، أي أن علمه ينفذ إلى بواطن الأمور، وإلى ما تحت الصخر، وما في قيعان البحار، وما في السماوات . لا يحجبه كثيف، ولا يفوته شيء لصغره.
تأمل: نحن البشر، لنعرف ما في داخل صخرة، نحتاج إلى آلات ضخمة وأشعة .أما الله فلطيف، علمه يصل إلى هناك دون عناء.
.2﴿خَبِيرٌ﴾:
الخبير هو العالم ببواطن الأمور وخوافيها .الله خبير بكل شيء، ليس فقط بوجوده، بل بكيفيته وتفاصيله .هو خبير بحبة الخردل، أين هي، وكيف هي، ومن فعلها، وبأي نية كانت.

الجمع بين ﴿لَطِيفٌ﴾ و﴿خَبِيرٌ﴾ يعطي معنى الكمال في العلم والقدرة:

· باللطف: يصل العلم إلى المكان.
· بالخبرة: يحيط العلم بكنه الشيء.

سادسًا: أمثلة واقعية معاصرة.. كيف نعيش هذه الآية في تفاصيل حياتنا؟

والآن، دعنا ننزل بهذه المعاني السماوية إلى أرض الواقع، ونرى كيف تخاطب هذه الآية حياتنا اليومية:

المثال الأول: الموظف الذي يعمل عن بُعد (في زمن التحول الرقمي)

تخيل موظفًا يعمل من منزله عبر الإنترنت. مديره لا يراه. زملاؤه لا يراقبونه. يستطيع أن يسجل دخوله إلى النظام ثم ينام ساعتين، ويستطيع أن ينجز عمله في ساعة ثم يضيع بقية اليوم في "لهو الحديث". من سيراقبه؟ من سيحاسبه؟
هنا تتدخل الآية: ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾. تلك الدقائق التي ضاعت في غير حق، وتلك الخيانة الصغيرة للوظيفة، هي مثقال حبة خردل في صخرة حياته اليومية. لكنها مسجلة عند اللطيف الخبير. هذا الموظف إن استشعر هذه الآية، سيؤدي عمله بإتقان، لأن مديره الحقيقي هو الله، لا المدير البشري الذي يغفل.

المثال الثاني: النية الخفية في عمل الخير

رجل غني يتصدق بمال كثير. يمكنه أن يعلن عنها ليحمد الناس كرمه. لكنه يقرأ: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾. فيقرر أن يجعل صدقته في صخرة الخفاء. يمد يده في ظلمة الليل، ويضع المال في يد فقير دون أن يعلم شماله ما أنفقت يمينه. يظن أن هذا العمل ضاع، لا أحد يعرفه. فإذا به يوم القيامة يجد هذا العمل يأتي به الله جبلًا من الحسنات. هذه الآية تصنع جيشًا من المحسنين الخفيين الذين يبنون المجتمع بصمت.

المثال الثالث: الذنب المستتر في غرف النوم المظلمة

شاب يجلس وحده في غرفته، وقد أغلق الباب بإحكام. أمامه شاشة هاتفه، يقلب في مواقع محرمة،

أو يغتاب صديقه في محادثة خاصة. لا أحد يعلم. لكن الآية تقول له: أنت لست وحدك! هذه النظرة المحرمة، هذه الكلمة الجارحة، هي حبة خردل في صخرة جدار غرفتك. لكن اللطيف الخبير يراها. هذا الاستشعار هو الرادع الداخلي الذي يصنع الإنسان التقي النقي، الذي يكون في خلوته كما هو في جلوته.

المثال الرابع: الطالب الذي يغش في الامتحان

طالب في قاعة امتحان، والمراقب مشغول. يخرج قصاصة صغيرة مكتوب عليها إجابة سؤال. حجم القصاصة صغير، وفعله خفي عن أعين البشر. لكنه في ميزان هذه الآية: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ في ﴿صَخْرَةٍ﴾ قاعة الامتحان. سيكبر هذا الفعل يوم القيامة ويأت به الله. هذه التربية القرآنية تربي الطالب على الأمانة العلمية حتى لو كانت النتيجة رسوبًا في الدنيا، فهي نجاح في الآخرة.
سابعًا: الرسائل التربوية والنفسية والعقلية للآية

1.الرسالة التربوية: غرس الرقابة الذاتية

· أعظم ثمرة لهذه الآية هي بناء الضمير الحي .المجتمع الذي يقرأ هذه الآية ويعيشها، لا يحتاج إلى أجهزة رقابة وأمن .كل فرد هو رقيب على نفسه .هذه هي ثقافة الإحسان التي تجعل المسلم منضبطًا في كل أحواله.

2.الرسالة النفسية: الطمأنينة والعدالة

· كثير من الناس يصابون بالإحباط لأنهم يرون الخير الذي يفعلونه لا يُقدّر، والشر الذي يفعله غيرهم لا يُعاقب .الآية تمنحهم طمأنينة نفسية عظيمة: لا تحزن، كل شيء محفوظ، سيأتي به الله .هذه الثقة بالعدالة الإلهية تمنع القلق والاكتئاب، وتجعل الإنسان يعمل وهو مطمئن أن أجره لن يضيع.

3.الرسالة العقلية: مكافحة الاستخفاف بالأعمال الصغيرة

· العقل البشري بطبيعته يستصغر الأمور .لكن الآية تعيد برمجة العقل ليرى أن لا شيء صغيرًا في ميزان الله .هذا المفهوم يدفع الإنسان إلى:
· فعل الخير مهما قل: ابتسامة، كلمة طيبة، إماطة أذى.
· ترك الشر مهما صغر: كلمة سوء، نظرة خائنة، غش يسير.
· هذه هي ثقافة الجدية التي تعمر الأرض ولا تخربها.

ثامنًا: المفاهيم المركزية من الآية في حياتنا العملية وبناء ثقافة المسلم

1.ثقافة الإتقان والإحسان

· في حياتنا العملية: أتقن عملك مهما كان صغيرًا .أنت لا تعمل لمديرك فقط، بل لـ اللطيف الخبير . النجار الذي يصنع بابًا، والطبيب الذي يشخص مرضًا، والفلاح الذي يزرع حبة، كلهم يوقنون أن حبة الخردل من عملهم ستأتي بها الله.

2.ثقافة الحذر من الذنوب الخفية

· في حياتنا العملية: احذر الذنوب التي ترتكبها في الخفاء بحجة أن لا أحد يراك .نظرة، كلمة، لمسة، غش، خيانة .كلها حبات خردل تتراكم، وسيأتي بها الله يوم لا ينفع فيه ندم .هذه الثقافة تبني مجتمعًا نقيًا من الداخل.

3.ثقافة الصبر والثقة بوعد الله

· في حياتنا العملية: إذا فعلت خيرًا فلم تجد جزاءه في الدنيا، فاصبر .ثق أن عملك لم يضع، بل هو محفوظ في صخرة، أو في السماء، وسيأتي به الله في أحوج ما تكون إليه، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

تاسعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟ (دليل عملي)

1.تدريب "استحضار اللطيف الخبير" قبل كل عمل:

قبل أن تبدأ أي عمل) صلاتك، دراستك، وظيفتك، حديثك مع الناس(، توقف لثوان، وقل بقلبك: "
اللهم إني أستحضر أنك لطيف خبير، ترى مثقال حبة الخردل من عملي، فأعنّي على إتقانه وإخلاصه."
هذا التمرين البسيط يحول كل أعمالك اليومية إلى عبادات متقنة.
.2الاحتفاظ بـ "مفكرة الحسنات الخفية":
خذ دفترًا صغيرًا، واكتب فيه الحسنات الخفية التي فعلتها كل يوم: دعوة بظهر الغيب لأخيك، صدقة سرية، كف أذى عن الطريق، كتمان غيبة .هذه المفكرة تذكرك بأن عملك ليس عبثًا، بل هو رصيد في بنك السماء، وسيأتي به الله.
.3ممارسة "الخوف من صغائر الذنوب":
عندما تسول لك نفسك معصية صغيرة، استحضر صورة حبة الخردل في الصخرة .قل لنفسك: "هذا الشيء الصغير سيأتي به الله، وسأراه يوم القيامة، فهل يسرني أن أراه؟" هذا الاستحضار درع واق من الذنوب.
.4تعليم الأطفال ثقافة "الله يراني":
لا تكتفِ بأن تقول للطفل: "لا تفعل هذا لأن فلانًا يراك" .قل له: "لا تفعل هذا لأن الله يراك، الله لطيف خبير، يرى حتى النملة الصغيرة في جحرها." هذا يبني في الطفل أساس الرقابة الذاتية منذ الصغر، فينشأ وقد استقام خلقه من الداخل لا من الخوف من الخارج.

الخلاصة: العين التي لا تنام

أيها القارئ النبيل،
لقد كشف لنا لقمان الحكيم في هذه الآية عن سر عظيم من أسرار بناء الإنسان. إنه سر اليقين بعلم الله والمراقبة الدائمة.
هذه الآية هي ترياق لأمراض النفاق والرياء، ودواء لأوجاع الإحباط واليأس. إنها تجعلك تعيش في هذه الدنيا وأنت حر من قيود الخلق، وعبد لله وحده. لا تخشى أحدًا إلا الله، ولا ترجو ثوابًا إلا من الله.
تذكر دائمًا، في كل لحظة من لحظات حياتك: أنت في مرمى بصر اللطيف الخبير. فاجعل أعمالك كلها حبات خردل من الخير، مخبأة في صخور الإخلاص، ليوم يأتي بها الله، فتنقلب بإذنه إلى جبال من النعيم المقيم. هذه هي الحكمة التي تثمر الإحسان، والإحسان الذي يجعلك من المفلحين
المبحث الرابع
أيها المسلم الذي تبحث عن منهج الحياة الكاملة، أيها الشاب الذي تسأل عن الطريق المستقيم، أيها الداعية الذي تريد أن تغير العالم من حولك،
لقد وصلنا في رحلتنا مع لقمان الحكيم إلى لحظة فارقة. بعد أن غرس في قلب ابنه بذرة الإيمان و المراقبة واليقين بعلم الله، حان وقت الحركة والعمل. لم يعد الأمر مجرد مشاعر قلبية أو أفكار عقلية، بل حان وقت ترجمة هذه المعاني إلى سلوك يومي، وإلى مهمة حضارية يحملها هذا الفتى ليكون عنصرًا فاعلًا في أمته.

في الآية السابقة، تعلم الابن أن الله لطيف خبير، يرى مثقال حبة الخردل في الصخرة. هذا اليقين الراسخ هو الوقود الذي سيدفعه لتنفيذ الأوامر الأربعة العظيمة في هذه الآية. وكأن لقمان يقول لابنه: "يا بني، ما دمت قد أيقنت أن الله يراك، فقم بواجبك تجاه نفسك وتجاه الناس، واصبر على تبعات هذا الطريق."

تعالوا نعش معًا هذه الوصية الجامعة التي تصلح أن تكون دستور حياة لكل مسلم:
﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]

أولا ً: دلالة ﴿يَا بُنَيَّ﴾ المتكررة.. دفء الأبوة في كل موعظة

ها هو النداء الحبيب يعود للمرة الثالثة (أو الرابعة): ﴿يَا بُنَيَّ﴾.
لاحظ معي أن لقمان يكرر هذا النداء قبل كل وصية محورية. لم يقلها مرة واحدة ثم سرد كل الوصايا دفعة واحدة. لماذا؟
لأنه يريد أن يستأثر باهتمام ابنه كاملًا لكل وصية على حدة. كل وصية هنا هي عالم قائم بذاته، تحتاج إلى تهيئة نفسية خاصة. وعندما ينادي الأب ابنه بهذا اللفظ الحنون، فإنه:

· يذيب أي حواجز نفسية: فالابن يشعر أنه ليس في مجلس توبيخ أو أوامر عسكرية، بل في حضن أبوي دافئ.
· يهيئ القلب للتلقي: النداء بـ "يا بني" يجعل القلب مقبلًا، مستعدًا لاستقبال الحكمة، لأنه يشعر أن

مصدرها هو الحب لا السلطة فقط.

درس تربوي عملي:
كم من أب يريد أن يربي ابنه، فيبدأ مباشرة بالأمر والنهي: "صلّ... لا تكذب... ذاكر دروسك..." دون أي تمهيد عاطفي! النتيجة غالبًا هي النفور أو التنفيذ الشكلي. أما لقمان فيعلمنا أن تمهيد العاطفة قبل طرح المهمة هو مفتاح القبول والتأثير. جرب أن تبدأ أي نصيحة لابنك بكلمة حب، وسترى الفرق في عينيه.

ثانيًا: دلالة ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.. تأسيس العلاقة بالله قبل إصلاح الناس

بعد التمهيد العاطفي، تأتي الوصية الأولى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.

تأمل معي لماذا بدأ لقمان بالصلاة قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟
السر هنا عظيم: لا يمكن أن تصلح غيرك قبل أن تصلح نفسك. ولا يمكن أن تصلح نفسك قبل أن تصل علاقتك بالله.
الصلاة هي صلة العبد بربه. هي محطة الشحن اليومية للروح. هي التي تمد المسلم بالطاقة الإيمانية والنفسية ليقوم بالمهام الصعبة التي تليها (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى). فمن أراد أن يأمر بالمعروف، يحتاج إلى رصيد إيماني من الصلاة. ومن أراد أن ينهى عن المنكر، يحتاج إلى قوة روحية من الصلاة. ومن أراد أن يصبر على ما يصيبه، فلن يجد ملاذًا وسندًا مثل الصلاة.

ولم يقل: "صلِّ" فقط، بل قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.
والإقامة تعني الأداء الكامل بشروطه وأركانه وخشوعه. إنها تعني أن تجعل الصلاة عمودًا تقوم عليه حياتك، وليس مجرد حركة تؤديها في وقتها. إقامة الصلاة تعني:

· إقامتها في وقتها دون تأخير.
· إقامتها في خشوعها دون عجلة.
· إقامتها في أثرها، بأن تنهاك عن الفحشاء والمنكر.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:
شاب يريد أن يكون داعية، أو حتى ناصحًا لصديقه. لكنه في نفس الوقت مفرط في صلاته، يؤخرها أو يؤديها بسرعة دون خشوع. هذا الشاب سيكون فريسة سهلة للانهزام. أول موقف يسخر فيه منه صديقه، سينهار ويترك النصيحة. لماذا؟ لأنه لم يشحن روحه في محطة الصلاة. أما الشاب الذي أقام الصلاة حقًا، فهو كالجبل، لا تهزه سخريتهم، لأنه يستمد قوته من ربه خمس مرات في اليوم.
ثالثًا: دلالة ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.. الإيجابية في نشر الخير

بعد أن شحن ابنه بطاقة الصلاة، ينتقل به إلى المهمة الاجتماعية: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

المعروف في اللغة: كل ما عرفته الشريعة والعقول السليمة بأنه خير وحق وجمال.
والأمر بالمعروف هو دعوة الناس إليه. وهنا نلاحظ أن لقمان يربي ابنه على الإيجابية والفاعلية. إنه لا يريده أن يكون متديئًا سلبيًا، يؤدي عباداته في زاويته الخاصة ولا يهتم بما يدور حوله. إنه يريده عنصر إصلاح في المجتمع.
الأمر بالمعروف هو المحرك الأساسي لنهضة الأمة. فإذا توقف الناس عن الأمر بالمعروف، عمّ الفساد وسكت الصالحون، فحلت اللعنة والعقاب.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· في العمل: ترى زميلك يغش في تقاريره، أو يتكاسل في أداء واجبه .هل تتركه بحجة "دي مش شغلتي"؟ أم تأمره بالمعروف) بإتقان العمل (بلطف؟
· في الأسرة: ترى أختك تتساهل في حجابها، أو أخاك يقطع صلة رحمه .هل تلتزم الصمت؟ أم تأمر بـ المعروف بالحكمة والموعظة الحسنة؟
· في الشارع: ترى جارًا يؤذي المارة بسيارته، أو يلقي القمامة في غير مكانها .هل تمر مر الكرام؟ أم تذكره بلطف؟

لقمان يعلم ابنه أن المسلم مسؤول عما يرى. لا يملك أن يقول: "وما عليّ إلا نفسي" فقط، بل عليه أن يحاول الإصلاح بكل حكمة.

رابعًا: دلالة ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.. المهمة الأصعب والشجاعة الأدبية

ثم تليها المهمة المكملة: ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

المنكر هو كل ما أنكرته الشريعة والعقول السليمة من شر وقبح وفساد. والنهي عن المنكر هو واجب وقائي، وهو غالبًا أشق على النفس من الأمر بالمعروف. لماذا؟

· لأن الأمر بالمعروف فيه بناء، والناس تحب من يبني .أما النهي عن المنكر ففيه هدم للباطل وصد للشهوات، والناس قد تنفر ممن يصدها عما تحب.
· لأن الناهي عن المنكر يحتاج إلى شجاعة أدبية أكبر، فهو يتعرض لخطر المواجهة المباشرة مع أهل الباطل.

ومع ذلك، يوجب لقمان على ابنه أن ينهى عن المنكر. لماذا؟ لأن السكوت على المنكر هو مشاركة سلبية فيه. المجتمع الذي يترك المنكر ينتشر دون رادع، كالسفينة التي يثقبها بعض ركابها، فإن لم يمنعهم الباقون غرقوا جميعًا.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· في الجامعة: ترى مجموعة من الطلاب يغشون في الامتحان علانية .هل تقول: "أنا ماليش دعوة"؟ أم تنهاهم، أو تبلغ عنهم بالطرق الصحيحة؟ سكوتك يجعل الفساد يستشري، وقد يأتي يوم يغش فيه الجميع فلا تجد طبيبًا ماهرًا أو مهندسًا أمينًا.
· في وسائل التواصل الاجتماعي: ترى منشورًا مليئًا بالكذب أو الإشاعات أو الاستهزاء بالدين .هل تكتفي بالاستياء في قلبك؟ أم تنهى عن هذا المنكر بكلمة حق، أو على الأقل تمنع انتشاره بعدم مشاركته؟
· في مجلس عائلي: يغتاب أحد الحاضرين شخصًا غائبًا .هل تخوض معهم في أعراض الناس؟ أم تنهى عن المنكر برفق: "يا جماعة، ده حرام، خلينا نتكلم في حاجة تنفعنا"؟ هذه الشجاعة الأدبية هي ثمرة تربية لقمان.

خامسًا: دلالة ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾.. الدرع الواقي للمصلح

بعد أن أمره بالمهمات الثلاث الشاقة (الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر)، يختتم له لقمان وصيته بـ السلاح الذي لا بد منه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾.

كأنه يقول له: "يا بني، أنت الآن ستخرج إلى المجتمع، وستأمر وتنهى. والنتيجة الحتمية أنك ستصاب بالأذى. سيصفك الناس بالمتشدد، المتخلف، المتدخل فيما لا يعنيه. قد تسخر منك الألسنة، وقد تنالك الأيدي، وقد تخسر بعض المصالح. فإن لم تتحلّ بالصبر، فستفشل وتتراجع."

الصبر هنا ليس مجرد تحمل سلبي، بل هو ثبات إيجابي على المبدأ رغم المكاره. إنه الوقود الذي يحافظ على شعلة الإصلاح متقدة. فمن يخرج إلى الناس دون صبر، كمن يخرج إلى معركة دون درع.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· موظف في شركة: ينصح مديره بعدم الغش في منتج معين .المدير يغضب ويعامله بقسوة، أو يهدده بفصل من العمل .هنا يظهر دور الصبر .إما أن يستسلم ويقول: "خلاص مش هتكلم تاني عشان عيشتي"، أو يصبر ويحتسب الأجر عند الله، ويستمر في النصح بالحكمة دون يأس.
· فتاة محجبة في بيئة غير ملتزمة: تلتزم بحجابها وأخلاقها، فيسخر منها زميلاتها، وقد تتعرض للتنمر .تحتاج هنا إلى صبر عظيم، صبر يجعلها متمسكة بقيمها، مع الاستمرار في معاملة المسيئات بالإحسان، على أمل أن يغير الله قلوبهن.
· داعية على الإنترنت: ينشر محتوى هادفًا، فيأتيه وابل من التعليقات الساخرة والمستهجنة .إن لم يصبر، سيغلق صفحته وينسحب .أما إن صبر، فسيستمر في زرع الخير، ولو بعد حين سيظهر الزرع ويؤتي أكله.
سادسًا: دلالة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.. وسام شرف للمجتهدين

وتأتي الخاتمة وكأنها وسام شرف يعلقه لقمان على صدر ابنه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

· ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى كل ما سبق من الوصايا الأربع) إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر،

الصبر.(
· ﴿عَزْمِ الأُمُورِ﴾: العزم هو الجد والثبات والقوة في الأمر .وأمور جمع أمر، وهي هنا الأمور العظيمة الشأن.

ومعنى الآية: "إن هذه الوصايا الأربع ليست من الأمور السهلة الهينة، بل هي من الأمور العظيمة التي تحتاج إلى قوة إرادة وعزيمة صادقة، والتي لا يوفق إليها إلا أولو العزم من الناس."

هذه الخاتمة تمنح المؤمن عدة رسائل نفسية:

.1رفع الهمة: لا تستصغر نفسك، أنت تقوم بأمر عظيم، فلا تهن.
.2تقدير الذات: اعرف قدر المهمة التي تحملها، فأنت لست إنسانًا عاديًا، بل أنت صاحب عزم.
.3الاستعداد النفسي: هذه المهام شاقة، فلا تتوقع أن تمشي فيها على ريش النعام .جهز نفسك للصعاب.

سابعًا: الرسائل والتوجيهات العملية من الآية في حياتنا

بعد هذا التحليل التفصيلي، دعنا نستخلص الدروس والرسائل التي نعيش بها هذه الآية في واقعنا اليومي:

.1الرسالة التربوية: التدرج في التكليف وربطه بالغاية

· لقمان لم يبدأ ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مباشرة .بل بدأ بتأسيس العلاقة بالله) الصلا ة .(هذا يعلمنا أن التربية الناجحة تبدأ من الداخل ثم تنطلق إلى الخارج .ربِّ ابنك على حب الله و الصلاة أولًا، ثم بعد أن يشتد عوده الإيماني، كلفه بالإصلاح .لا تعكس الآية فتنهار شخصيته.

.2الرسالة الدينية: الصلاة هي محور الحياة العملية

· لا تفصل بين العبادة والعمل .صلاتك هي التي تؤهلك للنجاح في عملك وإصلاحك .إذا شعرت أنك ضعفت عن الأمر بالمعروف أو الصبر، فراجع صلاتك أولًا .فالخلل في الفروع ينبع من الخلل في الأ صول.

.3الرسالة النفسية: الصبر هو جناح المصلح

· الإحباط هو أكبر عدو للمصلح .هذه الآية تعلمك أن الأذى متوقع وطبيعي .فلا تنكسر عندما يأتيك . الصبر ليس خيارًا، بل هو ضرورة وواجب وسلاح .توقع الأذى يخفف وقعه، والصبر عليه يجعلك تنتصر في النهاية.

.4الرسالة العملية: الإيجابية في المجتمع

· المسلم فاعل وليس منفعلًا .لا تكن من الذين يشكون من فساد المجتمع وهم جالسون في بيوتهم . اخرج، وشارك، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، كلٌ حسب مقدرته ومجاله .أنت شريك في بناء الحضارة أو هدمها، لا مكان للحياد.

.5الرسالة الاجتماعية: ثقافة النصح المتبادل

· هذه الآية تبني مجتمع النصيحة .مجتمع يأمر أفراده بعضهم بعضًا بالمعروف وينهون عن المنكر .هذا المجتمع محصن ضد الانهيار، لأنه يقوم على المسؤولية الجماعية .لا تنتظر من "جهة رسمية" أن تصلح كل شيء، بل كن أنت جنديًا من جنود الإصلاح.

ثامنًا: المفاهيم المركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة التوازن بين العبادة والمسؤولية الاجتماعية

· المسلم ليس راهبًا في محرابه .إقامة الصلاة تمنحه الطاقة ليخرج إلى الناس، يأمر وينهى ويصبر . هذه هي ثقافة التوازن التي تميز حضارتنا.

.2ثقافة الشجاعة الأدبية

· النهي عن المنكر خاصة يحتاج إلى شجاعة .والآية تغرس هذه الثقافة .لا تخف من قول كلمة الحق . تدرب على الشجاعة في المواقف الصغيرة) نصح صديق، كلمة حق في مجلس(، لتصبح قادرًا على الشجاعة في المواقف الكبيرة.

.3ثقافة الصبر الاستراتيجي

· الصبر ليس استسلامًا .إنه استراتيجية لتحقيق الأهداف بعيدة المدى .المجتمع لا يتغير في يوم وليلة .الصبر هو الذي يجعلك تستمر في الإصلاح حتى ترى الثمرة، ولو بعد حين.

تاسعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟ (دليل عملي)

.1اجعل الصلاة "رادار حياتك":
نظم يومك كله حول الصلوات الخمس .اجعلها محطات توقف لشحن الروح ومراجعة النوايا .قبل كل صلاة، فكر في مهمتك لهذا اليوم: كيف ستأمر بمعروف؟ كيف ستنهى عن منكر؟ كيف ستتعامل مع الأذى المتوقع؟
.2خصص "خمس دقائق للإصلاح" كل يوم:
لا تحتاج أن تكون خطيبًا مفوهًا .فقط خمس دقائق من الإصلاح اليومي: نصيحة لطيفة لصديق، مشاركة منشور هادف، كلمة حق في مجموعة واتساب، أمر بمعروف لابنك أو ابنتك .هذه الدقائق الخمس تتحول في نهاية العام إلى ساعات من العمل الصالح.
.3تدرب على "الصبر في المواقف الصغيرة":
عندما يزعجك زحام الطريق، اصبر ولا تغضب .عندما يخطئ ابنك، اصبر ولا تثور .عندما تسخر منك زوجتك لمزحة، اصبر ولا ترد الإساءة .هذه التدريبات الصغيرة تبني فيك عضلة الصبر التي ستحتاجها في معارك الإصلاح الكبرى.
.4كن "قدوة صامتة" قبل أن تكون "ناصحًا صارخًا":
أفضل أمر بالمعروف هو فعلك أنت .أقم الصلاة حقًا، وكن حسن الخلق، وعندها سيكون لكلامك وقع في القلوب .الناس تتعلم بالعين أكثر مما تتعلم بالأذن.

الخلاصة: درع المصلح وسيفه

أيها القارئ الكريم،
لقد وضع لقمان الحكيم في هذه الآية القصيرة دستورًا كاملًا لحياة المسلم الإيجابي. إنه دستور من أربعة بنود:

· البند الأول: قم بواجبك تجاه ربك) أقم الصلاة.(
· البند الثاني: كن إيجابيًا في نشر الخير) وأمر بالمعروف.(
· البند الثالث: كن شجاعًا في مواجهة الباطل) وانه عن المنكر.(
· البند الرابع: تسلح بالدرع الواقي الذي يحميك في كل هذا) واصبر.(

لا تظن أن هذه الوصايا خاصة بالكبار أو العلماء. إنها وصايا لكل مسلم، في كل زمان ومكان. أنت في بيتك، في عملك، في دراستك، في هاتفك، تستطيع أن تطبقها.
تذكر دائمًا خاتمة الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. نعم، الطريق صعب، لكنه طريق العظماء. فكن عظيمًا بإيمانك، عظيمًا بصلاتك، عظيمًا بإصلاحك، عظيمًا بصبرك. بذلك تكون قد سلكت سبيل الأنبياء، واتبعت حكمة لقمان، وصرت من أولي العزم الذين يحملون مشاعل النور للبشرية.
المبحث الخامس
أيها الإنسان الذي تعلو به أخلاقه، أيها العبد الذي قد يغفل عن آفة الكبر فتفسد عليه عمله، أيها المربي الذي يريد أن يغرس في نفوس الناشئة أجمل صفات الحكماء،
لقد أوشكنا على نهاية وصايا لقمان الحكيم. لقد بنى في ابنه الإيمان بالله، ومراقبته في السر والعلن ، وأمره بالصلاة والصبر والإصلاح بين الناس. إنه يبني قائدًا، ومصلحًا، وداعية. لكنه يعلم أن أخطر ما يهدد بناء القادة والمصلحين هو آفة خفية تتسلل إلى القلب: إنها آفة الكبر.

قد يقوم الإنسان بالأعمال العظيمة (الصلاة، الأمر بالمعروف، الصبر)، ثم يفسدها كلها بكبر يظهر في مشيته، أو بفخر يطغى على حديثه. وكأن لقمان يقول لابنه: "يا بني، بعد أن عرفت ربك، وأتقنت عبادتك، وبدأت في إصلاح مجتمعك، إياك أن تنظر إلى الناس نظرة استعلاء، أو تمشي بينهم مختالًا فخورًا، فتكون كمن بنى قصرًا ثم هدمه بيده."

تعالوا نعش معًا هذه الآية التي ترسم أدب الجوارح، وتؤسس لـ ثقافة التواضع التي هي تاج الحكماء:
﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18]

أولا ً: دلالة ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.. صورة حسية للاستعلاء المقيت

لنبدأ مع هذه الصورة البليغة التي يرسمها القرآن: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

التصعير في اللغة مأخوذ من الصَعَر، وهو مرض يصيب الإبل فتلوي أعناقها وتميل بها. فالمتكبر حين يرى الناس، يلوي خده ويميل بوجهه إعراضًا واحتقارًا. وكأن الآية تشبه المتكبر بـ البعير الأجرب الذي يميل برقبته! يا له من تشبيه مهين للمتكبر! إنه يظن أنه بتلويحه بخده يعلو، بينما الحقيقة أنه يهبط إلى مستوى حركة بهيمية مريضة.

القرآن لا ينهى عن الكبر القلبي فقط (وهو بطر الحق وغمط الناس)، بل ينهى حتى عن إماراته الجسدية وحركاته الطفيفة. إنه يريد أن يبني إنسانًا متواضعًا بكل جوارحه: بوجهه الذي يقبل على الناس، بسمعه الذي يصغي للضعيف، بمشيه الذي لا خيلاء فيه.

لمسة بلاغية:
تأمل قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ دون تحديد. أي لكل الناس، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم. فالتكبر على الفقير أو الجاهل أشد قبحًا وأعظم إثمًا. المؤمن الحقيقي وجهه للناس جميعًا بالبشر والا نفتاح.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· في الشارع: رجل غني يقود سيارة فارهة، ويرى جاره الفقير واقفًا ينتظر الحافلة .بدلًا من أن يسلم عليه بوجه طلق، يصعّر خده وينظر للجهة الأخرى وكأنه لم يره .هذا المشهد الصغير هو عين ما تنهى عنه الآية.
· في العمل: موظف وصل إلى منصب مدير، وإذا بموظف بسيط يسأله عن شيء، فيجيبه دون أن ينظر إليه، أو يميل بوجهه عنه وهو يتكلم .هذه الحركة الجسدية تشعر الآخر بالإهانة، وهي ترجمة عملية لـ مرض الكبر.
· في المجالس: شخص يتحدث في موضوع، فيأتي آخر يظن نفسه أعلم منه، فيقاطعه ويعرض عنه بوجهه وكأن كلام الأول لا قيمة له .هذا هو التصعير الذي يمزق أواصر المجتمع.

ثانيًا: دلالة ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.. ذم الخيلاء في المشية

ثم ينتقل إلى حركة الجسد كله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

المَرَح هو شدة الفرح والبطر المؤدي إلى الخيلاء والاختيال في المشية. إنها مشية المتكبر، التي يضرب فيها الأرض بقدميه، ويتمايل فيها كبرًا. وهذه المشية ليست فقط دليل كبر، بل هي أيضًا نسيان للأصل. الإنسان خُلق من تراب، ويمشي على تراب، وسيعود إلى التراب. فكيف يمشي على الأ رض مرحًا وهو من طينها؟!

الآية تنهى عن المشية المرحة، لكنها في المقابل تمدح المشية المتواضعة. قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]. الهون هو السكينة والوقار و التواضع. فالمؤمن يمشي مشيًا قصديًا، لا خيلاء فيه ولا تكاسل.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· شاب يرتدي ملابس رياضية فاخرة: يدخل إلى مكان عام) سوق، جامعة (وهو يتبختر في مشيته، وكأن الأرض ملكه، والناس لا يساوون شيئًا .هذه المشية قد تكون لا شعورية، لكنها تعكس خللًا نفسيًا في تقدير الذات.
· لاعب كرة قدم مشهور: يدخل الملعب وهو يتمايل ويشير بيديه للجمهور بتعالٍ .هذا المشهد الذي يراه الملايين يرسخ ثقافة الكبر لدى الشباب، فتجدهم يقلدون هذه المشية ظانين أنها علامة "النجومية".
· موظف حصل على ترقية: في اليوم التالي، تراه قد تغيرت مشيته، وأصبح يختال بين زملائه .هذه

علامة خطيرة على أنه لم يتربّ على معنى التواضع الذي تعلمنا إياه الآية.

ثالثًا: دلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.. التعليل الإلهي لذم الكبر

بعد النهيين الجسديين (تصعير الخد، والمشي مرحًا)، تأتي العلة الكبرى، والسبب الحقيقي لهذا التحريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

انظر إلى هذين الوصفين الدقيقين:

· ﴿مُخْتَالٍ﴾: من الخيلاء، وهو الكبر في الهيئة والمظهر والمشية .إنه الذي يرى نفسه في مرآة نفسه فيعجب بها، فيترجم إعجابه إلى حركات جسدية متكبرة.
· ﴿فَخُورٍ﴾: من الفخر، وهو الكبر في اللسان والقول .إنه الذي يعدد مآثره ومناقبه على الناس، ويحتقر إنجازاتهم .يقول: "أنا فعلت ...أنا عندي ...أنا من عائلة...".

والجامع بينهما: الأنانية المفرطة، ونسيان فضل الله. المختال الفخور يرى نفسه ولا يرى غيره، وينسب الفضل لنفسه وينسى أن كل ما به من نعمة فمن الله.

ثم تأتي الجملة بمقدم ما حقه التأخير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.
لم يقل: "إن الله يعاقب" أو "إن الله يبغض". بل قال: ﴿لَا يُحِبُّ﴾. ونفي المحبة أبلغ من إثبات البغض، لأن من لا يحبه الله، فهو بالضرورة ممقوت، وهو محروم من أعظم نعمة، نعمة محبة الله. وإذا حرم العبد محبة الله، فأي شيء بقي له؟

لمسة بلاغية ونفسية:
تقديم الخبر ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾، وتأكيد النفي بـ ﴿كُلَّ﴾ الدالة على الشمول، يجعل الحكم قاطعًا لا استثناء فيه. أي مختال فخور، أيًا كان نسبه، وأيًا كان علمه، وأيًا كان جاهه، هو في دائرة عدم محبة الله. وهذا هو الرادع النفسي الأقوى للمؤمن. أنا لا أريد فقط أن أتجنب عقاب الله، بل أريد أن يحبني الله. فكيف أفعل ما يجعلني في دائرة من لا يحبهم؟

رابعًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: التربية على التواضع بالقدوة والممارسة

· الآية لا تكتفي بالنهي النظري عن الكبر، بل تنهى عن حركاته الدقيقة .هذا يعني أن التربية على التواضع يجب أن تكون عملية سلوكية .درب أبناءك منذ الصغر على:
· إلقاء السلام على الصغير قبل الكبير، وعلى الخادم كما على السيد.
· عدم تقليد حركات "النجوم" المتكبرة في المشية أو طريقة الكلام.
· الجلوس حيث ينتهي بهم المجلس، وعدم تخطي الرقاب.
· هذه التربية السلوكية تغرس التواضع في العقل الباطن، فيصبح طبعًا لا تطبعًا.

.2الرسالة النفسية: التواضع علاج للقلق والصراع الداخلي

· علم النفس يؤكد أن الكبر هو غالبًا غطاء على نقص داخلي .المتكبر يحاول أن يعوض شعوره بـ الدونية بالاستعلاء على الآخرين .لكن هذه الآلية الدفاعية تزيده توترًا وقلقًا، لأنه يظل خائفًا من اكتشاف الناس لنقصه، ويظل في صراع دائم لإثبات تفوقه.
· أما التواضع، فهو تصالح مع الذات وقبول للنفس كما هي .المتواضع لا يحتاج إلى تصعير خده ليثبت أنه "قوي"، لأنه يعرف قيمته الحقيقية عند الله لا عند الناس .هذا التصالح يمنحه سكينة نفسية وثقة هادئة لا يملكها المتكبر.

.3الرسالة العملية: التواضع مفتاح القلوب ونجاح العلاقات

· في عالم الأعمال والعلاقات الاجتماعية، المتواضع هو الفائز دائمًا.
· المدير المتواضع يحبه موظفوه ويعملون معه بإخلاص.
· الزوج المتواضع تمتلئ بيته بالمودة والرحمة.
· العالم المتواضع يزداد علمًا، لأن الناس يقبلون عليه ويتعلمون منه.
· أما المختال الفخور، فالناس تنفر منه وتتحاشاه، ويخسر فرصًا لا تعوض بسبب كبريائه .الآية تقدم لك وصفة النجاح الاجتماعي: كن متواضعًا، يحبك الله ويحبك الناس.

.4الرسالة الدينية: الكبر يحبط الأعمال الصالحة

· قد يصلي الإنسان، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصبر .لكنه إن فعل ذلك وهو مختال فخور، فقد أحبط عمله .قال النبي ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" .رجل قال: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة .قال: "إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس") .رواه مسلم.(
· فالكبر سم يسري في الأعمال الصالحة فيفسدها .لذلك، كان السلف الصالح أشد الناس خوفًا من الكبر، وكانوا يتهمون أنفسهم به عند كل خطرة.

خامسًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة التواضع كأساس للتعامل الإنساني

· الإسلام يبني مجتمعًا متواضعًا، لا يعرف الفوارق الطبقية التي تجعل الغني يصعر خده للفقير .في المسجد، يقف الغني والفقير في صف واحد، جنبًا إلى جنب .في الحج، يلبسون لباسًا واحدًا .هذه الطقوس الجماعية تربي في المسلم ثقافة التواضع، وتقتلع من قلبه جرثومة الكبر.

.2ثقافة محبة الله لا محبة الذات

· غاية المسلم أن يحبه الله .هذه الآية تحدد له طريق محبة الله: أن يكون متواضعًا، بعيدًا عن الخيلاء والفخر .هذه الثقافة الإيمانية تجعل المسلم يراقب نيته وحركاته، ويسأل نفسه دائمًا: "هل أنا ممن يحبهم الله أم ممن لا يحبهم؟".

.3ثقافة نقد النماذج الفاسدة

· الآية تمنحنا معيارًا واضحًا لنقد ما نراه في الإعلام ووسائل التواصل .عندما نرى مشهورًا أو "مؤثرًا" يمشي مرحًا، ويصعر خده، ويفتخر بنفسه، يجب أن تنفر نفوسنا منه، وأن نعلم أن هذا سلوك لا يحبه الله .هذا الوعي الناقد يحمي شبابنا من تقليد هذه النماذج السيئة.
سادسًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1تمرين "مرآة التواضع" الصباحي:
كل صباح، انظر في المرآة وقل لنفسك بصدق: "يا نفس، أنت من تراب، وإلى تراب، فلا تتكبري على أحد .اللهم إني أعوذ بك من الخيلاء والفخر." هذا التمرين اليومي يذكرك بأصلك، ويمنع الكبر من التسلل إلى قلبك.
.2راقب حركات جسدك:
كن واعيًا بلغة جسدك:
· عندما تكلم أحدًا، هل تنظر في عينيه أم تنظر بعيدًا بتعال؟
· عندما تمشي، هل تمشي بهدوء ووقار أم بتبختر ومرح؟
· راقب نفسك وصحح حركاتك .أحيانًا تكون هذه الحركات لا إرادية، لكن بالمراقبة والوعي يمكن تغييرها.
.3ابذل السلام للصغير والفقير:
تعمد أن تبدأ من هو أقل منك منصبًا أو مالًا بالسلام .بادر بالتحية على عامل النظافة، وعلى البواب، وعلى الطفل الصغير .هذه الأفعال هي ترياق عملي لمرض الكبر، وهي تدرب النفس على التواضع.
.4تعلم فن الاستماع:
المتكبر لا يستمع، هو فقط ينتظر دوره ليتكلم .والمتواضع يستمع باهتمام وإنصات .درب نفسك على أن تستمع للآخرين، خاصة لمن تراهم أقل منك علمًا أو خبرة .فقد تجد عندهم من الحكمة ما لا تجده عند غيرهم.
.5احكِ لأبنائك قصص تواضع الكبار:
اروِ لأبنائك قصة عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين يحمل الدقيق على ظهره للأرملة، وقصة أبي بكر الصديق وهو يحلب للجيران، وقصة النبي ﷺ وهو يخصف نعله .هذه القصص تبني في وجدانهم صورة البطل المتواضع، فيرفضون صورة "البطل المتكبر" التي تروج لها بعض وسائل الإعلام.

الخلاصة: تاج الحكمة

أيها القارئ الكريم،
لقد بدأ لقمان وصاياه بـ التوحيد، وختمها بـ التواضع. وما أجمل البداية وما أروع الختام!
التوحيد يجعلك عزيزًا بالله، لا تخضع لمخلوق.
والتواضع يجعلك لينًا مع الخلق، لا تستعلي عليهم.
وبين هذين القطبين (العزة بالله والتواضع للخلق) تدور حياة الحكماء.
تذكر دائمًا أن التواضع هو تاج الحكمة، وزينة الأبرار، وطريق محبة الله. ولا يرفع الله من تواضع إلا وزاده رفعة. فكن متواضعًا في مشيتك، بشوشًا في وجهك، لينًا في كلامك، بذلك تحوز محبة الله ومحبة الناس، وتكون من الذين وصفهم الله بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكافِرِينَ﴾.

المبحث السادس

أيها الإنسان الذي يبحث عن هيبة الحكماء ووقار الأتقياء، أيها الشاب الذي تظن أن القوة في الصوت العالي والمشية المتشدقة، أيها المربي الذي يريد أن يصوغ جيلا ً مهيبًا في حضوره، لطيفًا في حديثه،
ها نحن نصل إلى خاتمة وصايا لقمان الحكيم. لقد بدأ رحلته مع ابنه من عمق العقيدة (لا تشرك ب الله)، ومر على حقوق الوالدين، والمراقبة الإلهية، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والصبر، ونبذ الكبر في المشية والوجه. والآن، في هذه الوصية الأخيرة، يضع اللمسات النهائية على الهندسة السلوكية لا بنه، فيأمره بأمرين يظنهما الناس بسيطين، ولكنهما في الحقيقة تاج الأخلاق وسر الهيبة والجاذبية: الا قتصاد في المشي، وخفض الصوت.

تعالوا نعيش معًا هذه الوصية الجامعة التي تكشف لنا عن أدق تفاصيل الشخصية المسلمة المتوازنة:
﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19]

أولا ً: دلالة ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.. فلسفة التوازن بين الإسراع والبطء

في الآية السابقة، نهى لقمان ابنه عن المشي مرحًا، أي باختيال وخيلاء. وهنا يأمره بأمر إيجابي يحدد له كيف يمشي، ليكتمل البناء: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾.

القصد في اللغة: هو التوسط والاعتدال بين طرفين مذمومين. والمقصود هنا: امش مشيًا وسطًا، ليس بالبطيء المتكاسل الذي يدل على الضعف والخور، وليس بالسريع المتهور الذي يدل على الخفة و الطيش. إنها مشية الوقار والسكينة، مشية صاحب الحاجة الذي له هدف يسعى إليه، لكنه لا يلهث ك المجنون، ولا يتثاقل كالمتبطل.

هذه الآية تعيد هندسة ثقافة الحركة لدى المسلم. حركة الجسد تعكس حالة الروح. المشي المتزن يدل على عقل متزن، ونفس مطمئنة. بينما المشي المضطرب (سريع جدًا أو بطيء جدًا) يعكس اضطرابًا نفسيًا أو فكريًا.

اللمسة البلاغية:
تأمل قوله: ﴿فِي مَشْيِكَ﴾. كلمة في للظرفية. كأن المشي وعاء، والقصد هو المحتوى الذي يوضع فيه. أي: اجعل وعاء مشيك مملوءًا بالقصد والاعتدال، لا بالمرح والخيلاء (كما في الآية السابقة) ولا ب التواني والكسل.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· في الشارع: ترى شخصًا يمشي بسرعة جنونية، يدفع الناس بيديه، وكأنه في سباق .هذا مشي مذموم، يدل على عدم الاتزان .وترى آخر يمشي بتثاقل شديد، يتوقف كل لحظة، ويعطل الطريق، وكأنه لا هدف له .هذا أيضًا مذموم .أما صاحب القصد، فتراه يمشي بخطوات منتظمة، بسرعة معتدلة ، يتجنب أذى الناس، ولا يتوقف عبثًا .هذا هو مشي العقلاء.
· في بيئة العمل: موظف يدخل مكتب المدير وهو يلهث، أو يدخل متثاقلًا كأنه محمول .كلاهما يعطي انطباعًا سيئًا .بينما الموظف الذي يمشي بقصد واعتدال، يدخل بهدوء وثقة، يعطي انطباعًا بالاحترافية والمهنية.
· في المسجد: بعض الناس يسرع في مشيه إلى الصلاة لدرجة الركض الممنوع، وبعضهم يتثاقل حتى تفوته تكبيرة الإحرام .أما المقتدي بسنة النبي ﷺ، فيمشي وعليه السكينة، لا يركض ولا يتثاقل.

ثانيًا: دلالة ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.. أدب الصوت وحفظ الهيبة

ثم ينتقل إلى الوصية الأخيرة المتعلقة بـ الصوت: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

الغض في اللغة: هو الخفض والكسر. وغض الصوت يعني خفضه وعدم رفعه إلا بقدر الحاجة. وكلمة ﴿مِن﴾ هنا للتبعيض، أي: اخفض بعضًا من صوتك، لا كله. فلا ترفعه كله فتكون كالصارخ، ولا تخفضه كله فلا يسمعك أحد. وهذا من دقة الأدب القرآني: الصوت المسموع المعتدل، الذي لا يزعج السامع و لا يضيعه.

لماذا خص لقمان الصوت بالوصية بعد المشي؟
لأن الصوت هو بصمة الإنسان المسموعة. كما أن المشي يدل على شخصية الإنسان بصريًا، فالصوت يدل عليها سمعيًا. الصوت العالي المرتفع بلا داعٍ يدل على الفظاظة والغلظة والجفاء، وربما على ضعف الحجة (فمن لا يملك الحجة يلجأ إلى الصوت العالي). أما الصوت الخفيض الهادئ، فيدل على الوقار والثقة بالنفس، وصاحبه غالبًا ما يكون قوي الحجة، واثقًا من كلامه، فلا يحتاج إلى صراخ ليسمع.

اللمسة البلاغية:
تأمل ترتيب الآيتين: في الآية 18 نهى عن تصعير الخد (حركة الوجه)، ثم نهى عن المشي مرحًا (حركة الجسد كله). وفي هذه الآية يأمر بـ القصد في المشي (حركة الجسد إيجابًا)، ثم بـ غض الصوت (حركة اللسان والحنجرة). وكأنه انتقل من الظاهر (الجسد) إلى الباطن (الصوت الخارج من الجوف)، ليكتمل تأديب الجوارح كلها.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· في البيت: أب يصرخ في وجه زوجته وأبنائه، صوته يجلجل في أرجاء البيت .هذا الصوت لا يربي، بل يدمر، ويملأ البيت توترًا ونفورًا .بينما الأب الذي يغض من صوته، ويتكلم بهدوء، يكون كلامه أوقع في النفوس، وأكثر تأثيرًا.
· في الشارع أو السوق: باعة متجولون يرفعون أصواتهم بآلات التنبيه والبوق، مما يؤذي المارة .هذا خلاف أدب الإسلام .والمفترض أن يكون الصوت معتدلًا.
· في الهاتف: شخص يتحدث في هاتفه في مكان عام، فيرفع صوته حتى يسمع كل من حوله تفاصيل حياته الخاصة .هذا ليس فقط قلة أدب، بل هو أيضًا تفريط في الحياء .والمطلوب أن يغض صوته بقدر ما يسمعه الطرف الآخر.
· في وسائل التواصل: بعض "المؤثرين" يظن أن قوة التأثير في الصراخ والإثارة الصوتية .فيرفع صوته في مقاطعه لدرجة الصخب .هذا النموذج مذموم في ميزان الآية .أما النموذج المحمود فهو صاحب الصوت الهادئ الواثق، الذي يجذب الناس بحجته لا بضجيجه.

ثالثًا: دلالة ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾.. أبشع تشبيه لمن يرفع صوته بلا داع

وهنا تأتي الخاتمة الصادمة، التي تهز الأعماق وتجعل كل من يرفع صوته بغير حق يرتعد: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾.

الإنكار هو أبلغ من القبح. أنكر الأصوات أي أبشعها وأقبحها وأشدها إزعاجًا وتنفيرًا. وهذا الوصف منصب على صوت الحمار. لماذا؟ لأن صوت الحمار عالٍ جدًا، مزعج، متقطع، بلا معنى ولا حكمة. إنه مجرد ضجيج أجوف.

والسؤال: لماذا شبه الله من يرفع صوته بغير حق بالحمار؟ أليس هذا تشبيهًا قاسيًا؟
نعم، إنه قاس، لكنه حقيقي وتربوي. إنه يريد أن يقتلع من النفس حب الصوت العالي والصراخ. إنه يقول: "أيها الإنسان، لقد كرمك الله بالعقل والمنطق، وجعل صوتك أداة للتعبير عن المعاني السامية و الحجج البالغة. فإذا أطلقت صوتك بغير حكمة، ورفعته بغير داعٍ، فأنت بذلك تتنازل عن إنسانيتك وتهبط إلى مستوى البهيمية. وما أقبح الأصوات؟ إنه صوت الحمار، الذي ليس له من فائدة سوى الإزعاج."

رسالة نفسية وتربوية عميقة:
هذه الآية تربي في المسلم الخوف من أن يكون صوته أشبه بصوت الحمار. إنها تجعله يحاسب نفسه: "هل أنا عندما أغضب وأصرخ، أتحول إلى هذا المنظر المزعج؟ هل حديثي المرتفع بلا فائدة يقربني من هذا التشبيه؟" هذا الاستحضار هو رادع نفسي قوي يمنع المسلم من الصراخ والصخب.

مثال واقعي صادم:
تخيل شخصًا في مشادة كلامية، يصرخ بأعلى صوته، وقد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه. هل ترى في هذا المنظر جمالًا أو وقارًا؟ أم ترى أنه أقرب ما يكون إلى صورة الحمار وهو ينهق؟ للأسف، كثير

من الناس يتحولون إلى هذه الصورة وهم لا يشعرون، ظانين أنهم "أقوياء" أو "يدافعون عن أنفسهم". الآية توقظهم: "لا، أنت لست قويًا، أنت بهذا الصراخ تصبح صورة منفرة."

رابعًا: الربط العضوي بين الآية 18 والآية 19: اكتمال دائرة التواضع والوقار

دعنا نربط بين الآيتين لنرى الصورة الكاملة لـ شخصية المسلم المتواضع الوقور:

الوصية الآية 18 الآية 19
في المشي النهي عن المشي مرحًا (خيلاء) الأمر بالقصد في المشي (اعتدال ووقار)
في الوجه النهي عن تصعير الخد (إعراض وكبر) -
في الصوت - الأمر بغض الصوت (هدوء وحكمة)

النتيجة: مسلم يمشي بقصد، لا خيلاء فيه ولا تواني، وينظر إلى الناس بوجه طلق غير معرض، ويتكلم بصوت هادئ غير صاخب. هذه هي الهندسة الربانية للشخصية الجذابة المهيبة.
خامسًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: التربية على الاعتدال الحركي والصوتي منذ الصغر

· الآية تعلمنا أن نهتم بتربية أبنائنا على الاعتدال في الحركة والصوت.
· في المشي: لا تدع طفلك يركض في الأماكن الضيقة فيزعج الناس، ولا تدعه يتثاقل في الطريق فيعطله .علمه المشي المعتدل.
· في الصوت: دربه على ألا يصرخ في البيت أو الشارع .إذا أراد شيئًا، فليتكلم بصوت طبيعي . الصراخ ليس دليل قوة شخصية، بل هو دليل ضعف تحكم في النفس.

.2الرسالة النفسية: الصوت المنخفض علامة الثقة بالنفس

· علم النفس يؤكد أن الأشخاص الواثقين من أنفسهم يتكلمون عادة بصوت هادئ وواضح .لا يحتاجون إلى الصراخ ليثبتوا وجودهم أو ليحصلوا على الاهتمام .أما الصوت العالي، فهو غالبًا آلية دفاعية يستخدمها من يشعر بداخله بعدم الأمان أو بضعف موقفه .الآية تدعوك إلى أن تتحلى بثقة المؤمن، الذي يوقن أن الله يراه، وأن الحق معه، فلا يحتاج إلى ضجيج الحمير.

.3الرسالة العملية: المشي المعتدل والصوت الهادئ مفاتيح للنجاح الاجتماعي والمهني

· في مقابلات العمل: الشخص الذي يمشي بقصد واعتدال، ويتكلم بصوت هادئ وواثق، يترك انطباعًا أوليًا رائعًا لدى لجنة المقابلة .بينما الشخص الذي يدخل متثاقلًا أو متسرعًا، ويتكلم بصوت مرتفع أو خافت جدًا، يقلل من فرص قبوله.
· في العلاقات الزوجية: الزوج الذي يغض من صوته في بيته، ويتكلم مع زوجته وأبنائه بلطف وهدوء، يبني أسرة مستقرة سعيدة .أما الزوج الصاخب، فهو يهدم بيته بيده.
· في الدعوة إلى الله: الداعية الذي يخاطب الناس بصوت هادئ، وحجة مقنعة، يؤثر في القلوب أكثر من الداعية الذي يصرخ ويشنج أوتاره الصوتية.

.4الرسالة الدينية: الحياء من مشابهة البهائم

· من أعظم مقاصد الشريعة إخراج الإنسان من دائرة البهيمية إلى دائرة الإنسانية الكاملة التي كرمها الله .الصوت العالي المزعج، والمشي المتكبر، والوجه المعرض، كلها سلوكيات بهيمية أو حيوانية .و المسلم يترفع عنها حياء من الله الذي كرمه .قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]. فمن يصرخ كالحمار، أو يختال كالطاووس، فإنه بهذا السلوك ينتقص من تكريم الله له.

سادسًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة الصمت الحكيم والكلام النافع

· الإسلام لا يدعو إلى الصمت المطلق، بل إلى الكلام النافع الذي يقدم في قالب صوتي مهذب .هذه ا لآية تؤسس لثقافة "الصوت المنخفض" في الأماكن العامة والخاصة .مجتمع يغض أفراده أصواتهم هو مجتمع متحضر راق.

.2ثقافة الرفق واللين في التعامل

· غض الصوت هو أحد مظاهر الرفق واللين .والله يحب الرفق في الأمر كله .هذه الثقافة تجعل المجتمع خاليًا من التوتر والصراخ، مليئًا بالسكينة والمودة.

.3ثقافة النقد الذاتي للسلوكيات الصوتية والحركية

· الآية تعلمنا أن ننقد أنفسنا باستمرار: كيف أمشي؟ كيف أتكلم؟ هل صوتي يزعج الآخرين؟ هل مشيتي فيها خيلاء أو تكاسل؟ هذا النقد الذاتي المستمر هو السبيل الوحيد لتزكية النفس وتقويم السلوك.

سابعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1تمرين "الوعي بالمشي":
غدًا عندما تخرج إلى عملك أو دراستك، راقب مشيتك .اسأل نفسك: "هل أنا أمشي بقصد واعتدال ، أم بسرعة جنونية، أم بتثاقل؟" .حاول أن تعدل خطواتك لتكون متناسقة هادئة .ستشعر بفرق في حالتك النفسية.
.2تمرين "مقياس الصوت":
في حواراتك القادمة، خاصة عند الاختلاف، راقب مستوى صوتك .هل يرتفع تدريجيًا كلما اشتد النقاش؟ اضبطه بوعي .قل في نفسك: "أنا لا أريد أن أكون من أنكر الأصوات" .ستجد أنك عندما تغض صوتك، يبدأ الطرف الآخر في خفض صوته أيضًا، ويهدأ النقاش.
.3عوّد أطفالك على "الصوت الداخلي":
علمهم أن هناك فرقًا بين "صوت البيت") الطبيعي (و"صوت الشارع") المرتفع .(لا تسمح لهم بالصراخ داخل المنزل .إذا صرخ طفل، لا تصرخ في وجهه، بل اقترب منه وقل له بصوت هادئ جدًا: "تكلم بصوت منخفض يا حبيبي" .سيتعلم من هدوئك أكثر مما يتعلم من صراخك.
.4لا تشارك المحتوى الصاخب:
على وسائل التواصل، كثير من المقاطع تعتمد على الصراخ والإثارة الصوتية لجذب المشاهدات .لا تشاركها، ولا تتفاعل معها .بتقليل التفاعل، نقلل من انتشار هذه الثقافة الحمارية، ونشجع المحتوى الهادئ الهادف.

الخلاصة: توقيع الحكمة الأخير

أيها القارئ النبيل،
بعد رحلة طويلة مع حكيم هذه الأمة، نصل إلى الختام. لقد كان لقمان يرسم لابنه لوحة فنية متكاملة للشخصية المسلمة:

· القلب: موحد شاكر مراقب لله.
· السلوك: قائم بالصلاة، آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر، صابر على الأذى.
· الجوارح: متواضع في مشيته، بشوش في وجهه، هادئ في صوته.

وهذه الوصية الأخيرة هي بمثابة التوقيع الأخير على هذه اللوحة الفنية الرائعة. إنها تقول لنا: "لا تظنوا أن الكمال في الأعمال الكبيرة فقط (كالصلاة والجهاد والأمر بالمعروف)، بل الكمال أيضًا في هذه التفاصيل الدقيقة: كيف تمشي، وكيف تتكلم."

فلنحرص على أن نكون في مشيتنا متوازنين، وفي أصواتنا خافضين، حتى نكون في أعين الله وأعين الناس من الوقورين الكرماء، لا من الخفاف المتطاولين. وحتى إذا سُمع صوتنا في الملأ، كان صوت حكمة ورفق، لا صوت ضجيج وبهيمية. بذلك نكون قد ختمنا وصايا لقمان كما بدأناها: بالحكمة التي تثمر العمل الصالح، والأدب الذي يزين كل عمل.

المقطع الثاني
المبحث الأول
أيها الإنسان الغارق في نعم الله، السابح في بحر فضله، الغافل عن شكرها،
أيها المتأمل في وصايا لقمان لابنه، لقد رأيت كيف بنى الحكيم في ابنه شخصية متكاملة: مؤمنة ب الله، مراقبة له، قائمة بالصلاة، آمرة بالمعروف، صابرة على الأذى، متواضعة في مشيتها وصوتها .والآن، بعد أن اكتملت الوصايا، يعود السياق القرآني ليخاطب ضمير البشرية جمعاء، ليفتح أعينهم على حقيقة عظمى: إن كل هذه الأخلاق والحكم التي سمعتموها من لقمان، إنما هي رد طبيعي للجميل تجاه من سخر لكم هذا الكون كله .إنها خطاب يهز الوجدان، ويدعو إلى التفكر في آلاء الله قبل أن يدعو إلى العمل.

تعالوا نعش معًا هذه الآية التي تجمع بين دليل النعمة ودليل الجحود، لنرى أين نقف نحن من هذه الحقيقة:
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ لقمان:[20]
أولا ً: دلالة ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ..استفهام تقريري يوقظ العقول والقلوب

تبدأ الآية باستفهام يخاطب العين قبل العقل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾.

الاستفهام هنا ليس استفهامًا حقيقيًا يطلب إجابة، بل هو استفهام تقريري، معناه: "لقد رأيتم، فلماذا لا تبصرون؟" .إنه استنكار على من يرى هذه النعم العظيمة ثم لا يؤدي حقها من الشكر والعبادة .وكلمة ﴿تَرَوْا﴾ بالعين البصرية، لأن دلائل التسخير والنعم مرئية مشاهدة لا تحتاج إلى فلسفة ولا إلى براهين معقدة .إنها أمامنا في كل لحظة: الشمس تشرق، والقمر ينير، والمطر ينزل، والأرض تنبت ...هذه كلها مرئيات.

لمسة بلاغية وتربوية:
تقديم دليل الحس والمشاهدة على دليل العقل المجرد هو منهج قرآني عظيم .فالإنسان بطبيعته يتأثر بما يراه أكثر مما يتأثر بما يفكر فيه .ولهذا، القرآن يدعونا دائمًا إلى النظر والتأمل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ .إنه يدرب العقل على أن يستنتج من المشاهد المادية الحقائق الغيبية.

مثال واقعي:
تخيل أنك تسير في الصحراء، وأنت تائه عطشان، وفجأة ترى نخلة مثمرة، ونبع ماء .هل تحتاج أن يقيم لك أحد دليلًا على وجود مالك لهذا المكان؟ لا، فوجود الماء والنبات في هذا المكان القاحل دليل بدهي على أن هناك من غرس ورعى .الآية تقول: انظروا حولكم، هذا الكون المنظم هو دليل بدهي على وجود خالق مدبر مسخر.
ثانيًا: دلالة ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ..تسخير الكون للإنسان

وهنا يأتي بيان النعمة العظمى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾.

التسخير يعني التذليل والتهيئة .لم يخلق الله الكون ثم تركه هملا ً، بل سخره لخدمة الإنسان . الشمس مسخرة لتعطينا الدفء والضوء والطاقة .القمر مسخر لحساب الشهور .النجوم مسخرة للاهتداء في ظلمات البر والبحر .الرياح مسخرة لتحمل السحب وتنقل اللقاح .السحاب مسخر لتحمله الرياح .الأ رض مسخرة لتمشي في مناكبها وتأكل من رزق الله .الأنهار مسخرة، والبحار مسخرة لتركبوا فيها الفلك، والجبال مسخرة لتثبت الأرض، والدواب مسخرة لتحمل أثقالكم ...كل شيء حولك خادم مطيع بأمر الله.

﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تعني كل شيء .لم يترك شيئًا .حتى الأشياء التي نظنها ضارة، هي في الحقيقة مسخرة بطريقة غير مباشرة .الجاذبية الأرضية مسخرة، قوانين الفيزياء مسخرة، التفاعلات الكيميائية مسخرة .كل هذا لأجلك أنت أيها الإنسان.

مثال واقعي من حياتنا اليوم) لنعيش معنى التسخير(:

· الهاتف الذكي الذي في يدك: هذا الجهاز لم يصنعه البشر من عدم .بل استخدموا مواد مسخرة من الله: المعادن من الأرض، والسيليكون من الرمال، والبترول لصناعة البلاستيك .ثم استخدموا قوانين مسخرة: الكهرباء، والأمواج الكهرومغناطيسية .فالهاتف هو ثمرة تسخير ما في السماوات والأرض.
· كوب الماء الذي تشربه: الماء نزل من السماء) سحاب مسخر(، وتخلل طبقات الأرض) تربة مسخرة(، وخرج نقيًا، ووصل إليك عبر أنابيب) معدن مسخر(، فرفعته إلى فمك .سلسلة طويلة من التسخير،

غايتها أن ترتوي.
· الهواء الذي تتنفسه: لو توقف هذا التسخير للحظة، لمت .إنه نعمة مستمرة لا نشعر بها إلا إذا فقدناها .الآية تريدنا أن نشعر بهذا التسخير الدائم.

ثالثًا: دلالة ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ..إحاطة الإنسان بالنعم من كل جانب

بعد ذكر التسخير العام للكون، تأتي الإشارة إلى النعم الخاصة بالإنسان: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

الإسباغ يعني الإتمام والإكمال والتوسعة .يقال: أسبغ له في العطاء، أي أوسع عليه .والنعم هنا تشمل كل ما يتقلب فيه الإنسان من صحة وعافية ومال وستر وأمن وفهم ...إلخ.
وقسم النعم إلى نوعين:

.1نعم ظاهرة: وهي التي ترى بالعين وتدرك بالحواس .مثل: الصحة في الجسد، والمال، والجمال، و الطعام، واللباس، والأمن، والمسكن .هذه النعم الظاهرة، مع وضوحها، يغفل عنها كثير من الناس، إلا من تأمل .كم من صحيح معافى لا يشعر بقيمة صحته حتى يمرض! كم من آمن في بيته لا يشعر بقيمة الأمن حتى يرى الحرب!
.2نعم باطنة: وهي التي تخفى على الحواس ولا يدركها إلا المتأمل .مثل: الإيمان، والعقل، والفهم، و الهداية، والستر، والرضا، والطمأنينة، ومحبة الناس، والتوفيق، ودفع البلاء قبل وقوعه .هذه النعم الباطنة أعظم من الظاهرة، لأنها تتعلق بالروح والقلب، وهي سبب السعادة الحقيقية .وقد تكون النعمة الباطنة هي المنع .نعم، المنع نعمة! كم من إنسان حُرم مالًا أو ولدًا أو صحة، فكان ذلك سببًا في قربه من الله ونجاته من فتنة كانت ستهلكه .هذا المنع نعمة باطنة أسبغها الله عليه وهو لا يشعر.

اللمسة البلاغية:
تأمل قوله: ﴿نِعَمَهُ﴾ بالإضافة إلى ضمير الجلالة .فالنعم كلها منسوبة إليه وحده .ثم جمع نعمة على نعم ، للدلالة على كثرتها وتنوعها .ثم وصفها بـ ظاهرة وباطنة ليشمل كل شيء .فمن أين للإنسان أن يعد نعم الله أو يحصيها؟!

مثال واقعي للتمييز بين النعمة الظاهرة والباطنة:

· شاب تزوج حديثًا: النعمة الظاهرة: زوجة جميلة، بيت مريح، حفل زفاف بهيج .النعمة الباطنة: المودة والرحمة التي جعلها الله في قلبيهما، القبول بين الأهل، التوفيق في بناء الأسرة، الستر على العيوب . هذه الأخيرة وإن كانت خفية، إلا أنها هي أساس السعادة الزوجية.
· طالب نجح في امتحان: النعمة الظاهرة: الشهادة والدرجة العالية .النعمة الباطنة: الفهم، والتيسير من الله، وصرف الفتن والانشغالات عنه ليتفرغ للمذاكرة، ودعاء الوالدين له بظهر الغيب.

رابعًا: دلالة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ..قمة الجحود بعد كل هذا التسخير والنعم

وبعد هذا البيان الساطع للتسخير والنعم، يأتي الانتقال المؤلم والصادم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

الواو هنا واو الحال، وكأنه يقول: "والحال أن من الناس، بعد كل هذه الأدلة القاطعة، من يجادل في وجود الله أو وحدانيته أو حكمته" .المجادلة هنا تعني الجدل بالباطل، والخصومة في الحق بغير دليل .وهو جدل لا يقوم على:

· علم: أي معرفة يقينية مستندة إلى برهان عقلي.
· ولا هدى: أي هداية وإرشاد من الله عن طريق الوحي.
· ولا كتاب منير: أي كتاب سماوي يضيء الطريق، كالقرآن.

فمجادلتهم عريّة من كل دليل: لا دليل عقلي، ولا دليل نقلي .إنها مجادلة الهوى والتقليد الأعمى . ووصف الكتاب بأنه منير يشير إلى أن الكتب السماوية هي نور يبدد ظلمات الشك والجهل .فمن جادل بغير كتاب منير، فهو في ظلام دامس.

الربط العضوي مع بداية السورة:
في بداية السورة، قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ .وهنا يصف الكتاب بـ منير .فالحكيم: يحكم

العقول، والمنير: يضيء القلوب .ومن يجادل في الله بغير هذا الكتاب المنير، فهو متخبط في الظلمات.

مثال واقعي من عصرنا) نموذج المجادل بغير علم(:

· الملحد الذي يجادل بوجود الله: يسأل: "إذا كان الله موجودًا فلماذا يحدث كل هذا الشر في العالم؟" هذا الجدال ليس جديدًا .لكنه بغير علم .لأنه يخلط بين وجود الله وحكمة الابتلاء .هو لم يدرس الفلسفة ولا العقيدة، بل أخذ شبهات جاهزة من الإنترنت، ويرددها بثقة كالببغاء .هذه صورة المجادل بغير علم.
· المشرك الذي يعبد الأصنام: يسأل: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" .هذا جدال بغير هدى .لو اهتدى لعلم أن الله أقرب إليه من حبل الوريد، لا يحتاج إلى وسائط.
· المبتدع الذي يخالف صريح القرآن: يأتي بآراء شاذة تخالف النص الواضح، ويقول: "العقل يقول كذا" . هذا جدال بغير كتاب منير .القرآن بين يديه، لكنه يعرض عنه ويقدم هواه.
خامسًا: الرسائل التربوية والنفسية والعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: تدريب النفس على رؤية النعم والتسخير

· الآية تدعونا إلى منهج تربوي قائم على التأمل في المسخرات .إذا أردت أن تربي نفسك أو أبناءك على حب الله وشكره، فلا تبدأ بالتهديد والوعيد، بل ابدأ بتعريفهم على نعم الله .خذ بيد ابنك وانظر إلى السماء: "من خلقها وسخرها لنا؟" انظر إلى الماء: "من أنزله وسخره لنا؟" هذا الأسلوب القرآني في التربية هو الأنجع والأبقى.

.2الرسالة النفسية: النعم الباطنة مصدر السعادة الحقيقية

· كثير من الناس يلهث وراء النعم الظاهرة) المال، الجاه، الشهرة (ظانًا أن السعادة فيها .لكن الآية تذكرنا بـ النعم الباطنة) الإيمان، الهداية، الستر، العافية .(هذه النعم هي التي تمنح السكينة والرضا . تأمل في حياتك: كم من نعمة باطنة أسبغها الله عليك؟) هل أنت مسلم؟ هذه أعظم نعمة .هل أنت معافى في عقلك؟ هل أنت مستور لا تفضحك ذنوبك؟ .(هذا التأمل يملأ القلب طمأنينة ورضا.

.3الرسالة العملية: لا تكن من المجادلين بغير علم

· الآية تحذرنا من الجدال في دين الله بغير علم .كثير من الناس اليوم يخوض في مسائل العقيدة و الشريعة وهو لا يحفظ من القرآن شيئًا، ولا يملك أي أساس علمي .هذا جرأة على الله، وهو من صفات المذمومين في الآية .قبل أن تجادل في أمر ديني، تعلم .وقبل أن ترد على شبهة، تأكد من صحة معلوماتك .وإلا فأنت داخل في هذا الوعيد.

.4الرسالة الدينية: التسخير يستلزم الشكر

· إذا كان الله قد سخر لنا هذا الكون كله، فماذا يريد منا؟ إنه يريد الشكر .وهنا نعود إلى محور السورة: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ .فكل ما سبق من وصايا لقمان هي تطبيق عملي لهذا الشكر .إقامة الصلاة شكر، الأمر بالمعروف شكر، التواضع شكر .والآية تذكرنا بالدافع إلى هذا الشكر: تذكروا من سخر لكم هذا كله.

سادسًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة الامتنان الكوني

· المسلم لا ينظر إلى الكون على أنه "طبيعة" عمياء، بل هو آيات مسخرة من الله له .هذا يجعله في حالة امتنان دائم .قبل أن يأكل، يقول: "الحمد لله الذي سخر لنا هذا" .قبل أن يركب السيارة، يستحضر أن الحديد والوقود والطرق كلها مسخرة .هذه الثقافة تجعل حياته كلها صلة بالله.

.2ثقافة الوعي بالنعم الباطنة

· في عصر الماديات والاستهلاك، تذكرنا الآية أن أعظم النعم لا تُرى .ثقافة المسلم تقوم على البحث عن النعم الخفية: هل أنا مرتاح الضمير؟ هل أنا محبوب من أهلي؟ هل سترني الله؟ هذه أسئلة ثقافية ترفع من قيمة الإنسان، وتجعله لا يقيّم نفسه بالمظهر فقط.

.3ثقافة الحوار القائم على العلم والهدى

· الآية تضع معيارًا للحوار: علم، هدى، كتاب منير .أي دليل عقلي سليم، ودليل نقلي صحيح .ثقافة المسلم في الحوار هي ثقافة البرهان، لا ثقافة الصراخ والتشنج .وهذا يحمي المجتمع من فوضى الجدل الذي لا طائل منه.

سابعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1تمرين "عد النعم الظاهرة والباطنة":
كل ليلة قبل النوم، اكتب في مذكرتك ثلاث نعم ظاهرة) مثلا ً: أكلت طعامًا طيبًا، شربت ماءً باردًا، نمت في سرير مريح (وثلاث نعم باطنة) مثلا ً: شعرت بطمأنينة في قلبي، سترني الله اليوم في موقف كذا، يسر لي أمرًا كنت أخافه .(هذا التمرين لمدة شهر سيغير نظرتك للحياة تمامًا.
.2تمرين "التفكر في التسخير":
عندما تستخدم أي شيء في حياتك، توقف لثانية وتأمل سلسلة التسخير خلفه .مثلا ً، وأنت تشحن هاتفك: من سخر الشمس أو الرياح أو الوقود لتوليد الكهرباء؟ من سخر المعادن لصنع البطارية ؟ من سخر عقول المهندسين لاختراعه؟ إنه الله .قل في نفسك: "الحمد لله الذي سخر لنا هذا".
.3قاعدة "لا تجادل بغير علم":
قبل أن تخوض في أي نقاش ديني أو فكري على وسائل التواصل أو في المجالس، اسأل نفسك: "هل لدي علم بهذا الموضوع؟ هل أنا متبع هدى أم متبع هوى؟ هل أنا منطلق من كتاب منير أم من شبهات أجهلها؟" .إذا كانت الإجابة "لا"، فالأفضل أن تقول: "لا أعلم"، فهذه نصف الحكمة.
.4تحويل النعم إلى طاعات:
اسأل نفسك: كيف أشكر نعمة التسخير هذه؟ الجواب: باستعمالها في طاعة الله .إذا كنت تستخدم وسائل التواصل، فاستخدمها لنشر الخير والعلم، لا لهو الحديث .إذا كنت تقود سيارة، فاستخدمها في زيارة الأرحام وقضاء الحوائج، لا في إيذاء الناس أو التباهي .هذا هو الشكر العملي.

الخلاصة: بين الشكر والجحود

أيها القارئ الكريم،
لقد وضعتنا هذه الآية أمام مشهدين متناقضين:

· المشهد الأول: كون هائل مسخر، ونعم لا تعد ولا تحصى، ظاهرة وباطنة، تنتظر منا أن نفتح أعيننا ونرى، وأن نفتح قلوبنا ونشكر.
· المشهد الثاني: إنسان ضعيف، جاهل، متكبر، يقف أمام هذا الجلال والجمال ليجادل في خالقه، لا بسلاح علم، ولا بنور هدى، ولا بضياء كتاب.

وأنت، أيها الإنسان، أين تقف من هذين المشهدين؟
هل أنت ممن رأى النعم فـ شكر، وعلم فـ عمل، واهتدى فـ ثبت؟
أم أنت ممن غفل عن النعم فـ جحد، وجادل بغير علم فـ ضل؟

اختر لنفسك طريق الشاكرين العالمين، الذين كلما رأوا نعمة قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ .
واجعل هذه الآية مفتاحًا لك في كل صباح: ألمْ ترَ نعمة اليوم الجديد؟ ألمْ ترَ الصحة في بدنك؟ ألمْ ترَ الستر فوق رأسك؟ فإذا رأيت، فاعلم أن الله سخرها لك، وأسبغها عليك، فلا تكن من المجادلين بغير علم، بل كن من الشاكرين الحامدين، لتنضم إلى ركب المحسنين الذين بدأت بهم السورة، وليتحقق فيك وعد الله: ﴿وَلَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

المبحث الثاني

أيها الإنسان الذي ورث دينه عن آبائه دون تفكر،
أيها الشاب الذي يسمع كلمة الحق فيثقل عليه ترك ما وجد عليه أهله وعشيرته،
أيها المربي الذي يواجه في أبنائه ومجتمعه حاجز "كنا هكذا نجد آباءنا"،
بعد أن عرضت الآية السابقة مشهد المجادل بغير علم، تفتح لنا هذه الآية سر إعراضهم، وتكشف لنا عن المرض الخفي الذي يمنع الناس من اتباع الحق: إنه مرض التقليد الأعمى وعبادة الماضي. إنها معركة قديمة متجددة بين ما أنزل الله وما وجدنا عليه الآباء. وهي معركة تخاض في كل زمان ومكان، في داخل كل نفس، وفي قلب كل مجتمع.

تعالوا نعش معًا هذا المشهد القرآني الحواري، وكأننا نسمع بأذاننا صدى هذا الجدال الذي ما زال يتردد حتى اليوم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: 21]
اولا ً: دلالة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾.. افتتاح لمشهد يتكرر في كل عصر

الواو عاطفة على ما سبق من ذكر المجادل بغير علم، لتبين لنا مضمون هذا الجدال. وصيغة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ ب ـ "إذا" الشرطية تفيد التكرار. أي أن هذا المشهد ليس حادثة واحدة، بل هو ظاهرة إنسانية متكررة عبر التاريخ. في كل زمان، يقوم الدعاة إلى الله، ويبلغون رسالة السماء: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، ويأتيهم الجواب الجاهز المعلب: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

اللمسة التربوية:
كأن الله يهيئنا نفسيًا لمواجهة هذا الرفض المتوقع. فالداعية لا ينبغي أن يصدم عندما يسمع هذا الرد، لأنه رد قديم قدم رسالات السماء. ولكن المطلوب منه أن يمتلك الرد المنطقي الذي يزلزل هذا المعتقد ، كما سنرى في ختام الآية.
ثانيا: دلالة ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.. دعوة السماء المفتوحة

هذه هي الدعوة الإلهية الخالدة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

الإنزال إشارة إلى أن هذا الكلام ليس من عند بشر، بل هو وحي منزل من السماء. وفيه من العلو و الرفعة ما يجعله جديرًا بالاتباع. ولفظ ﴿مَا أَنزَلَ﴾ عام يشمل كل ما أنزل الله: القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل قبل التحريف، وكل وحي أوحاه إلى أنبيائه. والدعوة هنا إلى الاتباع لا مجرد المعرفة أو الإ قرار. الاتباع يعني الانقياد والطاعة والعمل. إنها دعوة إلى تحكيم الوحي في كل شؤون الحياة.

مثال واقعي:
عندما يُقال لشخص: "اتبع ما أنزل الله في الميراث (﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾)"، أو في الحجاب، أو في الربا، فإن الدعوة ليست مجرد معلومة، بل هي تكليف بالتغيير. وهنا يبدأ الاختبار الحقيقي.
ثالثا : دلالة ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.. منطق الإلف والعادة مقابل منطق الوحي

وهنا يأتي الرد الذي يكشف أزمة العقل الجمعي: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

كلمة ﴿بَلْ﴾ للإضراب. أي: لا نتبع ما أنزل الله، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. إنه رفض واضح وصريح للوحي، وإعلان تمسك ب ـ الموروث.
﴿وَجَدْنَا﴾ تدل على أنهم لم يختاروا هذا الطريق عن قناعة وبحث، بل وجدوا أنفسهم فيه، كما يجد ا لإنسان نفسه في بيت أبيه وبلده. إنها ثقافة الميلاد لا ثقافة الاقتناع.
﴿آبَاءَنَا﴾ جمع (أب)، وهم الآباء والأجداد. تقديس الآباء والأجداد هو صنم نفسي يعبده كثير من الناس. وهم يظنون أن مجرد كون الشيء "قديمًا" و"موروثًا" يمنحه قداسة لا تجوز مناقشتها.

اللمسة البلاغية والنفسية:
لاحظ أنهم لم يقولوا: "لا نتبع ما أنزل الله لأنه باطل". هم لا يملكون دليلًا على بطلانه. كل حجتهم هي: "هكذا وجدنا آباءنا". هذه الحجة عاطفية لا عقلية، واجتماعية لا برهانية. إنهم يخافون قطيعة الماضي أكثر مما يخافون مخالفة الله. وهذا هو مكمن الداء.

أمثلة واقعية من حياتنا اليوم (لنرى كيف يتجسد هذا المنطق الآن):

· في العبادات: عندما تدعو شابًا إلى صلاة الفجر في المسجد، يقول لك: "أنا ما شفتش أبويا بيصلي الفجر في المسجد .طول عمرنا بنصليها في البيت" .لقد جعل فعل أبيه دينًا يحتج به!
· في المعاملات: عندما تنصح تاجرًا بأن يتجنب الغش واليمين الكاذبة، يقول لك: "يا ابني، ده أبويا الله يرحمه كان تاجر وعلمني الشطارة دي، والناس كلها كده" .لقد ورث الغش عن أبيه ظنًا أنه "خبرة"!
· في الأعراف الاجتماعية: عندما تدعو إلى منع عادة سيئة في الأفراح أو المآتم) كالتبذير، أو النياحة، أو الاختلاط المبالغ فيه(، يردون: "دي عاداتنا وتقاليدنا اللي ورثناها عن أجدادنا، إحنا بنعمل اللي الناس بتعمله" .لقد جعلوا العادة فوق العبادة.
· في العقيدة: كثير من المسلمين اليوم على إسلام وراثي .لو سألت أحدهم: "لماذا أنت مسلم؟" قد يقول: "لأن أبي وأمي مسلمان" .هذا صحيح كبداية، لكنه لا يكفي .المطلوب أن يكون الإسلام اقتناعًا بعد وراثة.
رابعا : دلالة ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.. الصاعقة المنطقية التي تنسف التقليد ا لأعمى

وبعد أن عرض القرآن حجتهم الواهية، يأتي الرد الإلهي الماحق في صورة استفهام تقريري تهكمي: ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذابِ السَّعِيرِ﴾.

الهمزة ﴿أَوَلَوْ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي. والواو للحال، أي: أيتبعون آباءهم والحال أن الشيطان هو الذي كان يقود آباءهم إلى عذاب السعير؟!
إنه تفجير لمنطقهم من الداخل. كأنه يقول لهم: "حسنًا، أنتم تتبعون آباءكم. لكن هل سألتم أنفسكم: من الذي كان يقود هؤلاء الآباء؟"
إنهم لم يتبعوا آباءهم لكونهم على حق، بل لكونهم آباء فقط. ولو كان هؤلاء الآباء يسيرون في طريق الشيطان الموصل إلى النار، لاتبعوهم عميانًا.

هذا الرد المنطقي يضع مبدأ نقد الموروث في صلب الثقافة الإسلامية. ليس كل ما وجدنا عليه آباءنا صحيحًا. وليس كل قديم مقدسًا. الميزان الوحيد هو ما أنزل الله، لا ما وجدنا عليه الناس.

لمسة بلاغية:

· ﴿الشَّيْطانُ﴾ هو العدو المبين .فالاتباع هنا ليس مجرد خطأ، بل هو طاعة للشيطان في صورة طاعة لـ لآباء.
· ﴿عَذابِ السَّعِيرِ﴾ هو النار المستعرة .فاتباع الآباء الضالين لا يؤدي إلا إلى الهلاك الأبدي.

مثال واقعي معاصر (لنعش هذا الرد):
تخيل شخصًا في عصرنا، يدخن بشراهة، وينصحه طبيب بأن التدخين يدمر صحته ويؤدي إلى الموت. فيقول: "ولكن أبي كان يدخن، وجدي كان يدخن، ولم يموتوا بسببه!" فيرد عليه العاقل: "أَوَلَوْ كان الدخان يدعوهم إلى الموت المحقق؟" مجرد أن الآباء فعلوه لا يجعله صحيحًا أو آمنًا. هذه هي روح الآية.
خامسا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: بناء شخصية ناقدة لا مقلدة

· أخطر ما في التربية هو أن نربي مقلدين لا مفكرين .الآية تدعونا إلى تربية جيل يسأل: لماذا؟ . جيل يحترم آباءه، لكنه لا يقدس أخطاءهم .جيل يزن كل شيء بميزان: "ما أنزل الله" .علم ابنك أن يقول بأدب: "يا أبي، أنا أحبك وأحترمك، لكن إن كان هذا الأمر يخالف ما أنزل الله، فأنا لا أستطيع اتباعك فيه."

.2الرسالة النفسية: التحرر من عقدة الخوف من كسر المألوف

· كثير من الناس يخافون من التميز .يخافون أن يقال عنهم: "شاذ، مختلف، خارج عن الجماعة" .هذه الآية تحررك من هذا الخوف .تقول لك: الأكثرية ليست دليل حق .كون "الناس كلها كده" لا يعني أنهم على صواب .قد يكون الشيطان هو الذي يقود هذه الأكثرية .ثق بأن الحق واحد، ولو كنت وحدك.

.3الرسالة العملية: ضابط العلاقة مع الوالدين والمجتمع

· الآية تقدم لنا الميزان العملي: احترم والديك، وصل رحمك، وعاشر مجتمعك بالمعروف .لكن عندما يتعلق الأمر بـ اتباع الحق، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .كما قال تعالى في الآية15 : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي ...فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ .هذه هي الموازنة التي تبني الشخصية السوية.

.4الرسالة الدينية: الإسلام دين بحث ونظر لا دين تقليد أعمى

· القرآن مليء بالآيات التي تذم التقليد الأعمى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ . الإسلام يريد منك أن تؤمن عن بينة، وأن تعمل عن علم .لا أن تكون نسخة مكررة من الماضي بلا وعي.

سادسًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة الاحتكام إلى الوحي

· في ثقافة المسلم، المرجعية العليا هي ما أنزل الله .لا العرف، ولا العادة، ولا رأي الجماعة، ولا تقليد الآباء .هذه الأشياء لها اعتبارها ما لم تصطدم بالوحي .فإن اصطدمت، قدّم الوحي بلا تردد .هذه هي السيادة الشرعية.

.2ثقافة النقد البناء للموروث

· ليس كل قديم صحيحًا، وليس كل جديد باطلًا .ثقافة المسلم تقوم على غربلة الموروث بمصفاة القرآن والسنة .نأخذ من آبائنا الخير والحكمة، ونترك ما خالف شرع الله .هذه الثقافة تحمي الأمة من التحجر ومن الانسلاخ معًا.

.3ثقافة الشجاعة في إعلان الحق

· هذه الآية تعطي المسلم شجاعة أدبية .قد يكون من الصعب جدًا أن تقول لأهلك وعشيرتك: "هذا الذي أنتم عليه خطأ" .لكن هذه هي التضحية المطلوبة لنيل رضا الله .ثقافة المسلم هي ثقافة: "قولوا الحق ولو على أنفسكم".

سابعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1تمرين "فلترة الموروث العائلي":
اجلس مع نفسك، واكتب قائمة بالعادات والتقاليد التي ورثتها عن أهلك) في الأفراح، في الأطعمة، في طريقة اللباس، في التعامل مع الجيران .(ثم اسأل عن كل واحدة: "هل هذا يرضي الله؟ هل يتوافق مع ما أنزل الله؟" ما كان موافقًا فاحتفظ به وافتخر به .وما كان مخالفًا، فخطط برفق وحكمة لتغييره.
.2تمرين "لماذا أفعل هذا؟":
قبل أن تؤدي أي عبادة أو عادة، تدرب على أن تسأل نفسك: "لماذا أفعل هذا؟".
· لماذا أصلي؟) لأن الله أمرني، ولأني بحاجة للصلة به، ولأنها تنهاني عن الفحشاء.(...
· لماذا أشارك في هذا العرس بهذه الطريقة؟) هل هي عادة حسنة أم سيئة؟.(
هذا السؤال يقتل التقليد الأعمى ويولد العبادة الواعية.
.3فن قول "لا" باحترام:
عندما يطلب منك والدك أو أحد كبراء العائلة فعل شيء مخالف للشرع، تعلم فن الرفض المهذب.
· لا تقل: "أنتم على خطأ، وأنتم في ضلال".
· بل قل: "يا أبي الغالي، والله إني أحبك وأخاف عليك، ولكن أخاف الله أكثر .دعني أعتذر عن هذا الأمر." ثم صاحبه بالمعروف في أمور أخرى .هذا الأسلوب يجمع بين البر والثبات على المبدأ.
.4حصن أبناءك ضد التقليد الأعمى:
عندما يقلد ابنك أصدقاءه في سلوك سيء، لا تكتفِ بالقول: "لا تفعل هذا" .بل اسأله: "لماذا فعلت هذا؟ لأن فلانًا فعله؟ وهل إذا فعل فلان شيئًا خاطئًا نفعله نحن؟" ازرع فيه منذ الصغر قاعدة الآية: نتبع ما أنزل الله، لا ما وجدنا عليه الناس.

الخلاصة: كسر الصنم

أيها القارئ الكريم،
لقد كشفت لنا هذه الآية عن صنم خفي يعبد في كل زمان ومكان: صنم الماضي والآباء. إنه الصنم الذي يمنع الناس من اتباع الحق وهم يرونه بأعينهم.
لقد أرانا الله منطقهم: ﴿بَلْ نتّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.
ثم أرانا الرد الذي يزلزل هذا المنطق: ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

هذه الآية هي إعلان تحرر. تحرر من عبودية العادات والتقاليد، وتحرر من الخوف من كلام الناس. إنها تضع بين يديك بوصلة الحق: ما أنزل الله.
فلا تكن أسيرًا لما وجدت عليه آباءك. كن ابن الحق، وابن الوحي، وابن الدليل.
نعم، أحب آباءك، واحترمهم، وبرهم، ولكن اجعل حبك لله ورسوله أعظم. وعندما تتعارض كلمة آبائك مع كلمة الله، فلتعلنها بكل شجاعة وثبات: "سمعنا وأطعنا... غفرانك ربنا وإليك المصير".
بذلك تخرج من زمرة المجادلين بغير علم، وتدخل في زمرة المحسنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.
المبحث الثالث.
أيها الباحث عن السعادة الحقيقية والطمأنينة الدائمة،

أيها الإنسان الذي يتقلب في أمواج الشكوك والفتن، يبحث عن مرساة تثبته،
أيها السائر في دروب الحياة، تتنازعه السبل، وتربكه الأصوات،
لقد رأينا في الآيات السابقة نموذجين من البشر:

· نموذج المجادل بغير علم: الذي يجادل في الله بغير هدى ولا كتاب منير.
· ونموذج المقلد الأعمى: الذي يرفض اتباع ما أنزل الله، ويصر على اتباع ما وجد عليه آباءه ولو كان الشيطان يقودهم إلى عذاب السعير.

والآن، بعد أن عرضت السورة نماذج الضلال والجحود، تفتح لنا صفحة مشرقة، وترسم لنا النموذج المقابل، النموذج الذي يستحق الاقتداء، والذي يمثل ثمرة كل الوصايا التي سبقت. إنه نموذج الإنسان الذي عرف ربه، فأسلم له وجهه، وأحسن في عمله، ففاز بـ العروة الوثقى.

تعالوا نعيش معًا هذه الآية الجامعة، التي هي بمثابة خاتمة المطاف للمحسنين، وبشارة الأمان للصادقين:
﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 22]

أولا ً: دلالة ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾.. الاستسلام الكامل والتوجه الخالص

تبدأ الآية الكريمة بشرط عظيم: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

إسلام الوجه تعبير بليغ يدل على كمال الخضوع والانقياد. الوجه هو أشرف أعضاء الإنسان، وهو مجمع الحواس (السمع والبصر والنطق)، وهو الذي يعلو سائر الجسد. فإذا أسلم الإنسان وجهه لله، فمن باب أولى أن يسلم له قلبه وجوارحه وسائر أمره. إنه التسليم المطلق، الذي لا يبقى معه تردد و لا مراوغة.

ولم يقل: "ومن يسلم نفسه" فحسب، بل قال: ﴿وَجْهَهُ﴾، للإشارة إلى أن هذا الإسلام هو إسلام توجه وقصد وإخلاص. فأنت قد تعطي بيدك، لكن وجهك متجه إلى غير الله. أما الذي أسلم وجهه، فهو الذي قصد الله بكل كيانه، وأخلص له العبادة، فلم يتوجه في أعماله وأقواله ونيته إلا إليه وحده.

اللمسة البلاغية:
تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يفيد الاختصاص والقصر. أي إلى الله وحده، لا إلى صنم، ولا إلى هوى، ولا إلى بشر، ولا إلى مصلحة دنيوية. فالإسلام المطلوب هو الإسلام الخالص من شوائب الشرك والرياء.

مثال واقعي من حياتنا اليوم:

· رجل يؤدي عمله بإتقان: إذا كان دافعه إرضاء مديره، أو الحصول على ترقية، أو الخوف من العقاب، فوجهه متجه إلى المخلوقين .أما إذا كان دافعه امتثال أمر الله بإتقان العمل، واستشعار مراقبته، فهو الذي أسلم وجهه لله في عمله.
· امرأة تلتزم بالحجاب: إذا كان دافعها عادة اجتماعية، أو خوفًا من أهلها، فوجهها متجه إلى العادات والناس .أما إذا كان دافعها طاعة لله وحده، وشعورًا بأن هذا هو الحق، فهي التي أسلمت وجهها لله.
· طالب يذاكر دروسه: إذا كان همه الدرجة والتفوق على أقرانه، فوجهه متجه إلى الشهادة .أما إذا نوى بطلب العلم نفع الأمة وخدمة دينه، وإرضاء الله، فقد أسلم وجهه لله في طلبه للعلم.
ثانيًا: دلالة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.. التلازم بين الإيمان والإتقان

لم يكتفِ القرآن بـ إسلام الوجه كموقف قلبي، بل أضاف إليه قيدًا عظيمًا: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

جملة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حالية. أي: أسلم وجهه لله والحال أنه محسن. وهذا يعني أن الإسلام القلبي لا ينفع وحده إن لم يترجم إلى إحسان عملي.
فمن قال: "أنا مسلم قلبي"، ولم يصلّ، ولم يزكِّ، ولم يحسن إلى الناس، فهو لم يستمسك بالعروة الوثقى بعد.
الإحسان هنا يشمل:

.1الإحسان في عبادة الله: بأن تعبد الله كأنك تراه.
.2الإحسان إلى الخلق: بالقول اللين، وبذل المعروف، وكف الأذى.

.3الإحسان في العمل الدنيوي: بإتقانه وتجويده.

وهذا يعيدنا إلى محور السورة الذي بدأت به: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ﴾. فمن أسلم وجهه لله وهو محسن، فهو من المحسنين الذين نزل القرآن هدى ورحمة لهم.

اللمسة البلاغية:
تأمل كيف جمعت الآية بين العبادة القلبية (إسلام الوجه) والعبادة العملية (الإحسان). إنها معادلة الكمال الإيماني: إخلاص النية + إتقان العمل. وهذا هو منهج الإسلام الذي يبني حضارة.

مثال واقعي (لنرى الفرق بين المسلم وجهه فقط والمسلم وجهه وهو محسن):

· شخصان يؤديان الصلاة: كلاهما أسلم وجهه لله بالوقوف بين يديه .لكن أحدهما يصلي بخشوع وطمأنينة، ويحافظ على وقتها، ويحسن وضوءها، فهو مُحسن .والآخر يصلي بسرعة كمن ينقر الديك، ويؤخرها عن وقتها، فهو مسلم وجهه لكنه ليس بمحسن .الأول هو الذي استمسك بالعروة الوثقى.
ثالثًا: دلالة ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾.. استعارة الثبات والأمان المطلق

وبعد هذا الشرط، يأتي جواب الشرط الذي هو غاية الأماني: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾.

الاستمساك يعني التمسك الشديد والقبض بقوة خوفًا من الانفلات.
العروة هي المقبض أو الحلقة التي يمسك بها من يريد أن يحمل شيئًا ثقيلًا أو يتعلق بشيء مرتفع.
الوثقى هي تأنيث الأوثق، وهو الأشد قوة وإحكامًا. فهي العروة التي لا تنفصم ولا تنقطع ولا تخون من تمسك بها.

إنها استعارة قرآنية بديعة ترسم صورة حسية للأمان الإيماني. المؤمن في بحر الحياة المتلاطم كـ الغريق، يحتاج إلى حبل نجاة يمسك به لينجو. فمن أسلم وجهه لله وأحسن، فكأن الله مدّ له حبلًا من السماء، طرفه الأعلى بيد الله القوي العزيز، وطرفه الأسفل بيد العبد. فمن تمسك بهذا الحبل، فقد نجا، ومن أفلته، فقد غرق.

ما هي هذه العروة الوثقى؟ قال كثير من المفسرين: هي لا إله إلا الله. فهي الكلمة التي من قالها موقنًا بها، فقد استمسك بأوثق عروة في الوجود. وقال آخرون: هي الإسلام أو القرآن. وكلها متقاربة، فمن أسلم وجهه لله وأحسن، فقد تمسك بـ دين الله القويم، وهو حبل النجاة.

مثال حسي تقريبي:
تخيل أنك على متن سفينة في عرض البحر، وهاجت العواصف، وكادت السفينة تنقلب. في هذه اللحظة، ما الذي تبحث عنه؟ تبحث عن عروة، أي شيء صلب تمسك به لئلا تسقط في الماء. ستمسك به بكل قوتك، بكلتا يديك، ولن تفلته أبدًا. الآية تقول لك: هذه العروة موجودة! إنها الإسلام والإحسان. تمسك بها، وستنجو من الغرق في بحر الدنيا والشهوات والفتن.
رابعًا: دلالة ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.. الطمأنينة النهائية في زمن الاضطراب

وتختم الآية بهذه الحقيقة الكبرى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

هذه الجملة بمثابة ختم الضمان على العروة الوثقى. كأنه يقول لك: "تمسك بهذه العروة، واثبت عليها، ولا تخف مما ترى من تقلب الأحوال، وعلو أهل الباطل، فإن العاقبة والمآل والمصير لله وحده، وإليه ترجع الأمور كلها في نهاية المطاف."

هذه الخاتمة تمنح المؤمن:

.1الصبر: لأنه يعلم أن ما يراه من ظلم الباطل هو مرحلة مؤقتة، وأن العاقبة للمتقين.
.2الثبات: لأنه يعلم أن من تمسك بالعروة الوثقى، فقد تمسك بـ طرف الخيط الذي بيد الله، ومن كان مع الله كان الله معه، والعاقبة له.
.3الطمأنينة: لأنه لا يخاف من غدر الأيام، ولا يقلق من مكر الأعداء، فالأمر كله بيد الله.

مثال واقعي من عصرنا:
مؤمن يعيش في مجتمع يضطهد فيه الملتزمون، ويسخر فيه من القيم الإسلامية. قد يشعر بالغربة و الضعف. لكن هذه الآية تذكره: لا تحزن، تمسك بالعروة الوثقى (دينك، أخلاقك، صلاتك)، وانتظر، فإن العاقبة لله. كم من حضارة باغية اندثرت، وكم من جبار طغى ثم صار في خبر كان، وبقي الحق

وأهله. هذه النظرة الاستراتيجية الإيمانية تمنح المؤمن قوة هائلة على التحمل.
خامسًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

1.الرسالة التربوية: التربية على الإخلاص والإتقان معًا

· الآية تعلمنا ألا نفصل بين نية القلب وعمل الجوارح .ربّ أبناءك على أن يسألوا أنفسهم قبل أي عمل: "لماذا أعمل هذا؟") إسلام الوجه .(و"كيف أعمل هذا؟") الإحسان .(هذا التكامل يبني شخصية متوازنة منتجة.

2.الرسالة النفسية: الأمان النفسي في زمن القلق

· القلق والتوتر من أمراض العصر .والإنسان يبحث عن الأمان في المال، أو المنصب، أو العلاقات، لكنها كلها عُرى واهية تنقطع .الآية ترشدنا إلى العروة الوثقى التي لا تنقطع .عندما تستمسك بالله، وتخلص له، وتحسن عملك، ستجد طمأنينة لا توصف .قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

3.الرسالة العملية: الإحسان في كل عمل

· الآية تجعل من الإحسان شرطًا للفوز بالعروة الوثقى .وهذا يعني أن المسلم لا يقبل بالعمل الناقص . سواء كان مهندسًا، أو طبيبًا، أو عاملًا، أو طالبًا، فعليه أن يتقن .الإتقان هو عبادة ودليل إخلاص .فمن كان محسنًا في عمله، كان ذلك علامة على إسلام وجهه لله.

4.الرسالة الدينية: الثبات حتى الممات

· ﴿اسْتَمْسَكَ﴾ تدل على القبض بقوة والثبات .الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو ثبات على الحق في وجه الفتن والشهوات والشبهات .وهذا الثبات هو الذي يميز الصادقين من المدعين.
سادسًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

1.ثقافة الإخلاص والتوجه إلى الله

· في ثقافة المسلم، النية هي الأساس .قبل أي عمل، يوجه وجهه لله .هذه الثقافة تحرره من التعلق بـ المخلوقين، وتجعله يعمل بإتقان حتى لو لم يره أحد، لأن من يعمل لأجله يراه.

2.ثقافة الإتقان والإحسان

· المجتمع المسلم هو مجتمع محسنين .لا مكان فيه للعمل الرديء أو الغش أو الإهمال .كل فرد في موقعه يؤدي عمله بإتقان، لأنه يرى ذلك دينًا وعبادة .هذه الثقافة هي التي تبني الحضارة.

3.ثقافة الثبات والاستمساك بالمبادئ

· المسلم لا يتلون، ولا يغير مبادئه مع كل ريح .هو مستمسك بالعروة الوثقى .هذه الثقافة تمنح المجتمع استقرارًا وتماسكًا، لأنه يقوم على قيم ثابتة لا تتغير.

4.ثقافة التفاؤل وحسن الظن بالله

· ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ تغرس في المسلم ثقافة التفاؤل .مهما اشتدت الأزمات، ومهما طال ليل الظلم، فهو واثق بأن العاقبة لله ولعباده المؤمنين .هذه النظرة تجعله إيجابيًا لا انهزاميًا.
سابعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

1.دعاء "إسلام الوجه" صباحًا ومساءً:
كان من دعاء النبي ﷺ: "اللهم إني أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك..." .اجعل هذا الدعاء وردًا يوميًا .عندما ترتدده، استحضر معنى إسلام الوجه، وتوجه بقلبك إلى الله.
2.تمرين "سؤال النية" قبل كل مهمة:
قبل أن تبدأ أي عمل) من أصغر عمل كالأكل والشرب، إلى أكبر مشروع(، اسأل نفسك: "هل أنا مسلم وجهي لله في هذا العمل؟" .هذا السؤال البسيط يحول حياتك كلها إلى عبادة، ويملؤها بالإخلاص.

.3تذكرة "العروة الوثقى" عند الشدائد:
عندما تمر بضيق أو هم أو فتنة، ضع يدك على صدرك، وقل لنفسك: "أنا مستمسك بالعروة الوثقى . لن أفلتها .فالعاقبة لله." هذا التذكير اللفظي والقلبي يمنحك قوة هائلة على تجاوز المحنة.
.4قاعدة "الإحسان" في تفاصيل حياتك:
في عملك، في دراستك، في علاقاتك، تعامل مع كل شيء بمعيار الإحسان .اسأل نفسك: "هل هذا العمل متقن؟ هل يمكن أن يكون أفضل؟" .كن محسنًا، تجد لذة الإيمان وحلاوته.

الخلاصة: قبضة النجاة

أيها القارئ الكريم،
في خضم حديث السورة عن المجادلين والمقلدين، تأتي هذه الآية لتكون طوق النجاة. إنها ترينا الطريق الوحيد للنجاة من الغرق في بحر الشبهات والشهوات: إسلام الوجه لله، والإحسان في العمل.

إنها دعوة لأن تمسك بـ حبل الله المتين بكلتا يديك، بكل قوتك، وألا تفلته أبدًا. فكل ما سواه من عُرى واهية: عروة المال، عروة الجاه، عروة التقاليد... كلها ستنقطع بك وتسقطك في الهاوية. أما هذه العروة، فإن طرفها بيد العزيز الحكيم، ولن تنقطع أبدًا.

فأقبل على ربك، وأسلم له وجهك، وأحسن في كل شأنك، واستمسك بهذه العروة الوثقى، وانتظر العاقبة الحميدة، فإنها إلى الله، وهو خير من وعد، وخير من وفى. بهذا تكون قد سجلت اسمك في ديوان المحسنين المفلحين، الذين هم على هدى من ربهم
المبحث الرابع .
أيها الداعية الذي يثقل صدره كفر من يدعوهم،
أيها المؤمن الذي يتألم قلبه لرؤية المعرضين عن الحق وهم يسبحون في بحر الغفلة،
أيها الإنسان الذي تستفزه مشاهد الباطل وهو ينتفش كالطاووس، فيتساءل: "إلى متى هذا الإمهال؟ ولماذا لا يعاجلهم الله بالعقاب؟"
بعد أن رسمت الآية السابقة صورة المستمسك بالعروة الوثقى، الفائز بالأمان والنجاة، تعود الآيتان اللتان بين أيدينا لترسما المشهد المقابل، وتجيبان على السؤال المحير: ما مصير من كفر؟ ولماذا يبدو أنهم في نعيم وترف رغم كفرهم؟ إنها آيات تثبيت وتسلية لقلب النبي ﷺ وقلوب الدعاة من بعده، وتكشف عن حقيقة المتاع الدنيوي الزائل، والعاقبة الوخيمة التي تنتظر الكافرين.

تعالوا نعش معًا هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تمنحان المؤمن برد اليقين، وتهدئان من روعه، وتجعلا نه ينظر إلى الدنيا بمنظار الآخرة:
﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 23-24]

أولا ً: دلالة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.. الانتقال من المثالية إلى الواقع المرير

تبدأ الآية بواو العطف: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن من أسلم وجهه لله وهو محسن، وفاز بالعروة الوثقى، تنتقل هنا إلى القسم المقابل: من كفر. وهذا أسلوب قرآني بديع: المقابلة بين الفريقين لتتضح الصورة، وليتبين المصير. لقد عُرض نموذج السعادة والنجاة، ويُعرض الآن نموذج الشقاء والهلاك. وكأن الآية تقول: "أيها الإنسان، انظر إلى الطريقين، واختر لنفسك أيهما تسلك."

الكفر هنا شامل لكل أنواع الكفر: كفر الجحود، وكفر النعمة، وكفر الإعراض، وكفر التكذيب. وكل من لم يسلم وجهه لله، ولم يحسن، فهو داخل في هذا الوعيد، إلا من كان معذورًا بجهل أو نحوه.
ثانيًا: دلالة ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾.. تسلية للداعية وتحرير له من التبعية العاطفية

وهنا تأتي الوصية الإلهية المباشرة للنبي ﷺ، ولكل داعية ومصلح من بعده: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾.

هذه الآية هي بلسم لقلب كل مؤمن مهموم. فالداعية المخلص، حين يرى الناس يعرضون عن الحق، ويختارون الضلال، قد يصيبه حزن عميق وهم شديد، ليس لأنه خائف على نفسه، بل لأنه مشفق عليهم، ويريد لهم النجاة. هذا الحزن دليل على صدقه وإخلاصه، لكن الله يريد أن يخفف عنه، ويذكره بأن مسؤوليته هي البلاغ، لا هداية القلوب.

النهي عن الحزن هنا لا يعني قسوة القلب، بل يعني:

.1لا تجعل حزنك عليهم يمنعك من أداء مهمتك: لا تيأس فتكف عن الدعوة.
.2لا تجعل حزنك عليهم يضر بصحتك النفسية: فأنت لم تخلق لتتحمل وزرهم.
.3لا تحزن وكأنك مسؤول عن اختيارهم: فاللّٰه لم يكلفك بهدايتهم، بل بالبلاغ فقط.

اللمسة البلاغية والنفسية:
قرئت بوجهين: ﴿يَحْزُنْكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، و﴿يَحْزَنْكَ﴾ بفتح الياء والزاي. والمعنى متقارب: لا يحزنك كفرهم، ولا يوقعك في الحزن. فاللّٰه يريد لعباده المؤمنين قلبًا سليمًا مطمئنًا، لا تحطمه هموم الضالين.

مثال واقعي من حياة الدعاة:

· أب يدعو ابنه للصلاة منذ سنوات ولا يستجيب: هذا الأب الحنون قد يصاب بإحباط وحزن شديد، ويشعر بالفشل. هذه الآية تخاطبه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾، أي: لا تحزن يا عبدي، أنت أديت ما عليك، وابنك حر في اختياره، وحسابه على اللّٰه. استمر في الدعاء له، وأحسن إليه، ولكن لا تترك الحزن يأكل قلبك.
· داعية على وسائل التواصل: ينشر الخير، ويرد عليه السفهاء بالسباب والاستهزاء. قد يشعر بالضيق: "لماذا يفعلون هذا؟ ألا يرون الحق؟" الآية تقول له: لا تحزن، فهذه طبيعة المعاندين، وحسابهم عند اللّٰه.
ثالثًا: دلالة ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾.. تأجيل الحساب إلى يوم الفصل

ثم تقدم الآية العلاج الجذري للحزن: تذكر يوم القيامة. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

هذه الجملة هي راحة قلب المؤمن. كأنه يقول له: "لا تحزن الآن، فأنت ترى حلقة صغيرة من مسلسل طويل. انتظر حتى تعرض الحلقة الأخيرة: يوم المرجع. هناك سترى بأم عينك كيف ينبأون بأعمالهم، وكيف يوفون جزاءهم."

﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾: أي نخبرهم بحقيقة أعمالهم، ونعرضها عليهم تفصيلًا. وهذا النبأ سيكون مصحوبًا بـ الإهانة والتوبيخ، أو الجزاء العادل. إنها محكمة العدل الإلهي التي لا يظلم فيها أحد.

مثال تقريبي:
تخيل أنك تشاهد مباراة رياضية، وفريق يلعب بخشونة ويغش الحكم، ويفوز في الدقائق الأولى. قد تغضب وتقول: "أين العدالة؟". لكن الحكم يؤجل العقاب إلى نهاية المباراة، حيث يعلن الأخطاء ويحتسب النتيجة النهائية. الحياة الدنيا هي الدقائق الأولى، ويوم القيامة هو إعلان النتيجة النهائية. فلا تتعجل.

رابعًا: دلالة ﴿إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.. الطمأنينة بأن الخفايا محسوبة

وتأتي الجملة التعليلية المطمئنة: ﴿إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ذات الصدور هي الأسرار الخفية، والنوايا الدفينة، والكفر المستكن، والحقد الدفين. اللّٰه لا يعلم فقط ظاهر الأعمال، بل يعلم ما تخفيه الصدور. وهذا يعني أن عدله مطلق، لأنه يحاسب على الظاهر و الباطن معًا. لن يفلت من عقابه من أظهر الإسلام وأبطن الكفر (المنافق). ولن يضيع أجر من أخفى إيمانه خوفًا من قومه.

هذه الآية تعطي المؤمن طمأنينة إضافية: "لا تحزن، فاللّٰه يعلم ما في صدورهم من عناد واستكبار، وما في صدرك من حرص وشفقة. وسيجازي كلا بما يستحق." إنها شهادة عليا بأن العدالة قادمة لا محالة.

خامسًا: دلالة ﴿ثُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾.. حقيقة المتاع الدنيوي الزائل

ثم تنتقل الآية الثانية لتشرح الحكمة من إمهالهم، وسبب عدم تعجيل العقاب: ﴿ثُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾.

التمتيع هو إعطاء المتعة واللذة. واللّٰه يخبر أنه يمتع الكافرين في الدنيا بما شاء من مال وبنين وصحة وجاه. لكنه قيد ذلك بوصفين:

.1 ﴿قَلِيلًا﴾: أي أن هذه المتعة قصيرة جدًا، مهما طالت في أعيننا .فماذا تساوي سبعون أو ثمانون سنة من متعة، مقابل خلود أبدي في العذاب؟ إنها فترة استدراج.
.2ضمير المتكلم ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾: فيه إشارة إلى أن هذا التمتيع هو بإرادة الله وتقديره، وليس لأنهم يستحقونه أو لأنهم أقوياء .إنه إمهال لا إهمال.

اللمسة البلاغية:
تأمل قوله: ﴿قَلِيلًا﴾، وهي نكرة للتقليل. مهما بلغ متاع الكافر من السعة، فهو قليل في ميزان الله، وقليل إذا قيس بما سيأتي من عذاب.

مثال واقعي:
شاب غني كافر، يمتلك القصور والسيارات، ويسافر حول العالم، ويمرح ويلهو. ينظر إليه بعض ضعاف الإيمان فيقولون: "انظر إليه، يعيش حياته! لو كان الله غاضبًا عليه لما أعطاه هذا كله." الآية ترد عليهم: لا تغتروا! هذا متاع قليل. كل ما عنده سيتركه عند الموت، وسينتقل إلى عذاب غليظ. بينما المؤمن الفقير الذي صبر على بلائه، سينتقل إلى جنات النعيم خالدًا فيها. فلينظر العاقل: من الرابح الحقيقي؟
سادسًا: دلالة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.. المشهد الأخير المفزع

وبعد هذا التمتيع القليل، تأتي النهاية الحتمية التي تزلزل القلوب: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ثم للتراخي الزمني، أي بعد انقضاء هذا المتاع القليل، تأتي الطامة.
﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ من الاضطرار، وهو الإكراه والإجبار. هؤلاء الذين كانوا في الدنيا مخيرين، يأتون إلى الآخرة مضطرين مجبورين، يساقون إلى النار سوقًا، لا يملكون لأنفسهم دفعًا ولا هربًا. يا للهول! لقد كانوا في الدنيا أحرارًا يختارون الكفر، فجاء يوم لا خيار لهم فيه، بل اضطرار إلى حيث لا يريدون.
﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: الغليظ هو الشديد الثقيل. إنه عذاب لا هوادة فيه، ولا راحة معه، ولا خروج منه. إنه عذاب جهنم، أعاذنا الله منها.

المقابلة القرآنية العجيبة:
تأمل كيف قابل الله بين حالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة:

· في الدنيا: تمتيع (لذة وراحة واختيار).
· في الآخرة: اضطرار (إكراه وإجبار).
· في الدنيا: قليل (مدة يسيرة).
· في الآخرة: غليظ (عذاب دائم ثقيل).

يا له من تصوير بليغ يرسم لوحة كاملة للمصير المأساوي!

مثال تقريبي (ليعيش القلب هذا المشهد):
تخيل سجينًا محكومًا عليه بالإعدام، يُعطى في زنزانته طعامًا شهيًا، وسريرًا وثيرًا، وتلفازًا يشاهد فيه ما يشاء... لمدة أسبوع واحد. هذا الأسبوع هو متاع قليل. وبعد الأسبوع، يؤخذ مضطرًا مكرهًا إلى حبل المشنقة، حيث الموت البطيء المؤلم. هل يغبط أحد هذا السجين على متاع أسبوعه؟ كلا! فكيف بالكافر الذي متع قليلًا في الدنيا، ثم يضطر إلى عذاب أبدي غليظ؟!
سابعًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآيتين

.1الرسالة التربوية: تدريب النفس على عدم التعلق بنتائج الدعوة

· الداعية يقدم الخير، لكن النتائج بيد الله. الآية تعلمنا أن لا نربط سعادتنا أو حزننا باستجابة الناس. مهمتنا البلاغ، والهداية من الله. هذا التحرر النفسي يمنح الداعية استمرارية وقوة.

.2الرسالة النفسية: علاج الحزن والقلق على الضالين

· كثير من الآباء والأمهات يصابون بالاكتئاب بسبب ضلال أبنائهم. هذه الآية علاج رباني: لا تحزن، أدِّ واجبك، واستمر في الدعاء، وكل أمرهم إلى الله. هذه النظرة تخفف الضغط النفسي، وتجعل الإنسان أكثر قدرة على الاستمرار في الإحسان إليهم.

.3الرسالة العملية: عدم الاغترار بزينة الكافرين

· الآية تبني فينا مناعة ضد الانهزام النفسي أمام بذخ الكافرين. عندما ترى قصورهم وسياراتهم، تذكر: متاع قليل. لا تغبطهم، بل اشفق عليهم. هذه النظرة العملية تمنع الحسد والاستلاب الثقافي.

4.الرسالة الدينية: الإيمان بعدالة الله المؤجلة

· الله لا يظلم مثقال ذرة. قد يمهل الكافرين، لكنه لا يهملهم. هذا الإيمان بالعدالة المؤجلة يمنح المؤمن الصبر على ابتلاءات الدنيا، والثقة بأن يوم الفصل قادم لا محالة.
ثامنًا: مفاهيم مركزية من الآيتين في بناء ثقافة المسلم

1.ثقافة الثبات وعدم الاستعجال

· ثقافة المسلم تقوم على النظرة البعيدة. لا يستعجل النتائج في الدنيا، ولا يحكم على الأمور بظواهرها. هو واثق بأن العاقبة للمتقين، وأن الكافرين في متاع قليل مهما بدا وضعهم قويًا.

2.ثقافة التفويض إلى الله

· من أعظم مظاهر الثقافة الإسلامية: تفويض الأمر إلى الله. أنا أعمل ما بوسعي، ثم أفوض النتائج إليه. هذه الثقافة تريح النفس، وتمنع الإحباط، وتجعل المسلم دائمًا في حالة توازن نفسي.

3.ثقافة الزهد في متاع الدنيا

· ليس معنى الزهد ترك الدنيا، بل عدم التعلق بها، وعدم الاغترار بمن أوتي منها. ثقافة المسلم تجعله يرى الدنيا على حقيقتها: دار ممر لا دار مقر. هذه النظرة تحرره من عبادة المادة.
تاسعًا: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا اليومي؟

1.تمرين "تفويض الأمر":
عندما تحزن لضلال قريب أو صديق، قل بقلبك: "اللهم إني فوضت أمره إليك. لا تحزنني بكفره، واهده إن كان فيه خير." هذا الدعاء يخفف عنك ثقل الهم، ويجعلك تواصل الدعاء له بقلب مطمئن.
2.تمرين "تذكر المتاع القليل":
عندما ترى مشهدًا لشخصية مشهورة كافرة تعيش في بذخ وترف، وتشعر بغيرة خفية، قل فورًا: "متاع قليل، ثم يضطرون إلى عذاب غليظ." هذا التذكير يبرد نار الحسد، ويرفع من همتك للعمل للآ خرة.
3.قاعدة "لا تحزن، بل اعمل":
لا تجعل الحزن على الواقع يمنعك من العمل لتغييره. إذا رأيت منكرًا، فلا تكتف بالحزن والتأوه. انهض، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، وكن إيجابيًا. الحزن السلبي يقتل الهمة، والعمل الإيجابي يحيي الأمة.
4.تأمل "ذات الصدور" في مراقبة نفسك:
تذكر أن الله عليم بذات الصدور. هذا يجعلك تراقب نيتك، وتطهر قلبك من الحسد والحقد والغل. فالظاهر قد يخدع الناس، لكن ذات الصدور لا تخفى على الله. فاجعل سريرتك كعلانيتك، أو خيرًا منها.

الخلاصة: راحة قلب المؤمن

أيها القارئ النبيل،
هاتان الآيتان هما نسيم الراحة الذي يهب على قلب كل مؤمن مهموم. إنهما تخبراننا بأن المعركة محسومة النتائج منذ الأزل: الفوز للمؤمنين، والخسران للكافرين. ما نراه في الدنيا هو مرحلة مؤقتة، جولة من جولات الصراع، ولكن النهاية مكتوبة: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

فلا تحزن أيها المؤمن، ولا تيأس أيها الداعية. بل امض في طريقك، ثابتًا على حقك، محسنًا في عملك، مستمسكًا بالعروة الوثقى. وكلما رأيت جبروت الباطل وانتفاشه، فقل بقلب واثق: "موعدنا يوم القيامة، وهناك يكون الفصل، إن الله عليم بذات الصدور."
بهذه الثقافة، نعيش الدنيا سادة لا أتباعًا، وآمرين بالمعروف لا محزونين مهمومين، واثقين بأن العاقبة لله ولعباده المتقين..
المبحث الخامس
أيها العاقل الذي تأبى فطرته إلا الإقرار بالخالق،
أيها الباحث عن الحقيقة وسط ضجيج المذاهب والآراء،

أيها المؤمن الذي يستغرب كيف يعترف الناس بالله ثم يشركون به،
لقد عرضت سورة لقمان نماذج متعددة من البشر: المجادل بغير علم، والمقلد للآباء، والمستمسك بـ العروة الوثقى، والكافر المتمتع القليل. والآن، في هاتين الآيتين الكريمتين، يضعنا القرآن أمام مفارقة عجيبة وتناقض مذهل يكشف عن عمق الجهل وضحالة الفكر لدى المشركين. إنهم يعترفون بألسنتهم بأن الله هو الخالق، ومع ذلك يعبدون غيره! إنها آيات تكشف الحقيقة الفطرية التي لا يمكن أن تمحى، وتبين منبع الضلال الحقيقي: إنه غياب العلم النافع والغفلة عن ملكية الله المطلقة.

تعالوا نعش معًا هاتين الآيتين اللتين توقظان العقل من سباته، وتعيدان الفطرة إلى نقائها الأول:
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25]
﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: 26]
أولا ً: دلالة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.. سؤال الفطرة الذي لا يملكون إلا الإقرار به

تبدأ الآية بقسم مقدر، وتوكيد مضاعف: اللام في ﴿وَلَئِن﴾ موطئة للقسم، وإن شرطية، ولام جواب القسم. كل هذه المؤكدات تشير إلى أن الجواب محسوم سلفًا، وأنهم لا يملكون إلا أن يقولوا كلمة الحق.

السؤال بسيط، مباشر، يخاطب الفطرة الإنسانية قبل العقل: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟
السماء والأرض: هما أعظم مشهدين يراهما الإنسان في كل لحظة. السماء مرفوعة بغير عمد، والأرض ممدودة مهيأة. هذا الكون العظيم، من الذي خلقه؟ هل خلقته الأصنام التي تنحتونها بأيديكم؟ هل خلقته الطبيعة العمياء؟ هل جاء صدفة؟ لا يمكن لعاقل أن ينسب هذا الإبداع البديع إلى غير الإله الواحد القهار.

اللمسة البلاغية:
تأمل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ بصيغة الماضي. الخلق فعل تام. لم يقل: "من يدبر" أو "من يرزق" لئلا يجدوا منفذًا للهرب. بل سألهم عن أصل الوجود، عن الإنشاء الأول. وهذا أمر لا يجرؤ أحد أن ينسبه لغير الله.

مثال واقعي (لنعيش هذا السؤال):
تخيل أنك تسير مع صديق لك، ورأيتما قصرًا مشيدًا، بأسواره وأبراجه وحدائقه. تسأله: "من بنى هذا القصر؟" هل يمكن أن يقول لك: "لا أحد، جاء هكذا صدفة!"؟ كلا! سيقول: "بناه فلان المهندس." فكيف بالسماء والأرض، وهما أعظم وأبدع من أي قصر؟! هذا هو منطق الآية.
ثانيًا: دلالة ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.. اعتراف المشركين بالخالق رغم شركهم

وجوابهم محسوم ومؤكد: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. اللام للتوكيد، ونون التوكيد الثقيلة. أي: والله ليقولنّ بألسنتهم: الله هو الخالق.
إنهم لا يستطيعون أن ينكروا هذه الحقيقة الفطرية. حتى أبو جهل وأشد المشركين عنادًا، لو سألته: "من خلقك وخلق السماوات والأرض؟" لقال: "الله". وهذا من عجيب أمرهم! كيف يجمعون بين الإقرار بالخالق وعبادة المخلوق؟!

هذا الاعتراف هو الحجة الدامغة عليهم. فالقرآن لا يجادلهم في وجود الله، فهذا أمر مفروغ منه، بل يجادلهم في توحيد الألوهية، أي في صرف العبادة لله وحده. إنهم يعترفون بأن الله هو الخالق، ومع ذلك يعبدون غيره! أليس هذا قمة التناقض؟

مثال واقعي معاصر:
كثير من الناس اليوم، إذا سألته: "من خلقك؟" قال: "الله". وإذا سألته: "من يرزقك؟" قال: "الله". ثم إذا جاء الأمر بالصلاة أو الحجاب أو ترك الربا، قال: "الظروف صعبة، المجتمع تغير، أنا حر في تصرفاتي!" أليس هذا هو نفس التناقض الذي كانت عليه قريش؟ إنه اعتراف بـ ربوبية الله مع رفض طاعته.
ثالثًا: دلالة ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.. إقامة الحجة وإظهار النعمة

بعد أن أقر المشركون بأن الله هو الخالق، يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

هذه الكلمة في هذا المقام تحمل عدة دلالات:

1. حمد على إقامة الحجة: أي: الحمد لله الذي أقررتم بألسنتكم بما يلزمكم التوحيد، فقامت عليكم الحجة.
2. حمد على نعمة الفطرة السليمة: أي: الحمد لله الذي فطركم على معرفته، حتى وإن كنتم مشركين،

فلم تنكروا وجوده بالكلية.
.3تعليم للمؤمنين: أي: احمدوا الله أن هداكم إلى التوحيد الكامل، بينما هؤلاء لم يتجاوزوا الاعتراف الفطري.

اللمسة البلاغية:
تأمل كيف أن الله أمر النبي أن يحمد الله أمامهم بعد اعترافهم. لم يقل: "قل لهم: قد أقررتم فأسلموا". بل حمد الله. وفيه إشارة إلى أن الحمد هو أول مراتب الشكر، وهو ما افتتحت به السورة: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾. فكأن الآية تقول: "إن اعترافهم بالخالق هو نعمة تستحق الحمد، فكيف بمن أخلص العبادة له؟"
رابعًا: دلالة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.. تشخيص الداء: الجهل وليس الجحود

وبعد الاعتراف، تأتي كلمة ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، لتكشف حقيقة الموقف: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لم يقل: "بل أكثرهم يجحدون" أو "يعاندون". بل قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾. هذا تشخيص دقيق للمشكلة: إنهم لا يعلمون لوازم ما اعترفوا به.
هم يعترفون بأن الله خالق السماوات والأرض، لكنهم لا يعلمون أن هذا الخالق يستحق العبادة وحده، ولا شريك له. إنها أزمة علم وفهم، وليست مجرد عناد. إنهم جهلة بحقيقة الألوهية. فلو علموا حق العلم أن الله هو الخالق، لعلموا أنه هو المستحق للعبادة دون سواه.

وهنا تظهر أهمية العلم الشرعي في الإسلام. فليس المطلوب فقط الاعتراف الفطري، بل العلم بما يترتب على هذا الاعتراف من توحيد وعبادة.

مثال واقعي (لتوضيح معنى "لا يعلمون"):
رجل يعرف أن النار تحرق، لكنه لا يعلم أن يده إذا وضعها في النار ستحترق. معرفته هنا ناقصة.
المشركون يعرفون أن الله خلقهم، لكنهم لا يعلمون أن هذه الخالقية تستوجب إفراده بالعبادة. هذا هو جهلهم الذي ذمهم الله به.
خامسًا:
الانتقال إلى الآية 26: دلالة ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.. بيان مقتضى الخالقية وهو الملكية المطلقة

بعد أن أقر المشركون بأن الله خالق السماوات والأرض، تأتي الآية التالية لتقرر النتيجة المنطقية لهذه الخالقية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

من خلق شيئًا فهو مالكه. وبما أن الله هو الخالق، فهو المالك لكل ما في السماوات والأرض. هذا يشمل:

· الأجرام السماوية: الشمس، القمر، النجوم.
· ما في الأرض: الجبال، البحار، الدواب، النبات، الإنسان، الأصنام التي يعبدونها!

نعم، حتى الأصنام التي يعبدونها هي ملك لله، مخلوقة من حجر أو خشب خلقه الله. فكيف يعبدون ما هو مملوك لله؟! هذا هو قمة الجهل والضلال.
تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ يفيد الاختصاص والقصر. فالملكية لله وحده، لا يشاركه فيها أحد.

مثال تقريبي:
تخيل أن صانعًا صنع كرسيًا، ثم جاء شخص وقال: "هذا الكرسي لي، وأنا أمر صانعه أن يجلس عليه!" هذا غير مقبول. فكيف بمن يعبد صنمًا من حجر، وهو ملك لله، ثم يزعم أنه يقربه إلى الله؟!
سادسًا:
دلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.. التحرر المطلق من الاحتياج إلى الخلق

وتختم الآية بهذا الإعلان العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿الْغَنِيُّ﴾: هو الذي لا يحتاج إلى شيء، وهو غني عن العالمين .لا يحتاج إلى عبادتكم، ولا إلى شكركم ، ولا إلى أصنامكم التي تزعمون أنها تقربكم إليه .هو غني بذاته عن كل ما سواه.
﴿الْحَمِيدُ﴾: هو المستحق للحمد بذاته، حتى لو لم يحمده أحد .فصفاته وأفعاله كلها محض كمال وجمال وحكمة.

الجمع بين الغني والحميد في هذا الموضع له دلالة عظيمة:

· الغنى ينفي عنه الحاجة إلى عبادتكم وأصنامكم.
· الحمد يثبت له استحقاق العبادة والشكر لذاته.
فاللّه لا يعبده الناس لأنه محتاج إليهم) فهو الغني(، بل يعبدونه لأنه أهل للعبادة) فهو الحميد .(هذه هي فلسفة العبادة في الإسلام: عبادة حب وشكر وإجلال، لا عبادة خوف من فقر أو طمع في غنى.

وهنا نعود إلى الآية 12: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. إنها نفس الخاتمة، لتؤكد أن غنى اللّه وحمده هو محور السورة. فثقافة المسلم تقوم على الاستغناء باللّه، وشكره عن حب وإخلاص.
سابعًا:
رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآيتين

1.الرسالة التربوية: أهمية العلم الشرعي بعد الإيمان الفطري

· الإيمان الفطري وحده لا يكفي .لا بد من العلم الذي يحول هذا الإيمان إلى عبادة صحيحة .الآية تقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .فعلينا أن نتعلم لوازم التوحيد، وماذا يعني أن اللّه هو الخالق، حتى نخلص له العبادة.

2.الرسالة النفسية: الشعور بالغنى باللّه والاستغناء عن الخلق

· إذا كان اللّه هو الغني، وأنت عبده، فأنت في حمى غني .لا تخف من فقر، ولا تذل لصاحب مال أو جاه .هذه الآية تمنحك عزة نفسية واستقلالًا ذاتيًا .من تعلق بالغني الحميد، أغناه اللّه عن الناس.

3.الرسالة العملية: مراجعة حياتنا بين الفطرة والتطبيق

· كثير منا يعترف بأن اللّه هو الخالق، لكنه في حياته العملية يعبد هواه أو ماله أو منصبه .الآية تدعونا إلى مراجعة صادقة: هل حياتنا العملية منسجمة مع اعترافنا الفطري؟ هل نعطي اللّه من العبادة والطاعة ما يليق بكونه الخالق المالك؟

4.الرسالة الدينية: الحمد في كل حال

· ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة جامعة .ينبغي أن تكون شعار المؤمن في كل لحظة .فهو يحمد اللّه على نعمة الفطرة، وعلى نعمة الهداية، وعلى نعمة قيام الحجة على الكافرين.
ثامنًا:
مفاهيم مركزية من الآيتين في بناء ثقافة المسلم

1.ثقافة التوحيد المبني على العلم والبرهان

· ثقافة المسلم ليست تقليدًا أعمى، ولا مجرد فطرة غامضة .إنها علم ويقين .المسلم يعلم لماذا يعبد اللّه: لأنه الخالق المالك الغني الحميد .هذا العلم يمنح عبادته قوة وثباتًا.

2.ثقافة الاستغناء باللّه

· المسلم لا يتسول الثناء من الناس، ولا يتذلل لغير اللّه .هو غني باللّه .هذه الثقافة تحرره من عقدة الاحتياج، وتجعله عزيزًا كريمًا .إنها ثقافة الأحرار لا العبيد.

3.ثقافة الحمد المستمر

· الحمد لله ليست مجرد كلمة تقال عند الفرح .إنها نظرة شاملة للحياة .المسلم يحمد اللّه في السراء والضراء، لأنه يعلم أن كل ما يأتي من الغني الحميد هو خير .هذه الثقافة تملأ القلب رضا وسعادة.
تاسعًا: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا اليومي؟

1.تدبر "سؤال الفطرة" كل صباح:
كل يوم، قل لنفسك: "من خلق السماوات والأرض؟" واجب: "اللّه" .ثم اسأل نفسك: "هل أنا أعيش

عبدًا لهذا الخالق العظيم؟ هل صلاتي، ومعاملاتي، وأخلاقي تليق بعبوديته؟" هذا السؤال اليومي يجدد إيمانك ويضبط سلوكك.
.2تمرين "ماذا لو كنت مكانهم؟":
اقرأ الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلتَهُم﴾ وتخيل لو سُئلت أنت .هم اعترفوا بالخالق وكفروا .فهل أنت اعترفت بـ الخالق وآمنت به حق الإيمان؟ احمد الله أن هداك للإسلام، واجعله دافعًا لمزيد من الشكر.
.3استحضار "الغني الحميد" عند الشعور بالحاجة:
إذا شعرت بحاجة إلى مال، أو إلى حب الناس، أو إلى تقديرهم، قل: "إن الله هو الغني الحميد" . هو الغني، فاطلب منه الغنى .وهو الحميد، فاطلب منه الثناء .لا تطلب الغنى والثناء من الفقراء المذمومين.
.4تعليم الأطفال "من خلقك؟":
في التربية، ابدأ مع أطفالك بهذا السؤال القرآني: "من خلقك؟ من خلق السماء؟ من خلق الشمس؟" إذا قالوا: "الله"، فقل لهم: "الحمد لله" .ثم علمهم: "ما دام الله هو الذي خلقنا، فعلينا أن نطيعه ونحبه." هذه هي التربية الإيمانية المتدرجة.

الخلاصة: حجة الفطرة

أيها القارئ النبيل،
لقد كشفت لنا هاتان الآيتان عن الحجة البالغة التي لا يملك أحد دفعها: الفطرة الإنسانية. كل إنسان، مهما بلغ كفره وعناده، يحمل في أعماقه شهادة بأن الله هو الخالق. لكن المشكلة أن أكثرهم لا يعلمون ما يترتب على هذه الشهادة.

ونحن، وقد أنعم الله علينا بالإسلام والعلم، ينبغي أن نعيش هذه الحقيقة بكل أبعادها: نعترف بالخالق، ونعلم لوازم هذا الاعتراف، فنفرده بالعبادة، ونستغني به عن كل ما سواه، ونحمده في كل حال.
بذلك نكون قد وصلنا إلى لب التوحيد، وأسسنا ثقافة إسلامية نقية، لا تشوبها شوائب الشرك الخفي أو الجلي. وندخل في زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين وعدهم الله جنات النعيم، جزاءً بما كانوا يعملون.
المبحث السادس
أيها الإنسان المحدود الذي قد يغتر بقلمه وعلمه،
أيها العبد الذي يقف حائرًا أمام عظمة خالقه، فيحاول أن يحيط بصفاته بعقله القاصر،
أيها الباحث عن الحقيقة، المتعطش لمعرفة الله، الذي يسأل: "من هو الله؟ وما هي كلماته؟ وأين تنتهي عظمته؟"
بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن خالقية الله وملكيته وغناه المطلق، تأتي هذه الآية العظيمة لتفتح لنا نافذة على سعة علم الله وكلماته التي لا نهاية لها. إنها آية تزلزل كبرياء الإنسان، وتذكره بضآلته أمام عظمة الخالق. إنها آية تزرع في القلب الهيبة والخشية، وتدعو إلى التواضع المعرفي، وتقطع الطريق على كل من يظن أنه أحاط بشيء من علم الله.

تعالوا نعش معًا هذه الآية التي تجعل العقل يسبح في ملكوت الله اللامتناهي، وتجعل القلب يخشع لجلاله وعظمته:
﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27]

أولا ً: دلالة ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾.. استحضار صورة حسية لعظمة لا متناهية

تبدأ الآية بأداة الشرط ﴿لَوْ﴾ الامتناعية، لتفترض أمرًا مستحيلا ً في الواقع، لكنه يصور للعقل حقيقة عظمى. ﴿أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾.
تخيل معي هذا المشهد العجيب: كل شجرة على وجه الأرض، منذ بدء الخليقة إلى نهايتها، في كل الغابات والسهول والجبال، تحولت إلى أقلام. ليس قلمًا واحدًا، بل كل غصن، وكل عود، صار قلمًا يكتب. كم شجرة في الأرض؟ المليارات! هذا العدد الهائل من الأقلام، لو اجتمعت كلها، وبدأت تكتب... ماذا تكتب؟ تكتب كلمات الله.

اللمسة البلاغية:
استخدام ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بصيغة المفرد الجنسي ليشمل كل شجرة على الإطلاق. فكل ما يصدق عليه اسم "شجرة" في الوجود، تحول إلى أقلام. هذا أسلوب المبالغة التصويرية الذي يجعل المشهد حيًا في الذهن، ويهيئ النفس لتلقي الحقيقة الكبرى.

مثال واقعي (لنعيش ضخامة الصورة):
تخيل أنك واقف في غابة الأمازون، وكل شجرة حولك تحولت فجأة إلى حزمة من الأقلام. ثم تخيل أن هذا حدث في كل غابات العالم، وفي كل حديقة، وفي كل رصيف فيه شجرة. كم سيكون عدد الأقلام؟ رقم يفوق الخيال. ومع ذلك، فإن الآية تقول: كل هذه الأقلام، لو كتبت، لن تنفد كلمات الله!
ثانيًا: دلالة ﴿وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾.. المداد الذي لا ينضب

ثم تأتي الصورة الثانية الموازية: مداد هذه الأقلام. ﴿وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾.
البحر هنا هو المحيط العظيم، بكل مياهه التي لا يحصيها إلا الله. هذا البحر يتحول إلى حبر تكتب به تلك الأقلام. ولكن هذا البحر وحده لا يكفي، بل يمده، أي يزيده ويمد في كميته، سبعة أبحر أخرى من بعده. والرقم سبعة في اللغة العربية قد يأتي لإفادة الكثرة المطلقة، أي أبحرًا كثيرة جدًا لا حصر لها.

تخيل مياه المحيطات كلها تتحول إلى حبر أسود، والأقلام (كل أشجار الأرض) تغمس فيه وتكتب... ومع ذلك، يأتي الجواب الصاعق: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾.

اللمسة البلاغية:
استخدام ﴿يَمُدُّهُ﴾ بصيغة المضارع يدل على التجدد والاستمرار. فالحبر لا ينقطع، بل يتجدد ويزداد. هذا المشهد الحسي الهائل يجعل العقل يدرك أن ثمة شيئًا لا نهائيًا لا يمكن الإحاطة به.

مثال واقعي (لنعيش عظمة المشهد):
تخيل أنك أتيت بكل مياه المحيط الأطلسي، ثم أضفت إليها المحيط الهادئ، والهندي، والمتجمد... سبعة محيطات كاملة. كلها حبر. وكل أشجار الأرض أقلام. الآن ابدأ الكتابة. ستكتب مليارات الكلمات. ستنفد الأقلام وتتحطم، وسيجف الحبر وينتهي، ولكن كلمات الله لم تنفد بعد! إنه مشهد يجعلك تشعر بالدوار أمام عظمة الخالق.
ثالثًا: دلالة ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾.. اللامتناهي في مواجهة المتناهي

هذا هو جواب الشرط، وهذا هو بيت القصيد: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾.
النفاد هو الفناء والانتهاء. كل ما في الكون متناهٍ محدود: الأشجار متناهية، والبحار متناهية، والأقلام متناهية، والمداد متناهٍ. ولكن كلمات الله غير متناهية، لا نهاية لها. مهما كتبت الأقلام، ومهما استمدت من البحار، فإن كلمات الله أعظم وأوسع وأكثر من أن يحصرها شيء.

ما هي كلمات الله؟
اختلف المفسرون في المراد بـ "كلمات الله"، وكلها معانٍ صحيحة متداخلة:

1. علمه وحكمته: فالله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. هذا العلم لا نهاية له.
2. مقدوراته وعجائب خلقه: فكل ما خلقه الله ويخلقه هو كلمة من كلماته: "كن فيكون". ومخلوقاته لا تعد ولا تحصى.
3. وحيه وكتبه: فالقرآن الكريم كلام الله، وهو بحر لا ساحل له من المعاني والحكم. وما أنزل الله من الكتب السابقة جزء من كلماته.
4. صفاته وأسماؤه: فكل صفة من صفاته كمال لا نهاية له.

فالآية تفتح لنا باب التأمل في لانهاية الله. إنها تقول: لا تحاولوا أن تحيطوا بالله علمًا، ولا تقيسوا عظمته بمقاييسكم المحدودة.

مثال تقريبي (للتمييز بين المتناهي واللامتناهي):
تخيل أنك تقف على شاطئ البحر، وتغرف بيدك كوبًا من الماء. هذا الكوب هو ما تعلمته عن الله. أما البحر فهو كلمات الله التي لا تنفد. مهما تعلمت، ومهما قرأت، ومهما بحثت، فلن تزيد حصيلتك عن كوب صغير من بحر عظيم. وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].
رابعًا: دلالة ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.. ختام يتناسب مع جلال المعنى

وتختم الآية بهذين الاسمين الجليلين: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ما علاقة العزة والحكمة بسعة كلمات الله؟

1. ﴿عَزِيزٌ﴾: أي غالب قوي لا يعجزه شيء. فكون كلماته لا تنفد هو مظهر من مظاهر عزته. العاجز هو

من تنفد كلماته، أما العزيز فكلماته دائمة لا تنتهي.
.2﴿حَكِيمٌ﴾: أي يضع كل شيء في موضعه .فكل كلمة من كلماته) سواء كانت تكوينًا لمخلوق، أو آية في كتابه، أو قضاءً في خلقه (هي في غاية الحكمة والإتقان .وكثرة هذه الكلمات لا تعني العبث، بل تعني سعة الحكمة وكمالها.

فهذا الختام يربط بين كثرة الكلمات وعزة قائلها وحكمته. إنها ليست كثرة فارغة، بل كثرة نابعة من العزة ومصحوبة بالحكمة.

الربط بالآيات السابقة:
في الآية 9 وصف الله نفسه بـ ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾. وهنا أيضًا. وهذا يؤكد أن سورة لقمان تدور حول عزة الله وحكمته. فمن عرف عزة الله وحكمته، أسلم وجهه له، واستمسك بالعروة الوثقى، ووحدّه، وشكره. ومن جهل ذلك، جادل بغير علم، وكفر، واتبع هواه.
خامسًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: التواضع المعرفي

· الآية تربي فينا التواضع العلمي .مهما تعلمت، ومهما حصلت من شهادات، فأنت لا تزال تغرف من بحر علم الله .لا تغتر بعلمك، ولا تحتقر جهل غيرك .فالله هو العليم، وأنت الجاهل إلا ما علمك.

.2الرسالة النفسية: الطمأنينة بأن الله لا يحيط به شيء

· كثير من الناس يشعر بالقلق من "المجهول" .لكن الآية تمنحك طمأنينة: الكون بأسره في قبضة الله . لا يوجد شيء خارج علمه .هو يعلم ما كان وما سيكون .فاطمئن، فأنت في رعاية من وسعت كلماته كل شيء.

.3الرسالة العملية: استمرار التعلم والبحث

· إذا كانت كلمات الله لا تنفد، فهذا يعني أن طلب العلم لا ينتهي .لا تقل: "وصلت إلى نهاية العلم في تخصصي" .ففي كل يوم تكتشف البشرية جديدًا في خلق الله .استمر في التعلم والتفكر، فهذا من أعظم العبادات.

.4الرسالة الدينية: تعظيم القرآن وتدبره

· القرآن الكريم هو كلام الله، وهو جزء من كلماته التي لا تنفد .هذه الآية تدفعنا إلى تعظيم القرآن، والغوص في بحر معانيه .فكلما قرأت آية، وجدت فيها معنى جديدًا .وهذا مصداق قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾] الكهف:.[109
سادسًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة التواضع أمام عظمة الله

· المسلم لا يتكبر بعلمه، لأنه يعلم أن علمه قطرة في بحر .هذه الثقافة تجعله متواضعًا مع الله ومع الخلق، وتفتح له أبواب الحكمة .فمن تواضع لله رفعه.

.2ثقافة التفكر والتدبر في خلق الله وكلماته

· المسلم دائم التفكر .ينظر إلى الطبيعة، وإلى آيات القرآن، ويتأمل .هذه الثقافة تجعل إيمانه حيًا متجددًا .فهو لا يقرأ القرآن قراءة سطحية، بل يتدبره، لأنه يعلم أن فيه من الحكم ما لا ينفد.

.3ثقافة الثقة في قدرة الله وحكمته

· إذا كان الله عزيزًا حكيمًا، وكلماته لا تنفد، فهو قادر على كل شيء، وحكيم في كل ما يفعل .هذه الثقافة تمنح المسلم ثقة مطلقة في تدبير الله .فلا يجزع من البلاء، ولا ييأس من الفرج.
سابعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1تمرين "التأمل في سعة علم الله":
كلما قرأت خبرًا عن اكتشاف علمي جديد) مجرات جديدة، أنواع جديدة من الكائنات، حقائق

فيزيائية(، قل: "سبحان الله! هذه من كلماته التي لا تنفد." هذا يربط العلم الحديث بالإيمان، ويزيدك خشية لله.
.2تمرين "التدبر في معاني القرآن":
خذ آية من القرآن، وحاول أن تتدبرها بعمق .اقرأ تفسيرها، واسأل عنها أهل العلم .ستجد أنك كلما تعمقت، انفتحت لك معانٍ جديدة .هذا التمرين يجعلك تعيش معنى "كلمات الله لا تنفد" في حياتك اليومية.
.3تذكرة "التواضع العلمي":
عندما تشعر بالغرور بسبب شهادتك أو معرفتك، تذكر هذه الآية .قل لنفسك: "ما أعلمه أقل من قطرة في محيط .الله أعلم، وأنا لا أعلم." هذا التواضع يزيدك رفعة عند الله وعند الناس.
.4استحضار "عزة الله وحكمته" عند الحيرة:
إذا واجهت موقفًا لا تفهم حكمته، أو حكمًا شرعيًا لم تدرك سره، تذكر: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .قد تخفى عليك الحكمة، ولكنها ثابتة عند الله .ثق بحكمته، وامتثل لأمره، فسيشرح الله صدرك.

الخلاصة: العظمة التي لا تحد

أيها القارئ الكريم،
لقد فتحت لنا هذه الآية نافذة على اللامتناهي. لقد أرانا الله بمثال حسي بسيط، كيف أن كل ما في الكون من موارد لو اجتمعت، لعجزت عن الإحاطة بكلماته. إنها آية تزرع في القلب خشية وإجلالا ً، وتزرع في العقل تواضعًا واندهاشًا.
لقد بدأت السورة بـ الكتاب الحكيم، وها هي تختم هذا المقطع بتذكيرنا بأن كلمات الله لا تنفد. ف القرآن الكريم هو من تلك الكلمات، وهو بحر لا ساحل له. فاغترف منه ما استطعت، وتدبره، واعمل به، واعلم أن ما خفي عليك أعظم مما أدركت.
كن عبدًا للعزيز الحكيم، الذي وسعت كلماته كل شيء، ولا يحيط به شيء. بذلك تكون قد وضعت قدمك على أول طريق الحكمة، طريق لقمان الذي علم ابنه أن يشكر الله، ويعبده حق عبادته، وأن يعيش في هذه الدنيا على يقين من أن ربه عزيز حكيم، لا تنفد كلماته، ولا يضيع من آمن به وعمل صالحًا

المبحث السابع

أيها الإنسان الذي قد يستبعد في عقله القاصر أن يعود إلى الحياة بعد الموت،
أيها العبد الذي يرى المليارات من البشر، فيظن أن إعادتهم بعد الفناء أمر عسير،
أيها المؤمن الذي يبحث عن طمأنينة القلب بصدق وعد الله،
بعد أن عرضت الآية السابقة سعة كلمات الله وعزة حكمته، تأتي هذه الآية لتطمئن القلوب، وتزيل الشكوك، وتجيب عن سؤال قد يتردد في الخفاء: كيف يبعث الله كل هؤلاء الناس منذ آدم إلى يوم القيامة؟ أليس ذلك بأمر عظيم يحتاج إلى دهور؟ فتجيب الآية بكل بساطة وقوة: الأمر على الله يسير. إنه خلقكم أول مرة، وبعثكم بعد الموت، كخلق وبعث نفس واحدة. لا فرق عنده بين قليل وكثير، بين صغير وكبير. فسبحانه من إله عظيم، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

تعالوا نعش معًا هذه الآية التي تمنح القلب يقينًا وطمأنينة، وتجعله يستعد للقاء الله بلا خوف ولا وجل:
﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28]

أولا ً: دلالة ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.. جمع الناس كلهم في خطاب واحد

تبدأ الآية بخطاب عام شامل لكل البشر: ﴿خَلْقُكُمْ﴾ و﴿بَعْثُكُمْ﴾. الضمير ﴿كُمْ﴾ يعود على جميع الناس من لدن آدم إلى آخر مولود تقوم عليه الساعة. إنه خطاب يجمع القرون الأولى والآخرة في كلمة واحدة. وكأن الآية تريد أن تستحضر في ذهنك هذا الحشد الهائل من البشر: المليارات والمليارات من النفوس، الذين عاشوا على وجه الأرض، والذين سيعيشون. قد يتساءل العقل: "كيف يخلقهم الله جميعًا؟ وكيف يبعثهم بعد الموت جميعًا؟"

اللمسة البلاغية:
استخدام صيغة الجمع ﴿خَلْقُكُمْ﴾ و﴿بَعْثُكُمْ﴾ يشير إلى الكثرة الهائلة. فالبشر ليسوا أمة واحدة ولا جيلا ً واحدًا، بل أمم وأجيال لا يحصيهم إلا الله. وهذا التذكير بالكثرة يهيئ الذهن لاستقبال المعجزة: كيف يسوّي الله بين هذه الكثرة التي لا تحصى، وبين خلق نفس واحدة؟!
ثانيًا: دلالة ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.. أسلوب القصر الذي يزلزل العقول

وهنا يأتي أسلوب القصر الذي لا يدع مجالا ً للشك: ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

﴿مَا ... إِلَّا﴾ أداة حصر .فاللّٰه يقصر ويحصر خلق جميع الناس وبعثهم في مرتبة كنفس واحدة .أي: ليس خلقكم وبعثكم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها .لا فرق عند اللّٰه بين أن يخلق نفسًا واحدة، وأن يخلق مليارات الأنفس .الكل عنده سواء من حيث سهولة الفعل ويسر التكوين.

هذا التشبيه ليس للتقليل من شأن البشر، بل لبيان كمال قدرة اللّٰه ونفي الاستبعاد. إنه رد على المشركين الذين قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3]. فرد اللّٰه عليهم: "ليس ببعيد، بل هو قريب يسير. فبعثكم جميعًا عند اللّٰه كبعث نفس واحدة."

اللمسة البلاغية:
تأمل كلمة ﴿كَنَفْسٍ﴾، وهي نكرة في سياق التشبيه. والنكرة هنا تفيد التحقير والتقليل بالنسبة إلى قدرة اللّٰه. أي: أيُّ نفسٍ كانت، لا تختلف عند اللّٰه عن نفوس العالمين. إنه إعلان عن لانهائية القدرة ا لإلهية.

ثالثًا: الربط بين الخلق والبعث.. تساوي البداية والنهاية في القدرة

جمعت الآية بين الخلق (النشأة الأولى) والبعث (النشأة الأخرى). لماذا هذا الجمع؟

.1لإثبات أن البعث ليس أصعب من الخلق الأول: بل هو أهون .قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾] الروم: .[27 فإذا كنتم تقرون بأن اللّٰه خلقكم أول مرة، فلماذا تستبعدون أن يعيدكم مرة أخرى؟ الخلق الأول دليل على قدرته على الخلق الثاني.
.2لإزالة شبهة الاستبعاد: فالمشركون كانوا يستبعدون البعث، ولكنهم لم يكونوا يستبعدون الخلق الأول)كما في الآية25 : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .(فالآية تقول لهم: "ما دام الخلق الأول من اللّٰه، فالبعث كذلك."

مثال واقعي تقريبي (لتوضيح سهولة الأمر على اللّٰه):
تخيل مهندسًا برمجيًا عبقريًا، صنع لعبة فيديو معقدة جدًا، تحوي مليارات الشخصيات الافتراضية، ولكل شخصية سماتها وحركاتها. هذا المهندس بضغطة زر واحدة، يخلق هذه المليارات من الشخصيات، وبضغطة زر واحدة، يمكنه أن يعيد تشغيل اللعبة من البداية بعد نهايتها. خلقهم وإعادتهم عنده سواء، لا يكلفه إلا أمرًا واحدًا: كن فيكون. فاللّٰه سبحانه، خالق كل شيء، إذا أراد أمرًا قال له: كن فيكون. لا يحتاج إلى وقت، ولا إلى جهد، ولا إلى مواد خام. إنه القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.
رابعًا: دلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.. الربط بين صفات السمع والبصر وقضية البعث

تأتي خاتمة الآية بهذين الاسمين الجليلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. ما علاقة السمع والبصر بالخلق و البعث؟

.1إثبات الإحاطة التامة بالخلق: اللّٰه سميع لأصواتكم ودعائكم، بصير بأعمالكم وحركاتكم .وهو الذي أحصى كل شيء .فكما أن سمعه وبصره محيطان بكل مخلوق على انفراد، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا بصر عن بصر، فكذلك خلقه وبعثه لهم جميعًا .لا يشغله خلق نفس عن نفس، ولا بعث أمة عن أمة .قدرته كاملة كسمعه وبصره.
.2التهديد والوعيد للكافرين: الآية تذكر المكذبين بالبعث بأن اللّٰه سميع لأقوالهم التي ينكرون بها البعث، وبصير بأعمالهم التي يستحقون بها العذاب .وسيسمع صراخهم يوم القيامة، وسيراهم وهم يساقون إلى النار.
.3البشارة للمؤمنين: المؤمنون الذين يرجون لقاء اللّٰه، سمع اللّٰه دعاءهم، ورأى طاعتهم، وسيجزيهم بها يوم البعث .فوجود هذين الاسمين يمنح المؤمن أنسًا وطمأنينة.

الربط بالآيات السابقة:
في الآية 16 قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. وفي الآية 22: ﴿إِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. وهنا: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. كلها أسماء وصفات تؤكد إحاطة اللّٰه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعدله في كل شيء. فسورة لقمان تبني ثقافة اليقين باللّٰه وصفاته.
خامسًا: مثال واقعي معاصر لتقريب معنى الآية

تخيل أنك تقف في ساحة شاسعة جدًا، مليئة بمليارات كرات البلياردو (البلالي). وتريد أن تحركها كلها في نفس اللحظة، وبنفس القوة، وبنفس الاتجاه. هذا أمر مستحيل على البشر. لكن الآية تقول لك: اللّٰه يفعل هذا وأعظم. خلق المليارات من البشر، وإعادتهم يوم القيامة، أسهل عليه من تحريك كرة واحدة. بل إن قوله: ﴿كُن﴾ واحدة تكفي لخلقهم وبعثهم جميعًا. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن

يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].
سادسًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: ترسيخ عقيدة البعث في النفوس

· الآية تعالج جذور الشك في البعث .كثير من الناس) خاصة الشباب (قد تراودهم أسئلة: "كيف نبعث بعد أن نصير ترابًا؟ كيف يجمع الله كل هؤلاء؟" .هذه الآية إجابة شافية: الأمر هيّن على الله .فعلينا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على هذا اليقين.

.2الرسالة النفسية: تخفيف رهبة الموت والبعث

· بعض الناس يخاف من يوم القيامة، ليس فقط من الحساب، بل من هول الموقف نفسه: الحشر، و الزحام، والبعث .الآية تخفف من هذا الهول النفسي: البعث ذاته ليس صعبًا على الله، فهو كبعث نفس واحدة .فاطمئن، فالله قادر على أن يجعل هذا اليوم عليك يسيرًا إذا كنت من المتقين.

.3الرسالة العملية: الاستعداد للقاء الله في كل لحظة

· إذا كان البعث كنفس واحدة، فهذا يعني أنه قريب .لا تستبعد قيام الساعة، ولا تقل: "باقي على الحساب زمان" .فالموت هو بعثك الخاص .عش حياتك وأنت مستعد للقاء الله في أي لحظة.

.4الرسالة الدينية: عدم استبعاد قدرة الله

· لا تقل عن أي شيء: "هذا مستحيل" .فالله على كل شيء قدير .هذه الآية توسع أفق المؤمن، وتجعله واثقًا بقدرة الله المطلقة .فلا ييأس من رحمة الله، ولا يستبعد فرجًا أو نصرًا.
سابعًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة اليقين بالآخرة

· المسلم يعيش في الدنيا وهو موقن أن الآخرة آتية لا ريب فيها .هذا اليقين ينعكس على سلوكه وأخلاقه .فهو لا يغتر بالدنيا، ولا يظلم الناس، لأنه يعلم أن هناك بعثًا وحسابًا.

.2ثقافة التعظيم لقدرة الله

· المسلم إذا نظر إلى السماء والأرض، وإلى خلق البشر، ازداد تعظيمًا لله .فهو لا ينظر إلى الكثرة على أنها صعبة على الله .هذه الثقافة تجعله متواضعًا أمام عظمة الله، وواثقًا في تدبيره.

.3ثقافة المراقبة لله السميع البصير

· بما أن الله سميع بصير، فهو يراقبني ويسمعني .هذه الثقافة تجعل المسلم محسنًا في عبادته ومعام لاته .فهو يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.
ثامنًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1تمرين "تذكر البعث":
كلما رأيت حشدًا كبيرًا من الناس) في سوق، أو ملعب، أو حج(، تذكر هذه الآية .قل في نفسك: "بعث هؤلاء جميعًا يوم القيامة على الله كبعث نفس واحدة." هذا التمرين يجعل عقيدة البعث حية في قلبك.
.2علاج "استبعاد الخير أو النصر":
إذا كنت تمر بضيق، أو ترى ظلمًا، وتستبعد أن يأتي الفرج، تذكر: "ما خلق هؤلاء الظالمين ولا بعثهم إلا كنفس واحدة .فإهلاكهم وتغيير الحال أسهل وأسهل." هذا يمنحك أملا ً وثقة في نصر الله.
.3دعاء "يا سميع يا بصير":
اجعل من دعائك اليومي: "يا سميع يا بصير، يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا بصر عن بصر، أسألك أن تسمع دعائي، وترى حاجتي، وتيسر بعثي وحسابي." هذا الدعاء يربطك بالله، ويشعرك بمعيته.
.4مراقبة "السميع البصير":
قبل أن تقول كلمة، تذكر أن الله سميع .وقبل أن تفعل فعلا ً، تذكر أن الله بصير .هذه المراقبة

تحميك من الوقوع في المعاصي، وتدفعك إلى الإحسان في كل عمل.

الخلاصة: بعث كن فيكون

أيها القارئ الكريم،
لقد أراد الله بهذه الآية أن يريح عقولنا وقلوبنا. فلا نتعب أنفسنا في تصور كيفية البعث، ولا نستبعد وقوعه. فالله الذي خلق المليارات من البشر، والذي وسعت كلماته كل شيء، لا يعجزه أن يعيدهم جميعًا في طرفة عين. ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.
فاستعد لهذا اليوم العظيم. آمن بأن الله سميع بصير. واجعل حياتك كلها استعدادًا للقائه. فهو القائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].
بذلك تنضم إلى ركب المحسنين الذين وعدهم الله جنات النعيم، وتكون من المفلحين الذين فازوا برضوان الله. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

المبحث الثامن

أيها الإنسان الذي يغفل عن آيات الله وهي تتجلى أمامه كل لحظة،
أيها العبد الذي يسأل: "ما الدليل على أن الله هو الحق وغيره باطل؟"،
أيها المؤمن الذي يريد أن يزداد يقينًا، وأن يرى بعين بصيرته عظمة الخالق في كل صباح ومساء،
بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الخلق، والبعث، وسعة الكلمات، والملكية المطلقة، تأتي هاتان الآيتان الكريمتان لتختم هذا المقطع العظيم من سورة لقمان، وتضعنا أمام حقيقة دائمة تتكرر كل يوم، حقيقة يعيشها كل إنسان في كل لحظة، ولكن أكثرهم غافلون. إنها حقيقة تعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر. إنها آيات كونية صامتة، لكنها تنطق بأعلى صوت: إن الله هو الحق، وما يدعون من دونه الباطل.

تعالوا نعش معًا هاتين الآيتين الجامعتين، اللتين تختمان الحجة، وتقيمان البرهان، وتدعوانا إلى إعلان التوحيد الخالص:
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 29]
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: 30]
اولا ً: دلالة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. استفهام تقريري يوقظ العين والقلب معًا

تبدأ الآية باستفهام تقريري آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. لقد تكرر هذا الاستفهام في السورة (في الآية 20: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾). هذا التكرار ليس عبثًا، بل هو منهج قرآني في لفت الانتباه إلى الآيات المشهودة. كأن الله يقول لنا: "هل عميت أبصاركم وبصائركم عن هذه الحقيقة الواضحة التي ترونها كل يوم؟"

اللمسة البلاغية:
﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بصيغة المفرد، تخاطب كل واحد منا على حدة. فأنت أيها الفرد، مسؤول عن رؤيتك وتفكرك. لا تعتمد على رؤية غيرك. انظر أنت، وتفكر أنت، وآمن أنت.
ثانيًا: دلالة ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.. الحركة الدائمة التي لا تخطئ

وهنا تأتي الصورة الحسية الأولى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾.
الإيلاج معناه: الإدخال بلطف وتدريج. إنه يصف عملية انتقال الليل إلى النهار والعكس بشكل تدريجي سلس. لا يحدث ذلك فجأة، بل يزداد النهار قليلا ً قليلا ً في الليل (في الربيع والصيف)، ويزداد الليل قليلا ً قليلا ً في النهار (في الخريف والشتاء). هذا التدرج هو من رحمة الله وحكمته. فلو تحول الليل إلى نهار فجأة، لفسدت الحياة على الأرض.

مثال واقعي (لنعيش جمال المشهد):
تأمل كيف ينسلخ النهار من الليل عند الفجر: خيط رفيع من النور يظهر في الأفق، ثم يتسع ويتسع، وكأن النهار يُدخل نفسه بلطف في ظلمة الليل، حتى يغمرها. وعند الغروب، يبدأ الليل يُدخل ظلمته في ضوء النهار، تدريجيًا، حتى يلف الأفق. هذا المشهد الذي نراه كل يوم، هو آية من آيات الله، ومع ذلك يمر على كثير من الناس دون تفكر.
ثالثًا: دلالة ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.. النعمة الدائمة التي لا نتوقف عن شكرها

ثم ينتقل إلى سبب هذا الإيلاج: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

الشمس والقمر هما آلتا الليل والنهار. الله سخرهما، أي ذللهما وجعلهما منقادين لأمره، يسيران وفق نظام دقيق لا يختل أبدًا. وهذا التسخير هو خدمة للإنسان. فبالشمس نعرف النهار ونسعى في

معايشنا، وبالقمر نعرف الشهور والسنين، ونستريح في الليل.

اللمسة البلاغية:
عطف التسخير على الإيلاج، لبيان أن هذا النظام البديع ليس عشوائيًا، بل هو بتقدير العزيز الحكيم. إنه تسخير وليس مجرد حركة ميكانيكية. فالشمس والقمر مأموران، يؤديان مهمتهما بإذن ربهما.

مثال واقعي (لنعيش معنى التسخير):
تخيل أنك تستخدم جهازًا دقيقًا مثل الساعة. أنت تضبطها وتثق أنها ستعمل بدقة. لكن قد تتعطل الساعة. أما الشمس والقمر، فلم تتعطلا منذ خلقهما الله. من الذي سخرهما بهذه الدقة المذهلة؟ إنه الله.
رابعًا: دلالة ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.. تذكير بالنهاية الحتمية

ثم تأتي الحقيقة التي نغفل عنها: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

كل من الشمس والقمر، بل وكل شيء في الكون، يجري في فلكه ومساره، ولكن ليس إلى الأبد. إنه يجري إلى أجل مسمى، أي وقت محدد في علم الله، تنتهي عنده هذه الدورة، وتقوم القيامة، وتنطوي السماء، وتكوّر الشمس، ويُخسف القمر. هذا النظام العجيب الذي نراه مستقرًا، هو مؤقت، وسينتهي. هذه الآية تذكرنا بأن الدنيا دار فناء، وليست دار بقاء.

الربط بالآية السابقة (البعث):
في الآية 28 تحدث عن البعث. وهنا يذكر أن الشمس والقمر تجريان إلى أجل مسمى تنتهي عنده الحياة الدنيا، ثم يأتي البعث. إنه ترابط عجيب في النظم القرآني.
خامسًا: دلالة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.. المراقبة الدائمة في كل زمان ومكان

وتختم الآية الأولى بهذه الصفة العظيمة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الخبير هو العالم ببواطن الأمور ودقائقها. والله خبير بأعمالكم، سواء كنتم في ليل أو نهار. الليل يخفي أعمالكم عن الناس، لكنه لا يخفيها عن الخبير. النهار يظهر أعمالكم، لكن الله خبير بالنيات و المقاصد. فكما أن الله دبر الليل والنهار بهذه الدقة، فهو خبير بكل ما يعمل العباد فيهما، وسيحاسبهم عليه.

مثال واقعي (لترسيخ المراقبة):
شخص يعمل في الخفاء، في ظلمة الليل، ويظن أن لا أحد يراه. لكن الليل نفسه هو آية من آيات الله، والله هو الذي يولجه في النهار. فكيف يخفى عليه عمل يعمل فيه؟ إنه تناقض! الآية توقظنا إلى أن مدبر الكون هو نفسه الرقيب الحسيب.
سادسًا: الانتقال إلى الآية 30: دلالة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.. الإعلان النهائي

وبعد أن عرضت الآية السابقة الدليل الكوني (إيلاج الليل والنهار، تسخير الشمس والقمر)، تأتي الآية 30 لتقرر النتيجة المنطقية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كل ما سبق: الخلق، والتدبير، والتسخير، والإيلاج، والجري إلى أجل مسمى .كل هذه الأمور العظيمة تشهد بأن الله هو الحق .الحق يعني: الثابت الذي لا يتغير، والموجود وجودًا مطلقًا، و المتصرف الحقيقي في الكون .فكل ما عداه باطل، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا يملك لغيره موتًا ولا حياة ولا نشورًا.
سابعًا: دلالة ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.. نفي كل ما يعبد من دون الله

وبمقابلة الحق يأتي الباطل: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.

ما موصولة عامة، تشمل كل ما عُبد من دون الله: الأصنام، الأوثان، الشمس، القمر، الملائكة، الأنبياء، ا لأولياء، الهوى، المال، الجاه... كل هذه باطل. الباطل هو الزائل الذاهب، الذي لا حقيقة له. فهذه المعبودات لا تملك من الأمر شيئًا. هل هي التي خلقت الليل والنهار؟ هل هي التي سخرت الشمس و القمر؟ كلا. فهي إذًا باطل.

مثال واقعي (لنرى الباطل في حياتنا):
رجل يجمع المال طوال حياته، ويعبده (أي يقدم طاعة الله لأجله)، ويموت ويتركه. هذا المال باطل بـ النسبة له، لأنه لم ينفعه في آخرته. إنسان آخر يعبد هواه، فيفعل ما يشتهي. هذا الهوى باطل، لأنه

سيزول بزوال الشهوة، أو بزوال صاحبه. الثابت الوحيد هو الله الحق.
ثامنًا: دلالة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.. الختام بصفات الجلال والعظمة

وتختم الآية والسورة (في هذا المقطع) بهذين الاسمين العظيمين: ﴿الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

1.﴿الْعَلِيُّ﴾: هو المرتفع على كل شيء بذاته وقدره وقهره .فهو فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقه .وعلوه صفة كمال، تدل على أنه الحق الذي ليس فوقه شيء.
2.﴿الْكَبِيرُ﴾: هو العظيم الذي كل شيء دونه .فكل ما سواه صغير حقير .من عرف الله بأنه الكبير، صغرت الدنيا في عينه، واستهان بكل مصاعبها، لأنها من صغير إلى كبير.

الربط بأول السورة:
في أول السورة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. وهنا يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾. فالكتاب حق من عند الحق. والكون كله آيات تشهد بأن الله حق. إنه تناسق بديع بين الوحي والكون.
تاسعًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآيتين

1.الرسالة التربوية: التفكر في الآيات الكونية اليومية

· الآيات تعلمنا أن نربط العبادة بـ التفكر .لا تمر على الليل والنهار مرور الكرام .اجعل من غروب الشمس وشروقها موعدًا للتسبيح والذكر .هذا يربطك بالله طوال يومك.

2.الرسالة النفسية: الطمأنينة بأن الكون بيد حق

· إذا كان الله هو الحق، وكل ما سواه باطل، فلماذا الخوف والقلق من الباطل؟ لماذا تخاف من صاحب مال أو سلطان وهو باطل زائل؟ تعلق بـ الحي القيوم، فهو وحده الذي بيده الأمر كله.

3.الرسالة العملية: مراقبة الخبير في كل وقت

· الليل والنهار يذكرانك بأن الله خبير بعملك في كليهما .لا تكن ممن يتقون الله في النهار أمام الناس، ويعصونه في الليل في الخفاء .استو في سرك وعلانيتك، فإن الله خبير بما تعمل.

4.الرسالة الدينية: التوحيد الخالص لله العلي الكبير

· الآيتان تدعوان إلى إخلاص العبادة لله وحده .فهو الحق، وغيره باطل .وهو العلي الكبير، فلا تذل إلا له، ولا تخضع إلا لعظمته.
عاشرًا: مفاهيم مركزية من الآيتين في بناء ثقافة المسلم

1.ثقافة التوحيد المبني على البرهان الكوني

· المسلم لا يؤمن بالله عن جهل أو تقليد، بل عن برهان .هذه الآيات الكونية) الليل والنهار، الشمس والقمر (هي براهين ساطعة على وحدانية الله .هذه الثقافة تجعل إيمان المسلم راسخًا لا تهزه الشبهات.

2.ثقافة الاستغناء بالحق عن الباطل

· المسلم غني بالله عن كل ما سواه .هذه الثقافة تحرره من عبودية المال والجاه والشهوات .فهو يعلم أن كل هذه باطل، فلا يتعلق بها قلبه.

3.ثقافة تعظيم الله في القلب والجوارح

· عندما يوقن المسلم أن الله هو العلي الكبير، فإنه يعظمه في قلبه .هذا التعظيم ينعكس على جوارحه: خشوعًا في الصلاة، ووقارًا في المشي، وأدبًا في الحديث.
حادي عشر: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا اليومي؟

1.اجعل لك "وقفتين" في يومك:
· وقفة عند الفجر: عند طلوع الشمس وإيلاج النهار في الليل، قل: "أصبحنا وأصبح الملك لله الحق ، العلي الكبير."

· وقفة عند الغروب: عند غروب الشمس وإيلاج الليل في النهار، قل: "أمسينا وأمسى الملك لله، ما يدعون من دونه الباطل، وهو العلي الكبير."
هاتان الوقفتان تملآن يومك بركة ويقينًا.
.2تمرين "تفكر في آية كونية":
خصص دقيقة من وقتك لتتأمل الشمس أو القمر .انظر إلى الشمس وهي تجري في السماء .تذكر أنها مسخرة، وأنها تجري إلى أجل مسمى .هذا التفكر يحرك قلبك، ويزيدك إيمانًا.
.3مراقبة "الخبير" في خلواتك:
إذا هممت بمعصية في الخفاء، تذكر أن الله هو الذي يولج الليل في النهار .هو مالك الليل والنهار، وهو خبير بما تعمل فيهما .هذه المراقبة تجعلك تستحي من الله حق الحياء.
.4الاستعاذة من الباطل:
كلما شعرت أن قلبك تعلق بشيء من الدنيا) مال، شهرة، إنسان(، قل: "اللهم إني أعوذ بك أن أتعلق بباطل، واجعل تعلقي بك وحدك يا حق يا علي يا كبير." هذا الدعاء يطهر قلبك.

الخلاصة: إعلان التوحيد في قلب الكون

أيها القارئ النبيل،
لقد أراد الله بهاتين الآيتين أن يربط قلبك بـ الكون، ويجعل الكون شاهدًا على التوحيد. فالليل و النهار والشمس والقمر، كلها جنود مجندة، تشهد بأن الله هو الحق، وتدعوك إلى أن تعبده وحده.
فاستجب لهذا النداء. آمن بأن الله هو الحق، وأن ما تدعو إليه الألسنة والأهواء من دونه هو الباطل.
واملأ قلبك بتعظيم العلي الكبير، واجعل حياتك كلها سجودًا له، وشكرًا لنعمه. بذلك تكون قد فهمت حكمة لقمان، واتبعت سبيل المفلحين، ودخلت في زمرة المحسنين الذين هم على هدى من ربهم
المبحث التاسع
أيها الإنسان الذي ينسى ربه في الرخاء ويتذكره في الشدة،
أيها العبد الذي تمر به أمواج البلاء كالجبال، فيفزع إلى الله وحده، فإذا نجا عاد إلى غفلته،
أيها المتأمل في آيات الله الكونية والنفسية، الباحث عن حقيقة نفسه،
بعد أن عرضت الآيات السابقة آيات الله في الليل والنهار والشمس والقمر، وأثبتت أن الله هو الحق وما سواه باطل، تنتقل بنا سورة لقمان إلى مشهد إنساني حي يتكرر في كل زمان ومكان. إنه مشهد الإنسان في البحر، حين تهيج الأمواج، وتحيط به الأخطار من كل جانب. هناك، في تلك اللحظة الحرجة، تتجرد الفطرة الإنسانية من كل شوائب الشرك، وتتجه إلى الله وحده مخلصة له الدين. إنه مشهد يكشف حقيقة التوحيد الكامنة في أعماق كل نفس، ويكشف في الوقت نفسه طبيعة الإنسان الجحودة التي سرعان ما تعود إلى الغفلة بعد النجاة.

تعالوا نعش معًا هاتين الآيتين اللتين ترسمان بورتريه نفسيًا للإنسان، وتدعوانا إلى أن نكون من الصبار الشكور، لا من الختار الكفور:
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31]
﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: 32]
أولا ً: دلالة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾.. آية كونية متحركة
مرة أخرى، يستفتح القرآن بهذا الاستفهام التقريري: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. إنه يخاطب العين والبصيرة معًا. ألم تر بأم عينيك، أو على الأقل، ألم تسمع وتتصور في ذهنك، أن الفلك تجري في البحر؟

الفلك هي السفن، وهنا بصيغة الجمع لأنها جنس يشمل كل سفينة، كبيرة كانت أم صغيرة، شراعية أم بخارية. تجري أي تتحرك وتسير فوق سطح الماء. ولكن ما الذي يجعلها تجري؟ هل تجري بقدرة البشر وحدهم؟
لا. بل تجري ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾. نعمة الله هنا تشمل:

.1خلق الماء: وجعله على كثافة تحمل السفن.
.2تسخير الرياح: التي تدفع السفن الشراعية.
.3تسخير القوانين: قوانين الطفو، وقوانين البخار والمحركات في العصر الحديث.
.4هداية الإنسان: لصناعة السفن ومعرفة طرق الملاحة.

كل هذا من نعمة الله. فالسفينة التي تراها تمخر عباب البحر، هي في الحقيقة آية عظيمة، وشاهدة على قدرة الله ورحمته بعباده.

اللمسة البلاغية:
الباء في ﴿بِنِعْمَتِ اللهِ﴾ للسببية. أي أن سبب جريان الفلك هو نعمة الله. ولو سلب الله هذه النعمة (بأن سكن الريح، أو جعل الماء لا يحمل السفينة)، لوقفت الفلك عاجزة. فالأمر كله بيد الله.

مثال واقعي (لنعيش هذه الآية اليوم):
في عصرنا، نرى ناقلات النفط العملاقة، والبواخر السياحية التي تشبه المدن العائمة. قد يظن الإنسان أن هذه السفن تجري بقوة المحركات الجبارة والتكنولوجيا المتقدمة. لكن الآية تذكرنا: كل هذا بنعمة الله. من خلق الحديد؟ من جعل النفط يحترق فيولد طاقة؟ من جعل الماء يحمل هذه الكتلة الهائلة؟ إنه الله. فالتكنولوجيا الحديثة ليست إلا كشفًا لنعم الله المسخرة، وليست خلقًا مستقلا ً.
ثانيًا: دلالة ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾.. الغاية من التسخير: الرؤية والاعتبار

ثم يبين الله الحكمة من هذا التسخير: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾.

اللام للتعليل. أي أن الله سخر الفلك تجري في البحر لكي يريكم بعض آياته الدالة على قدرته ورحمته. فالمؤمن يركب البحر، أو يرى السفن، فيتفكر في من سخر هذا كله، فيزداد إيمانًا ويقينًا.

كلمة ﴿مِنْ﴾ هنا للتبعيض. أي: ليريكم بعض آياته. فآيات الله لا تحصى، وما نراه في البحر هو قطرة من بحر قدرته. وهذا يذكرنا بقوله: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾.
ثالثًا: دلالة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.. المؤمن الحقيقي هو الذي ينتفع بالآيات

وهنا يختتم الآية ببيان من هم أهل الانتفاع بهذه الآيات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

لم يقل: "لآيات لكل أحد". بل خصها بـ الصبار الشكور. لماذا؟
لأن الصبر والشكر هما جناحا المؤمن. وهما اللذان يؤهلان القلب لرؤية آيات الله والانتفاع بها.

· الصبار: هو الذي يصبر على البلاء والشدة. وهذا سيأتي بيانه في الآية التالية في مشهد الموج.
· الشكور: هو الذي يشكر الله في الرخاء والنعمة.

فالمؤمن في البحر، إذا هاج الموج صبر واحتسب، وإذا سكن البحر وجرت الفلك بنعمة الله شكر. أما الغافل، فلا يرى في البحر إلا وسيلة سفر، ولا يشعر بآيات الله.

الربط بمطلع السورة:
في أول السورة قال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾. وهنا: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. فالمحسن هو الصبار الشكور. وبهذا نرى أن سورة لقمان كلها تدور حول بناء الإنسان المحسن الذي يجمع بين الصبر والشكر.

مثال واقعي:
رجلان يركبان نفس السفينة. أحدهما غافل، لا يرى في البحر إلا ماءً، ولا يسمع إلا ضجيج المحركات. والآخر متأمل: يرى في زرقة البحر آية، وفي جريان الفلك آية، وفي تنفس الصعداء آية. هذا الأخير هو الصبار الشكور، وهو الذي انتفع بالآيات.
رابعًا: الانتقال إلى الآية 32: دلالة ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾.. تصوير الشدة بأسلوب مرعب

بعد أن ذكر جريان الفلك بنعمة الله في حال الرخاء، ينتقل إلى حال الشدة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾.

غشيهم أي غطاهم وعمهم من كل جانب. موج أي أمواج عظيمة هائلة. والتشبيه ﴿كَالظُّلَلِ﴾ صورة بيانية رائعة. الظلل جمع ظلة، وهي السحابة الكثيفة، أو كل ما أظلك من فوقك. فالموج العظيم، بارتفاعه وتراكبه، يشبه الجبال أو السحب المتراكمة التي تغطي السماء. وكأن البحر قد تحول إلى جبال ماء تحيط بهم من كل جانب، وتظللهم بثقلها وعظمها، مهددة بالإطباق عليهم.

اللمسة البلاغية:
تشبيه الموج بـ الظلل يجمع بين العلو (ارتفاع الموج) والإحاطة (إطباقه عليهم من كل جانب). إنه مشهد مرعب، تشعر معه النفس بقرب الهلاك. وفي هذه اللحظة، تتجرد الفطرة الإنسانية.

مثال واقعي معاصر:
من شاهد أفلامًا وثائقية عن العواصف البحرية، يرى الأمواج كأبراج عالية تحيط بالسفينة من كل جانب، والسماء مظلمة، والرياح عاصفة. في تلك اللحظة، ينسى الإنسان كل قوته وكل أسبابه المادية،

ويتجه بفطرته إلى الله.
خامسًا: دلالة ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.. عودة الفطرة إلى التوحيد الخالص

وهنا تظهر حقيقة الفطرة: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

دعوا أي نادوا واستغاثوا. مخلصين له الدين أي موحدين لا يشركون به شيئًا. في هذه اللحظة، ينسى الإنسان كل معبوداته الباطلة: الأصنام، الأوثان، البشر، الأسباب المادية... يتجه بقلبه وقالبه إلى الله وحده. لا يدعو ملكًا، ولا نبيًا، ولا وليًا، بل الله وحده. وهذا إقرار عملي بأن الفطرة السليمة موحدة، وأن الشرك طارئ عليها.

الربط بالآية 25:
هناك، أقر المشركون بألسنتهم أن الله هو الخالق. وهنا، في حال الشدة، يدعونه مخلصين. فشتان بين الإقرار في الرخاء، والدعاء في الشدة. الأول قد يكون باللسان فقط، أما الثاني فمن أعماق القلب.

مثال واقعي:
تأمل حال كثير من الناس اليوم، حتى من يدعي الإلحاد! إذا ركب طائرة واضطربت في الجو، أو تعرض لحادث سيارة كاد يهلك فيه، فإنه فطريًا يقول: "يا رب!" أو "يا الله!". هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تظهر عند الشدة.
سادسًا: دلالة ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.. انقسام الناس بعد النجاة

وبعد هذا المشهد المهيب، تأتي النهاية السعيدة في الظاهر، ولكنها المحك الحقيقي: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾.

نجاهم أي خلصهم ونجاهم من الهلاك. إلى البر أي إلى اليابسة، حيث الأمان والاستقرار. وهنا ينقسم الناس إلى فريقين:

1.﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: المقتصد هو المستقيم على العهد، الذي بقي على ما كان عليه من الإخلاص و التوحيد، أو على الأقل لم ينكر نعمة الله .فهو وسط بين الإفراط والتفريط .إنه يفي بعهده مع الله، ويستمر على شكره وطاعته.
2.الفريق الثاني: ويفهم من السياق، وهم الذين جحدوا وعادوا إلى شركهم وكفرهم بعد النجاة .وهؤلا ء هم موضوع الذم في ختام الآية.

اللمسة البلاغية:
﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ نكرة في سياق التبعيض. أي بعضهم مستقيم. وهذا يدل على أن الكثير منهم ليسوا كذلك. وهو ما أكدته آيات أخرى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: 49].
سابعًا: دلالة ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.. أفظع صفات الجاحدين

وتختم الآية بذم الفريق الثاني بأبلغ ذم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

يجحد أي ينكر ويبخس حق الله، ويغطي نعمه، وينسبها إلى غير الله (كالصدفة، أو العلم، أو القوة الذاتية). خَتَّارٍ: صيغة مبالغة من الختر، وهو الغدر ونقض العهد. فهو غدار، ينقض عهده مع الله بعد أن دعاه مخلصًا. كفُورٍ: صيغة مبالغة من الكفر، وهو جحود النعمة وسترها. فهو يغطي نعم الله ولا يعترف بها.

الفرق بين "صبار شكور" و"ختار كفور":

· الصبار الشكور: يفي بعهده، يثبت في الشدة (صبار) وفي الرخاء (شكور).
· الختار الكفور: يغدر بالعهد (ختار)، ويجحد النعمة بعد النجاة (كفور).
وهكذا تتضح ثنائية السورة: هناك المحسنون (الصبار الشكور) والمسيئون (الختار الكفور).

مثال واقعي صادم:
مريض أصيب بمرض خطير، دعا الله أن يشفيه، ونذر إن شفاه الله أن يصلي ويتصدق. شفاه الله. ماذا فعل بعد شفائه؟ هل كان مقتصدًا فوفى بنذره واستمر على طاعة الله؟ أم كان ختارًا كفورًا فعاد إلى غفلته، ونسي دعاءه، ونسب شفاءه إلى الطبيب وحده أو إلى الصدفة؟! هذا هو الاختبار الحقيقي.
ثامنًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآيتين

.1الرسالة التربوية: استثمار لحظات الشدة لتربية النفس على التوحيد

· الشدة تكشف الفطرة. علينا أن نستثمر لحظات الخوف والبلاء لـ تجديد التوحيد في قلوبنا. عندما تمر بضائقة، لا تقل: "يا فلان أغثني". بل قل: "يا الله". هذه هي التربية العملية على الإخلاص.

.2الرسالة النفسية: احذر من الغدر بعد النجاة

· النفس البشرية سريعة النسيان. بعد أن تنجو من الشدة، قد تعود إلى الغفلة. الآية تحذرك: لا تكن ختارًا كفورًا. تذكر دعاءك في الشدة، وكن صبارًا شكورًا في الرخاء.

.3الرسالة العملية: الوفاء بالعهد مع الله

· إذا قطعت عهدًا على نفسك في وقت الشدة (نذرت صلاة، صدقة، استقامة)، فأوفِ به. الوفاء بالعهد هو علامة المقتصدين الصادقين. ونقضه علامة الختارين.

.4الرسالة الدينية: الفطرة التوحيدية دليل على الحق

· حتى المشركين والملحدين، في أعماقهم، يتجهون إلى الله وحده عند الشدة. هذه حجة عليهم يوم القيامة. وأنت أيها المسلم، احمد الله أن جعلك من الموحدين في الرخاء والشدة.
تاسعًا: مفاهيم مركزية من الآيتين في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة الصبر والشكر كمنهج حياة

· المسلم لا يعيش ردود أفعال. هو صبار في البلاء، شكور في النعماء. هذه الثقافة تجعله ثابتًا في كل الأحوال، لا تزعزعه الشدائد، ولا تطغيه النعم.

.2ثقافة الوفاء بالعهد

· ثقافة المسلم تقوم على الوفاء. وعد الله بأن يكون عبدًا شاكرًا، فعليه أن يفي. هذه الثقافة تبني مجتمعًا صادقًا، أفراده أوفياء بعهودهم مع الله ومع الناس.

.3ثقافة الاعتبار بآيات الله في البحر والبر

· المسلم يرى آيات الله في كل مكان: في البحر، في الفلك، في الموج، في النجاة. هذه الثقافة تجعل حياته رحلة إيمانية مستمرة، وليس مجرد حياة روتينية.
عاشرًا: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا اليومي؟

.1ذكر "دعاء الشدة" في الرخاء:
لا تنسَ دعاءك وقت الشدة. اكتبه، أو تذكره دائمًا. قل: "اللهم إني كنت في شدة كذا فدعوتك فنجيتني، فأعني على شكرك وطاعتك."
.2تدبر "الموقف البحري" في حياتك:
كلنا نمر بـ "أمواج كالظلل" من الهموم والمشاكل. في تلك اللحظة، تدرب على الإخلاص لله. لا تلتفت إلى الأسباب، بل اجعل قلبك مع الله وحده. ثم إذا نجاك، فكن مقتصدًا وفيًا.
.3تمرين "التأمل في نعمة الأمان":
بعد كل سفر، سواء بالطائرة أو السيارة أو حتى بعد يوم عمل متعب، تذكر أن الله هو الذي نجاك. قل: "الحمد لله الذي نجاني مما أخاف، وردني إلى أهلي سالمًا." هذا الشكر اليومي يبني فيك شخصية الشكور.
.4حاسب نفسك: هل أنا "صبار شكور" أم "ختار كفور"؟
اسأل نفسك بصدق: كيف أتصرف في الشدة؟ وكيف أتصرف في الرخاء؟ هل أنا من الذين يوفون بعهدهم مع الله؟ أم أنسى بمجرد أن تنفرج الأزمة؟ هذه المحاسبة توقظ القلب.

الخلاصة: في قلب العاصفة

أيها القارئ الكريم،
لقد صور لنا القرآن في هاتين الآيتين حال الإنسان في أصدق صورها. إنه إنسان ضعيف، يلجأ إلى الله في الشدة. لكنه سريع النسيان، يعود إلى غفلته في الرخاء. والقرآن يدعونا إلى أن نكون من

الصابرين الشكورين، الذين يوفون بعهدهم مع الله في السراء والضراء.
إن الفلك التي تجري في البحر، والموج الذي يغشاهم كالظلل، ما هي إلا مرآة لحياتنا. حياتنا كلها رحلة في بحر الدنيا، تعترضنا فيها أمواج الفتن والابتلاءات. فإن لجأنا إلى الله وحده، نجانا. وإن شكرناه على نجاته، ثبتنا. وإن جحدنا وغدرنا، كنا من الختار الكفور، وخسرنا الدنيا والآخرة.
فاختر لنفسك: أن تكون من المحسنين الصابرين الشكورين، الذين لهم عقبى الدار. واجعل قلبك معلقًا بالله وحده، في الشدة والرخاء، فهو نعم المولى ونعم النصير..

المبحث العاشر

أيها الإنسان الذي يعيش في غمرة الحياة، تلهيه زخارفها، وتنسيه حقيقة مصيره،
أيها العبد الذي يبحث عن سر القوة والتميز في زمن كثرت فيه وسائل التوجيه القسري، وضاعت فيه بوصلة الضمير،
أيها المربي الذي يتساءل: كيف نبني جيلًا ملتزمًا بقيمه ليس خوفًا من رقيب بشري، بل انطلاقًا من وازع داخلي لا يتزعزع؟
بعد أن عرضت سورة لقمان مشاهد الكون (الليل والنهار، الشمس والقمر، الفلك تجري في البحر)، ومشاهد النفس الإنسانية (الإخلاص في الشدة والغدر بعد النجاة)، تصل بنا الرحلة إلى ذروة النداء وأعظم وصية. إنه نداء ليس للمؤمنين فحسب، بل للناس جميعًا. نداء يوقظ القلوب من سبات الغفلة، ويهز الوجدان هزًا عنيفًا، ليذكرنا بيوم لا تنفع فيه الأنساب ولا الأموال، يوم تتقطع فيه كل الروابط إ لا رابطة التقوى.

تعالوا نعش معًا هذه الآية المهيبة، التي ترسم لنا دستور اليقظة الدائمة، ومصدر العزة الحضارية، وسر القوة الخفية التي تجعل المسلم متميزًا على بقية الأمم:
**﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33]
أولا ً: دلالة النداء العام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.. خطاب للإنسانية جمعاء

تبدأ الآية بنداء يختلف عن كل النداءات التي سبقت في السورة. لقد سمعنا نداء لقمان الخاص لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ﴾. وهنا يأتي النداء الإلهي العام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.
هذا الانتقال من الخاص إلى العام له دلالة عظيمة: إن الحكمة التي علمها لقمان لابنه ليست خاصة بأسرة أو قبيلة، بل هي رسالة عالمية لكل إنسان على وجه الأرض. فبعد أن عرضت السورة نماذج مختلفة من البشر (المجادل، المقلد، المحسن، الكافر، المقتصد، الختار)، توجه الخطاب إلى الناس جميعًا لتلخص لهم خلاصة الأمر: التقوى.

اللمسة البلاغية والتربوية:
النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فيه تنبيه شديد، واستثارة للانتباه. وكأن مناديًا من السماء ينادي في أرجاء الأ رض: "أيها الناس! استمعوا! الأمر جد خطير!". إنها دعوة للتوقف عن اللهو والغفلة، والإصغاء إلى أهم رسالة في الوجود.
ثانيًا: دلالة ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.. التقوى: الوقاية واليقظة الدائمة

الأمر الأول والأعظم: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

ما هي التقوى؟
التقوى في اللغة مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين ما تخاف منه وقاية وحاجزًا. فتقوى الله تعني: أن تجعل بينك وبين غضب الله وعقابه وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه.
وقد لخص بعض السلف معنى التقوى بقولهم: "هي أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله."

علاقة التقوى بالحالة النفسية والعقلية للفرد:
التقوى ليست مجرد شعور بالخوف السلبي، بل هي حالة يقظة دائمة للعقل والقلب معًا.

· عقليًا: التقوى تجعل العقل متيقظًا، يزن كل عمل قبل الإقدام عليه: هل هذا يرضي الله أم يغضبه؟ هذا العقل المتقي لا يتحرك إلا في ضوء منهج الله .إنه عقل ناقد، لا ينساق وراء العادات والتقاليد الفاسدة، ولا ينخدع ببريق المغريات.
· نفسيًا: التقوى تمنح النفس طمأنينة وسكينة .المتقي يعيش في أمان نفسي، لأنه يعلم أنه يسير على طريق الهدى، وأن الله معه .قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ .هذه المعية تمنحه قوة لا توصف.

مثال واقعي (لتوضيح أثر التقوى في اليقظة العقلية والنفسية):

· موظف يعمل في مؤسسة: يأتيه مراجع يعرض عليه رشوة لتسهيل معاملة مخالفة للقانون .الموظف غير المتقي قد يفكر: "الفرصة ذهبية، ومن سيراني؟" .أما الموظف المتقي، فإن عقله المتقيظ يذكره فورًا: "اتق ربك! الله يراك، وهذا حرام." هنا التقوى عملت كـ رادع داخلي، وحاجز وقائي، جعله يرفض الرشوة ليس خوفًا من رقيب بشري، بل خوفًا من الله.
ثالثًا: دلالة ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾.. مشهد يوم القيامة المفزع

بعد الأمر بالتقوى بشكل عام، يأتي الدافع الأقوى للتقوى: تذكر يوم القيامة. ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا...﴾.

الخشية هي الخوف الشديد الممزوج بالمعرفة والعلم بعظمة المخوف. فالأمر ليس مجرد خوف من مجهول، بل هو خوف مبني على علم بما سيحدث في ذلك اليوم. وقد وصف الله هذا اليوم بوصف يهز كيان الأسرة التي هي أقدس رابطة في الدنيا: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾.

في الدنيا، الأب يفدي ابنه بنفسه وماله. والأم تحمل عن ولدها همه ومرضه. وفي يوم القيامة، كل هذه الروابط تنقطع. لا يجزي أي لا يغني ولا ينفع. الوالد لا يستطيع أن يدفع عن ولده شيئًا من العذاب، ولا الولد يستطيع أن يشفع لوالده. كل نفس بما كسبت رهينة.

اللمسة البلاغية والنفسية:
تصوير انقطاع أقوى رابطة إنسانية (رابطة الوالد وولده) يجعل العقل يدرك هول الموقف. إذا كان الوالد لا ينفع ولده، فهل ينفعك صديقك؟ جاهك؟ مالك؟ كلا. لن ينفعك إلا ما قدمت من عمل صالح. هذا المشهد يزرع في القلب خشية تدفع إلى العمل.

مثال واقعي (لنعيش هول المشهد):
تخيل يوم القيامة، وقد أحاطت بك أهواله. تبحث عمن يشفع لك، تنظر إلى أبيك... فينظر إليك بعين حائرة، لا يملك لك شيئًا. تنظر إلى ابنك الذي كنت تفديه... فلا يستطيع أن يقدم لك حسنة واحدة. في تلك اللحظة، تتمنى لو أنك عملت لنفسك، لو أنك اتقيت ربك. هذه الصورة الذهنية التي ترسمها ا لآية هي أقوى دافع للتقوى.

رابعًا: دلالة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾.. تأكيد الحقيقة وإزالة الشك

بعد هذا التصوير المخيف، يأتي التأكيد الإلهي: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾.

هذا اليوم ليس خيالًا، وليس أسطورة، بل هو وعد الله، ووعد الله حق لا يتخلف. فكما أن الله أنجز وعده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فإنه سينجز وعده بيوم القيامة. هذا التأكيد يزيل أي شك أو استبعاد قد يدور في خلد الإنسان.
خامسًا: دلالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾.. التحذير من أعظم فخين

وبناءً على أن يوم القيامة حق، يأتي التحذير المزدوج من فخين كبيرين:

1. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أي لا تخدعكم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها وملذاتها، فتظنوا أنها دار بقاء، وتنسوا الآخرة .الدنيا متاع قليل) كما مر في الآية(24 ، وهي غرور، تظهر حلوة وتخفي مرًا.
2. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾: الغرور هو الشيطان .فهو يغركم باللّه، أي يزين لكم المعاصي، ويمنيكم المغفرة بلا عمل، ويقول لكم: "الله غفور رحيم، افعلوا ما شئتم" .إنه يستخدم صفات الله الرحيمة ليدفعكم إلى معصيته! وهذا من أشد الحيل الشيطانية.

الربط بالآية 6:
في أول السورة، حذر الله من ﴿مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾. وهنا يحذر من الغرور (الشيطان) والحياة الدنيا. فكلها أدوات استخفاف وإضلال.
سادسًا: كيف تكون التقوى رقابة داخلية تحقق التميز الحضاري؟

هنا نصل إلى بيت القصيد في ثقافة سورة لقمان: التقوى هي سر القوة والتميز.

الفرق بين الالتزام بالقانون والالتزام بالتقوى:

· القانون الوضعي: رقابة خارجية .الإنسان يلتزم بالقانون خوفًا من العقوبة البشرية) غرامة، سجن .(لكنه إن وجد فرصة للإفلات من الرقابة، أو وجد ثغرة في القانون، فإنه قد ينحرف .الالتزام هنا سطحي وظرفي.
· التقوى: رقابة داخلية .الإنسان يلتزم بالقيم الإسلامية لأنها نابعة من ضميره الحي وخوفه من الله . إنه يعلم أن الله يراه حتى لو اختفى عن أعين البشر .هذا الالتزام عميق ودائم .صاحب التقوى لا يغش حتى لو كان وحده، ولا يظلم حتى لو كان قويًا.

نتائج هذه الرقابة الداخلية على الفرد والمجتمع والحضارة:

.1على مستوى الفرد: تمنحه استقرارًا نفسيًا وثقة عالية .هو لا يحتاج إلى من يراقبه، بل هو رقيب على نفسه .وهذا يحرر طاقاته للإبداع والعمل.
.2على مستوى المجتمع: مجتمع المتقين هو مجتمع أمن وأمان .تغيب فيه الجريمة، ويندر فيه الفساد، لأن الوازع الداخلي أقوى من كل قوانين الأرض .هذا المجتمع يوفر في ميزانيات الشرطة و المحاكم والسجون، ويوجهها للتنمية.
.3على مستوى الحضارة: هنا سر التميز الحضاري الإسلامي .الحضارة الغربية قامت على القانون، وهو إنجاز عظيم، لكنه يظل رقابة خارجية .أما الحضارة الإسلامية، فقد قامت على التقوى، وهي رقابة داخلية، وهذا أقوى وأبقى .المسلم الملتزم بتقواه لا يحتاج إلى كاميرات مراقبة أو أجهزة تفتيش ليكون أمينًا .هذه الثقافة الداخلية هي التي صنعت حضارة إسلامية ملأت الدنيا علمًا وعدلًا.

مثال واقعي (يظهر التميز الحضاري للتقوى):
في إحدى الجامعات الغربية، قاموا بتجربة: وضعوا كاميرات مراقبة في قاعات الامتحان، فقل الغش. في جامعات إسلامية قديمة، لم تكن هناك كاميرات، ولكن كان الطالب يستشعر قول النبي ﷺ: "من غشنا فليس منا"، وقول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، فكان لا يغش. هذا هو الفرق بين رقابة الآلة ورقابة الضمير الحي. الأولى محدودة، والثانية مطلقة.

سابعًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: غرس التقوى في النفوس منذ الصغر

· الآية تعلمنا أن نربي أبناءنا على الخوف من الله قبل الخوف من الناس .أن نربط سلوكهم بـ مراقبة الله، لا بـ مراقبة الأب أو المعلم .هذا يبني شخصية مستقلة وضميرًا حيًا.

.2الرسالة النفسية: التقوى علاج للقلق والاضطراب

· الإنسان الذي لا يتقي الله يعيش في قلق دائم: خوف من الفضيحة، خوف من العقاب، ندم على المعصية .أما المتقي، فهو مطمئن، لأنه يعيش في معية الله وحفظه .قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

.3الرسالة العملية: التقوى معيار للقرارات اليومية

· اجعل سؤال "هل هذا يتقى الله فيه؟" ميزانًا لكل قرار تتخذه: زواج، تجارة، وظيفة، سفر ...هذا السؤال البسيط يختصر عليك الطريق، ويحميك من الوقوع في الحرام.

.4الرسالة الدينية: التقوى هي أكرمكم عند الله

· الآية تؤكد أن ميزان التفاضل يوم القيامة هو التقوى، لا النسب ولا المال .﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .فهي تدعو إلى المنافسة في الطاعات، لا في حطام الدنيا.
ثامنًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة الرقابة الذاتية) الإحسان(

· ثقافة المسلم تقوم على "أن تعبد الله كأنك تراه" .هذه الرقابة الذاتية هي تاج الأخلاق، وهي التي تجعل المجتمع المسلم نظيفًا من الداخل.

.2ثقافة الاستعداد ليوم الحساب

· المسلم يعيش في الدنيا وهو مستعد للآخرة .هذا الاستعداد يمنحه جدية في الحياة، وهمة عالية في العمل الصالح.

3.ثقافة نقد الذات وتزكيتها

· التقوى تدفع المسلم إلى محاسبة نفسه باستمرار .فهو لا ينتظر حتى يحاسبه الناس، بل يحاسب نفسه قبل أن يحاسب.
تاسعًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

1.تمرين "سؤال التقوى" قبل كل فعل:
قبل أن تنام، راجع أحداث يومك .اسأل نفسك عن كل موقف: "هل اتقيت الله في هذا الموقف؟ هل كان يمكن أن أكون أتقى؟" .هذه المحاسبة اليومية تبني فيك اليقظة الدائمة.
2.تذكرة "وعد الله حق":
ضع هذه العبارة في مكان تراه يوميًا: "إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ" .كلما رأيتها، تذكر يوم القيامة، وتذكر أن كل ما تفعله محسوب، وأن وعد الله آتٍ لا محالة.
3.الحذر من "الغرور" في حياتنا المعاصرة:
الغرور اليوم لا يقتصر على الشيطان فقط، بل يشمل وسائل الإعلام والإعلانات والمؤثرين الذين يزينون الدنيا وينسوننا الآخرة .كن واعيًا، ولا تدع هذه الوسائل تغرك بالله.
4.بناء "جدار التقوى" في البيت:
اجعل من بيتك مدرسة للتقوى .تحدث مع أسرتك عن مراقبة الله، وعن أهوال يوم القيامة، وعن فضل التقوى .لنجعل بيوتنا حصونًا تحمينا من فتن الدنيا وغرور الشيطان.

الخلاصة: اليقظة الدائمة سر الفلاح

أيها القارئ النبيل،
لقد ختم الله لنا هذا المقطع العظيم من سورة لقمان بهذه الوصية الجامعة: ﴿اتقوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا...﴾. إنها وصية تجمع خوف العقاب ورجاء الثواب. إنها تذكرنا بأننا مسؤولون، وبأن حياتنا اختبار، وبأن يوم الحساب قادم.
التقوى هي السر الذي يجعل المسلم متميزًا. إنها القوة الداخلية التي تحركه نحو الخير وتمنعه من الشر، حتى في غياب كل رقيب بشري. هي الدرع الذي يحميه من فتن الدنيا وغرور الشيطان. وهي الطريق إلى رضوان الله وجنات النعيم.
فاجعل التقوى شعيرة حياتك، ودستور أخلاقك، ونبراس دربك. كن يقظًا دائمًا، مستعدًا للقاء ربك، ولا تدع الدنيا تغرك، ولا الشيطان يلهيك. بذلك تكون من المفلحين، الذين وعدهم الله بالجنة، ونجاهم من النار، وأكرمهم بجواره في دار المقامة.
المبحث الاخير
أيها الإنسان الذي يلهث وراء معرفة الغد، ويتعلق قلبه بما تخبئه الأيام،
أيها العبد الذي يقلبه القلق على رزقه وأجله، فيسأل في حيرة: "ماذا سيحدث غدًا؟ ومتى يأتي الفرج؟ وأين سأموت؟"
أيها المتفكر في آيات الله، الذي يريد أن يطمئن قلبه، ويعيش في سلام مع قدر الله،
بعد أن أمرتنا الآية السابقة بتقوى الله والخشية من يوم القيامة، قد يثور في النفس سؤال: "ومتى تقوم الساعة؟ متى هذا اليوم الذي حذرنا الله منه؟" فتجيب هذه الآية -خاتمة سورة لقمان- بأسلوب قاطع، يغلق الباب أمام التكهنات، ويفتح باب التسليم واليقين: إن علم الساعة وغيب المستقبل مفاتيحها عند الله وحده. إنها آية تضع حدود المعرفة البشرية، وتدعو الإنسان إلى التواضع العلمي، و التسليم للعليم الخبير، وتحرره من قلق المستقبل ليعيش حاضره بطاعة الله وتقواه.

تعالوا نعش معًا هذه الآية العظيمة، التي هي خاتمة الحكمة في سورة لقمان، والتي تجمع مفاتيح الغيب الخمسة في أوجز عبارة وأبلغها:
**﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]

أولا ً: دلالة الاختتام بهذه الآية.. ختم الحكمة بختم العلم الإلهي

تأمل معي روعة النظم القرآني:
لقد بدأت سورة لقمان بـ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾، إشارة إلى أن ما فيها هو منبع الحكمة.
وختمت بـ ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، إشارة إلى أن العلم المطلق لله وحده.

وكأن السورة تقول لنا: "لقد سمعتم وصايا الحكيم لقمان، ورأيتم آيات الله في الكون والنفس. والآن اعلموا أن كمال الحكمة هو أن تعترفوا بحدود علمكم، وتفوضوا ما غاب عنكم إلى العليم الخبير."

هذا الاختتام يجيب على التساؤل الطبيعي الذي قد يثيره قوله في الآية السابقة: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾. فالنفس تتشوق لتعرف: "متى هذا اليوم؟" فيأتي الجواب: لا تسأل عن وقته، فعلمه عند الله. إنه توجيه تربوي عظيم: لا تشغل نفسك بمعرفة ما استأثر الله بعلمه، بل اشغلها بما كلفك الله به من العمل.
ثانيًا: دلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.. أول مفاتيح الغيب وأعظمها

تبدأ الآية بأول مفاتيح الغيب الخمسة وأعظمها: علم الساعة.

الساعة هي يوم القيامة، اليوم الذي حذر الله منه في الآية السابقة. والله يخبرنا أن علم وقتها عنده وحده. لقد سأل المشركون والنبي ﷺ: "متى الساعة؟" فأنزل الله هذه الآية وغيرها ليؤكد أن هذا العلم خاص به سبحانه. لم يطلع عليه ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلا ً.

اللمسة البلاغية:
تقديم الجار والمجرور ﴿عِندَهُ﴾ يفيد الاختصاص والقصر. فالعلم عند الله لا عند غيره. وهذا يقطع الطريق على كل منجم وعراف ومتنبئ يدعي معرفة المستقبل أو موعد النهاية.

مثال واقعي:
على مر التاريخ، ظهر كثيرون ادعوا معرفة موعد نهاية العالم، وحددوا تواريخ، فكذبهم الواقع. لماذا؟ لأنهم جهلوا هذه الآية. العلم عند الله وحده. فمن يدعي معرفة الساعة، فهو كذاب أفاك، ولو كان ع الِمًا كبيرًا.
ثالثًا: دلالة ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾.. رزق الله الخفي

المفتاح الثاني: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾.

الغيث هو المطر. والله وحده يعلم متى ينزله، وأين ينزله، وكم مقداره. البشر قد يتوقعون هطول المطر بناءً على الأرصاد والدراسات، لكنهم لا يعلمون يقينًا. كم من مرة توقعت الأرصاد هطول أمطار غزيرة فتخلفت؟ وكم من مرة جاء المطر فجأة دون توقع؟
إنزال الغيث مرتبط بأرزاق العباد وحياتهم. فالله وحده يعلم متى تحتاج الأرض إلى الماء، فيأمر السحاب أن ينزل.

اللمسة البلاغية:
استخدام الفعل المضارع ﴿يُنَزِّلُ﴾ يفيد التجدد والاستمرار. فالغيث يتجدد نزوله بأمر الله، في كل مرة في موعده المحدد في علم الغيب.

مثال واقعي:
فلاح ينتظر المطر ليسقي زرعه. يقلق إذا تأخر، ويفرح إذا نزل. الآية تذكره: لا تقلق، الأمر بيد الله. هو وحده يعلم وقت الغيث. فتوكل عليه، وادعه، واعمل بالأسباب، ولا تحمل هم الرزق، فالرزاق عليم بعباده.
رابعًا: دلالة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.. العلم بالتفاصيل الخفية

المفتاح الثالث: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

ليس المقصود مجرد معرفة نوع الجنين (ذكر أو أنثى)، فهذا قد يعرفه البشر اليوم بالأجهزة الحديثة. بل العلم الإلهي أوسع وأعمق. الله يعلم:

- هل سيولد هذا الجنين أم سيسقط؟
- كم سيعيش؟ وماذا سيعمل؟
- هل سيكون شقيًا أم سعيدًا؟
- ما هي صفاته الخلقية والنفسية المستقبلية؟

هذا العلم الدقيق والمطلق لا يعلمه إلا الله. الأجهزة تكشف الحاضر الموجود، لكنها لا تعلم المستقبل وما تخبئه الأرحام.

مثال واقعي:
امرأة حامل، ذهبت للطبيب وأخبرها أن الجنين ذكر. هذا علم بالحاضر الموجود. لكن الطبيب لا يدري: هل سيكتمل الحمل؟ هل سيولد سليمًا؟ ماذا سيكون مصيره في الحياة؟ هذه الغيوب لا يعلمها إ لا الله. فالله وحده هو الذي يعلم ما في الأرحام بكل أبعاده.
خامسًا: دلالة ﴿وَمَا تدْرِي نفْسٌ مّاذَا تكْسِبُ غدًا﴾.. تحرير الإنسان من وهم التخطيط المطلق

بعد المفاتيح الثلاثة الأولى المتعلقة بالكون والحياة، يأتي مفتاحان يتعلقان بالإنسان نفسه، ليؤكدا جهله المطلق بما يخصه هو!
المفتاح الرابع: ﴿وَمَا تدْرِي نفْسٌ مّاذَا تكْسِبُ غدًا﴾.

لا تدري أي لا تعلم علم يقين. نفس نكرة، فكل نفس، مهما بلغت من الذكاء والتخطيط، لا تعلم ماذا ستكسب غدًا. قد يخطط الإنسان لصفقة رابحة، فإذا به يخسر. وقد يخشى الفقر، فيأتيه رزق من حيث لا يحتسب.
هذا المفتاح يحرر الإنسان من قلق المستقبل. أنت لا تعلم ماذا سيحدث غدًا، فلماذا تحمل همّه اليوم؟ اعمل ما عليك، وتوكل على الله، ودع الغد لله.

اللمسة البلاغية:
﴿مَاذَا تكْسِبُ﴾ عامة تشمل الكسب المادي (المال) والكسب المعنوي (الحسنات والسيئات). فأنت لا تدري: أتزيد حسناتك غدًا أم سيئاتك؟ أتأتي بعمل صالح أم تزل بك القدم؟ هذا الجهل يدفعك إلى الا ستعداد الدائم والتقوى، فلا تغتر بطاعتك اليوم، ولا تيأس من ذنب أمس.

مثال واقعي:
تاجر يخطط لصفقة غد، حسب كل شيء، واثق من الربح. في الليل، يمرض، أو يحدث في السوق ما يقلب الموازين. أين علمه الغيبي؟ ذهب هباءً. الآية تقول له: كن متواضعًا، لا تقل: "غدًا سأفعل كذا" إلا أن تقول: "إن شاء الله". فالمستقبل بيد الله وحده.
سادسًا: دلالة ﴿وَمَا تدْرِي نفْسٌ بِأيّ أرْضٍ تمُوتُ﴾.. ختام المسيرة بجهل المكان والزمان

المفتاح الخامس والأخير: ﴿وَمَا تدْرِي نفْسٌ بِأيّ أرْضٍ تمُوتُ﴾.

إذا كان الإنسان لا يعلم ماذا سيكسب غدًا، فهو كذلك لا يعلم أين سيموت. قد ينام في بيته، ويقوم في الصباح مسافرًا إلى بلد آخر، فيموت هناك. قد يكون في صحة وعافية، ويموت فجأة في مكان لم يخطر بباله.
هذا الجهل بـ مكان الموت وزمانه هو حكمة إلهية. لو علم الإنسان أين ومتى يموت، لعاش في قلق دائم، أو لاجترأ على المعاصي حتى يقترب الأجل. لكنه يجهل، فيبقى مستعدًا، خائفًا من لقاء الله في أي لحظة.

اللمسة البلاغية:
تأمل ترتيب المفاتيح: الساعة (نهاية العالم)، الغيث (سبب الحياة)، الأرحام (بداية الحياة)، كسب الغد (مسيرة الحياة)، مكان الموت (نهاية الفرد). إنها دورة حياة كاملة، بدءًا من الغيث والأرحام، ومرورًا بـ الكسب، وانتهاءً بالموت، وكل ذلك يسبق الساعة الكبرى. كل هذه المراحل محاطة بغيب الله، لا يعلم تفاصيلها إلا هو.

مثال واقعي:
رجل سافر إلى بلد بعيد للعمل أو السياحة، وهو بكامل صحته، وفجأة مات هناك. أهله في بلده لا يدرون. أصدقاؤه معه لا يتوقعون. لقد صدق الله: ﴿وَمَا تدْرِي نفْسٌ بِأيّ أرْضٍ تمُوتُ﴾. هذا يذكرنا دائمًا أن نستعد، فربما يكون هذا اليوم هو الأخير.
سابعًا: دلالة ﴿إِنّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.. التعليل الجامع لكل المفاتيح

وتختم الآية، وتختم معها سورة لقمان، بهذا التعليل العظيم: ﴿إِنّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

1.﴿عَلِيمٌ﴾: واسع العلم، محيط بكل شيء جملة وتفصيلا ً .يعلم الساعة، ويعلم وقت الغيث، ويعلم ما في الأرحام، ويعلم ماذا تكسب غدًا، ويعلم أين تموت.
2.﴿خَبِيرٌ﴾: العالم بدقائق الأمور وبواطنها .فهو ليس فقط عليمًا بوقت الساعة، بل خبير بحكمة إخفائها .ليس فقط عليمًا بنزول الغيث، بل خبير بمقدار الحاجة إليه.

الجمع بين العليم والخبير في ختام السورة، يؤكد أن الحكمة التي تضمنتها السورة، والغيوب التي

اختتمت بها، كلها نابعة من علم الله المطلق وخبرته التامة. فسلموا له، وثقوا بحكمته، ولا تجادلوا في غيبه.

الربط ببداية السورة:
في الآية 16 قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. وهنا: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. اللطيف يصل علمه إلى الخفايا، والعليم يحيط بالظواهر والبواطن، والخبير يعلم الدقائق. فصفات الله كلها كمال، محيطة بكل شيء.
ثامنًا: رسائل تربوية ونفسية وعملية من الآية

.1الرسالة التربوية: تعليم التواضع المعرفي والحد من الادعاء

· الآية تعلمنا أن نقف عند حدود علمنا .أن نقول فيما لا نعلم: "الله أعلم" .هذه هي ثقافة الأنبياء .لا تدعي معرفة الغيب، ولا تنجرف وراء المنجمين والعرافين .علم الغيب لله وحده.

.2الرسالة النفسية: التحرر من قلق المستقبل

· أكبر أسباب القلق النفسي هو الخوف من المجهول: ماذا سيحدث غدًا؟ أين سأموت؟ متى سأموت؟ الآية تعالج هذا القلق من جذوره: أنت لا تعلم، ولن تعلم .فتوقف عن القلق! فوض أمرك لله، واطمئن . فهو العليم الخبير بتدبيرك.

.3الرسالة العملية: الاستعداد الدائم ليوم القيامة والموت

· بما أنك لا تدري متى تقوم الساعة، ولا تدري بأي أرض تموت، فالواجب العملي هو الاستعداد الدائم . لا تؤجل التوبة إلى الغد، فالغد غيب .لا تقل: "سأعمل صالحًا عندما أكبر"، فالموت لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا.

.4الرسالة الدينية: التسليم لله وتفويض الأمر إليه

· الإيمان بهذه الآية يعني التسليم المطلق لله .أن تقول بقلبك: "يا رب، أنا لا أعلم، وأنت أعلم .أنا لا أقدر، وأنت تقدر .فدبر أمري، فإني لا أحسن التدبير." هذا هو كمال العبودية.
تاسعًا: مفاهيم مركزية من الآية في بناء ثقافة المسلم

.1ثقافة التسليم للغيب

· المسلم يؤمن بالغيب، ويسلم لله في كل ما استأثر بعلمه .هذه الثقافة تحميه من الخرافة والدجل، وتجعله متوازنًا في تعامله مع المستقبل.

.2ثقافة الاستعداد واليقظة الدائمة

· جهل الإنسان بوقت موته ومكانه يجعله في حالة يقظة دائمة .إنها ثقافة "عش ما شئت فإنك ميت" .هذه اليقظة هي سر التقوى التي أمرت بها الآية السابقة.

.3ثقافة التواضع العلمي

· المسلم لا يغتر بعلمه .مهما بلغ من العلم، فهو يعلم أن هناك مفاتيح غيب لا يعلمها إلا الله .هذه الثقافة تجعله متواضعًا مع الله ومع الخلق.
عاشرًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا اليومي؟

.1ردد "إن شاء الله" بقلبك لا بلسانك فقط:
عندما تقول: "سأفعل كذا غدًا"، استحضر معنى الآية .أنت لا تدري ماذا تكسب غدًا .فقل: "إن شاء الله" بقلب ممتلئ يقينًا بأن الأمر بيد الله، لا بلسانك فقط كعادة لفظية.
.2علاج القلق بـ "دعاء التفويض":
إذا شعرت بالقلق على مستقبلك، أو رزقك، أو أولادك، فادعُ بهذا الدعاء: "اللهم إني عبدك، لا أعلم ما في غد، ولا أين أموت .أنت العليم الخبير .فدبر أمري، واكفني هم الدنيا والآخرة."
.3لا تتبع المنجمين والعرافين:
في عصرنا، انتشرت تطبيقات "التنجيم" و"قراءة الكف" و"معرفة المستقبل" .الآية تقول لك بوضوح: لا أحد يعلم الغيب إلا الله .من يدعي معرفة ما في غد، فهو كذاب .لا تذهب إليه، ولا تصدقه.

.4استعد للموت في كل لحظة:
قبل أن تخرج من بيتك، استحضر أنك لا تدري بأي أرض تموت .ربما تكون هذه خرجتك الأخيرة . فتصدق، وودع أهلك بابتسامة، وأصلح قلبك، واجعل نيتك خالصة لله .هذه الاستعدادات اليومية تجعل الموت أيسر عليك، وتجعل حياتك كلها عبادة.

الخلاصة: مفاتح الغيب بيد العليم الخبير

أيها القارئ الكريم،
لقد ختم الله سورة لقمان بهذه الآية العظيمة، لتكون تاج الحكمة وخاتمتها. بعد أن علمنا لقمان كيف نعيش (بالتوحيد، والشكر، والصبر، والتواضع)، علمنا الله كيف نسلم للغيب، ونثق بتدبيره، ونستعد للقائه.
لقد أعطانا مفاتيح الغيب الخمسة، لا لنعرفها، بل لنعترف بجهلنا بها، ونسلم علمها إلى العليم الخبير.
فلا تسأل: "متى الساعة؟" بل اعمل لها.
لا تقلق: "متى ينزل الغيث؟" بل توكل على الرزاق.
لا تحزن: "ماذا في الأرحام؟" بل احمد الله على ما أعطى.
لا تخف: "ماذا سأكسب غدًا؟" بل أتقن عملك اليوم.
ولا ترهب: "أين سأموت؟" بل استعد للموت في كل مكان وزمان.
بهذا التسليم، وبهذا الاستعداد، وبهذا اليقين، تكون قد عشت حكمة لقمان كاملة، وبلغت مرتبة الإحسان ، ودخلت في زمرة المفلحين الذين قال الله فيهم في أول السورة: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.
فاجعل خاتمة هذه السورة فاتحة لحياة جديدة، حياة ملؤها التسليم لله، والثقة به، والعمل لما بعد الموت. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم
خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبنوره تنجلي الظلمات، وبكتابه تهتدي القلوب الحائرات.

لقد طوفنا معًا في رحاب سورة لقمان، تلك السورة التي نزلت لتكون دستورًا للروح، ومنهجًا للعقل، وخارطة طريق للقلب السائر إلى ربه. بدأناها بالوقوف على شرفتها العظيمة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، فكانت تلك الآية إعلانًا أن مرجعيتنا هذا الكتاب، وأن عزتنا في التمسك به. ثم أبحرنا في آياتها، فشهدنا صراع الحكمة مع التفاهة في مشهد «مشتري لهو الحديث»، ورأينا وجه المستكبر الذي يولي ظهره لآيات الله وكأن في أذنيه وقرًا.

ثم استنشقنا عبير الحكمة من وصايا العبد الصالح لقمان، وهو يهمس في أذن ابنه بذلك النداء الحبيب: ﴿يَا بُنَيَّ﴾... فكانت الوصايا عقدًا فريدًا ينتظم فيه التوحيد، والشكر، والبر، والمراقبة، والصلا ة، والأمر بالمعروف، والصبر، والتواضع. لقد علمنا لقمان أن الحكمة ليست كلمات تقال، بل حياة تُعاش، وأخلاق تُجسّد، ويقين يملأ جوانح القلب.

ثم وقفنا على شواطئ الكون الفسيح، نقرأ آيات الله في الآفاق: السموات المرفوعة بغير عمد، و الجبال الرواسي، والأرض المباركة، والفلك التي تجري في البحر بنعمته، والليل والنهار في تعاقبهما العجيب. كل ذلك لينطق في أعماقنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.

ثم جاءت الخاتمة المسكية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ لتعلمنا أدب التسليم لله في مغيباته، ولتحررنا من قلق المستقبل وهوس الغد، وتدعونا إلى أن نعيش يومنا عاملين، متوكلين، مستعدين ليوم النقاء الأكبر.

أيها القارئ الكريم،
لقد آن لك أن تطوي صفحات هذا الكتاب، ولكن اعلم أن رحلتك الحقيقية مع سورة لقمان تبدأ الآ ن. إنها ليست مجرد آيات تُتلى، بل هي مشروع حياة. اجعل من وصايا لقمان ميثاقك، ومن يقينه مرساتك، ومن شكره زادك. كن من المحسنين الذين ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. كن من الصبار الشكور، لا من الختار الكفور. كن ممن إذا عصفت بهم رياح الفتن تذكروا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.

نمضي الآن، كلٌ إلى سبيله، ولكننا على ميعاد دائم مع هذا الكتاب الحكيم، نتلوه آناء الليل وأطراف النهار، نتدبره باحثين عن هدى، مستلهمين منه حكمة، متزودين منه يقينًا.

اللهم اجعلنا من المحسنين المفلحين، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.
اللهم إنا نسألك حكمة لقمان، وشكر لقمان، ويقين لقمان.
اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.
تم بحمد الله وتوفيقه.
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش العامري